أحمد خيري العمري

وقائع الجمعة الأخيرة

رواية

مكتبة

عصير الكتب

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

وقائع الجمعة الأخيرة

عصير الكتب

أحمد خيري العمري

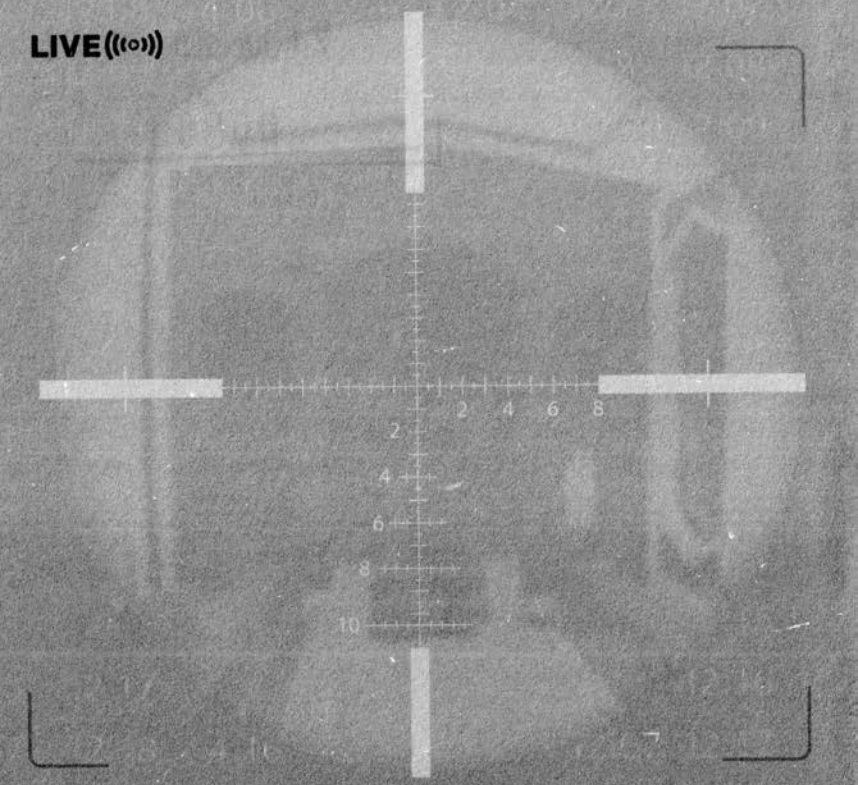

وقائع الجمعة الأخيرة

رواية

مكتبة

عصير الكتب

للنشر والتوزيع

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● العنوان: وقائع الجمعة الأخيرة ●

● الطبعة الأولى: يناير 2026م

● رقم الإيداع: 36757/2025م

● الترقيم الدولي: 978-977-992-669-8

● تأليف: أحمد خيري العمري

● تدقيق لغوي: هاجر محمود

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

مكتبة
t.me/soramnqraa

إهداء

إلى الشهيد حسين حازم العمري

تنويه

هذه الرواية تستند على أحداث الهجومَين الإرهابيَّين اللذين استهدفا مسجدَين في نيوزيلندا في منتصف مارس/ آذار 2019. وبرغم أن أحداث الهجومَين مفصَّلة بدقة كما وُثِّقت في التحقيقات، فإن الشخصيات في الرواية لا تمثل أي شخص بعينه سواء من الشهداء أو المصابين، وذلك حفاظًا على خصوصيتهم ومكانتهم ومشاعر ذويهم.

الساعة 5:50 فجرًا

في فجر اليوم الذي حدثت فيه المجزرة، استيقظ الحاج موسى أبو حجر من النوم وهو يعتقد أنه في دارهم في حي المنشية في يافا. الدار التي غادرها قبل أكثر من سبعين عامًا، دون أن يعود إليه مرة واحدة.

لثوانٍ اعتقد ذلك. ربما باب غرفته نصف المفتوح الذي يطلُّ على رواقٍ مضاء بأباجورة تراثية هو الذي نقل وعيه إلى غياهب عميقة. كان ذلك يشبه كثيرًا غرفة نومه مع إخوته في دار المنشية.

لثوانٍ أخرى، لم يعرف بالضبط أين هو. بيروت، أم الكويت، أم جدة. محطات مرَّ بها في درب تغريبته الطويل.

ثم تذكر أنه على بُعد آلاف الأميال من كل ذلك. في أقصى جنوب الكرة الأرضية، في مكان لم يكن يعرف بوجوده أصلًا يوم كان في دار المنشية.

توضأ وخرج للصلاة ومشيَ وهو يتذكر دار المنشية. ثم قال في نفسه: «*المزار بعيد والأرض قفرا*». فتذكر جارتهم أم مرعي وهي تردد هذا المثل في حديثها مع أمه. لا يذكر سبب استخدامها للمثل. لكنه تذكر أم مرعي. فكر مع نفسه: أين هي الآن؟ ثم استنكر ذلك. هل خرفت يا حاج موسى؟ أين ستكون؟ ماتت حتمًا. هو يدق باب الثمانين بعصاه. وهي كانت أكبر من والدته. لو أنها على قيد الحياة لكانت أكبر معمِّرة على وجه الأرض. ربما تكون هناك عجوز يابانية أكبر منها. لكن أم مرعي ستكون أكبر معمِّرة فلسطينية. أم مرعي ماتت حتمًا. لم يعرف

عنها أي شيء منذ أن غادروا يافا جميعًا في تلك الليلة. جاء خاله بشاحنته البدفورد[1] وطلب منهم أن يخرجوا معه. كان يبلغ الثامنة من العمر ولا يزال يشعر بالخجل من أنه فرح مما يدور لأن المدارس أغلقت أبوابها. لم يخبر أحدًا بذلك. لا بفرحته ولا بخجله من تلك الفرحة. لكنه يستعيد ذلك كلَّه بين الحين والآخر كذنبٍ لم يستغفر عنه كما يجب. تذكر الشاحنة التي احتشد فيها كلُّ الأقارب. تذكر جارةً لهم جاءت تحمل طفلها وتركب معهم دون أن تنطق بكلمة واحدة. دون أن تسأل إلى أين. ماذا كان اسمها؟ لا يذكر. ليس متأكدًا أصلًا إن كانت جارةً لهم. لا يذكر أي شيء عنها غير تلك النظرة على وجهها. نظرة الاستسلام لكل ما حدث وسيحدث. لعلَّها النظرة التي على وجهه الآن. لماذا يتذكر ذلك كله الآن؟ منذ سنوات وهو يستعيد بذاكرته ما حدث قبل سبعة عقود أفضل بكثير مما يذكر ما حدث في السنة الماضية. أو الشهر الماضي. أو الأسبوع الماضي. لم يعُد يدري إن كان ذلك قد حدث منذ أن جاء إلى نيوزيلندا، أو منذ أن ترك الكويت، أو منذ أن ماتت زوجته، وكل ذلك حدث في سنة واحدة.

ماذا قاده إلى كل هذا. نعم. دار المنشية وأم مرعي. رحمها لله -غالبًا- الرحمة تجوز على الحي والميت بكل الأحوال. لم يسمع أحد عنها أو عن أي فرد من عائلتها. أي شيء منذ ذلك اليوم. تذكر أن أمه -بعد أن تحركت الشاحنة- طلبت من خاله أن يتوقف ثم هبطت منها وركضت إلى البيت لأنها نسيت شيئًا. لم تقُل ما هو. تندَّر خاله على عقل النسوان، عادت أمه مسرعة وفي يدها ظرف كبير، وقفت للحظات

---

(1) شاحنة **البدفورد**: هي شاحنة بريطانية الصنع، كانت تُنتَج من قِبل شركة **Bedford** التابعة لشركة **جنرال موتورز**، وانتشرت بكثرة في الشرق الأوسط منذ الأربعينيات، واستُخدمت للنقل المدني والعسكري.

أمام باب أم مرعي وطرقته بشدة. لم يُفتح. صاحت مرتين: يا أم مرعي. استعجلها خالي بزمور فركضت بسرعة وصعدت إلى الشاحنة. التفت لها خالي وقال لها: كل هذا من أجل حجة البيت والأرض؟ البيت بيتكم والأرض أرضكم وكل الجيران شهود. ما أهمية هذه الأوراق؟ لم تردَّ عليه واحتضنت الظرف الأسمر كما لو كان طفلًا رضيعًا تحمله بيديها. ونظرت في اتجاه بيت أم مرعي كما لو أنها تنتظر أن يُفتح الباب. قال الخال شيئًا عن «كلها كم يوم، شهر بالكثير، ويخلص كل شيء ونعود». كرر ذلك عدة مرات خلال الساعات اللاحقة. وسيظل هذا الأمل ينغص عليهم حياتهم كلها. لو عرفوا أنهم لن يعودوا، لربما ودَّعوا البيت، حكوا معه، جالوا فيه بأبصارهم وأشبعوا عيونهم منه. لكنهم غادروه مخدَّرين بأمل العودة.

كان الهدف هو الذهاب إلى القدس حيث يقيم بعض الأقارب، لكن قبل أن تصل الشاحنة إلى اللد أوقفتهم عصابة تابعة لليهود وأجبرتهم على ترك الشاحنة وكل ما يحملونه وضربوهم وبصقوا عليهم وهددوا باغتصاب كل الإناث في الشاحنة. اضطروا إلى العودة إلى يافا ومنها إلى البحر في مراكب مكتظة، كان الوضع قد تدهور في يافا خلال ساعات فقط، وفي أثناء ذلك ضاع ابن الخال الذي يبلغ من العمر خمس سنوات.

من البحر إلى بيروت، ثم إلى الخيمة. مخيَّم «عين الحلوة». ثم تفرَّق الجميع بعد ذلك. حاول أن يتذكر اسم ابن خاله الذي ضاع في ميناء يافا. لم يستطِع. أزعجه ذلك. ما الذي أوصله إلى هذا؟ أم مرعي. رحمها الله. ثم تذكر أن ابنها الأصغر كان صديقه. حاول أيضًا أن يتذكر اسمه. أو حتى ملامح وجهه. لم يستطِع. فزع. لقد بدأ يفقد ذكرياته وذاكرته. ما الذي سيبقى منه لو حدث ذلك.

انتبه فجأة لصوت ابنه غسان وهو يتحدث معه. كان يقود السيارة بمحاذاته وأنزل النافذة: أبي. لماذا خرجت وحدك؟ قلت إني سأتوضأ وآتي معك بدلًا من أن تسير كل هذا الطريق.

لا يذكر أي شيء من هذا. هل يحاول ابنه أن يوهمه أنه أصبح خرفًا؟ أم أنه قد خرف بالفعل! تظاهر بأنه يتذكر وقال: قلت أتمشى قليلًا بينما تأتي.

ركب إلى جانب ابنه وهو يحاول إخفاء ارتباكه.

قال غسان: يا حاج الطريق بعيد عليك، لا تخرج بمفردك. خاصة في الفجر.

هزَّ الحاج موسى رأسه وقال: الأرض قفرا والمزار بعيد.

نظر غسان كما لو كان يسأله إن كان بخير: لا مشكلة، ما دامت السيارة موجودة.

هزَّ الحاج رأسه ثم قال: اليوم أريد أن أصلي الجمعة في مسجد النور.

ابتلع غسان ريقه كما لو كان يحسب شيئًا في ذهنه. غالبًا كان يحسب الطريق ذهابًا من عمله إلى المنزل ليأخذ الحاج ومن ثم يذهب إلى مسجد النور ومن ثم يرجعه إلى المنزل ومن ثم يعود إلى العمل.

أليس مسجد لينوود أقرب يا...

لم يكمل غسان عبارته، قاطعه الحاج بطريقة حاسمة: النور. أريد أن أرى ناسًا من البلاد.

ثم قال: وقبَّته تشبه قبَّة الصخرة.

هز غسان رأسه وقال: إن شاء الله.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الساعة 6:15 فجرًا

التفتت آلاء صبيح يمينًا ويسارًا قبل أن تنفخ دخان سيجارتها إلى السماء.

لم يكن هناك أحد في الحديقة سواها، والظلام لم يغادر بعد، لن يراها أحد، حتى لو حاول، وكل من في البيت لا يزال نائمًا، لكنها لا تزال تشعر بأنها تفعل جريمة عندما تدخن. ليست جريمة في حق صحتها، لا علاقة لصحتها ولأضرار التدخين على رئتها أو أوعيتها الدموية بالأمر. بل جريمة أقرب إلى أن تكون جريمة شرف. عيب أن تدخن الفتاة، حتى لو لم تعُد فتاة وجاوزت الخمسين. كلام أمها عن السيدة التي تدخن وكيف أنها تبدو مستهترة أصبح جزءًا من بديهياتها. مجموعة من التعليمات والتحذيرات أخذتها كحقنة في العضل ثلاث مرات في اليوم لعشر سنوات على الأقل. كان ذلك يشمل أشياء كثيرة مثل ارتداء البنطلون في الشارع، أو الالتزام بأن تكون التنورة تحت الركبة بشبرٍ على الأقل عند الجلوس، الكعب يجب ألا يكون ارتفاعه أكثر من ثلاثة سنتيمترات، الشعر يجب أن يكون ملمومًا ولا يُترك على الكتف مثل الأرتيستات، وعدم مضغ العلكة خارج البيت، وأحيانًا داخله، حسب المزاج. تجاوزت مع الوقت بعض هذه التعليمات، مثل البنطلون، حتى أمها أصبحت تعترف لاحقًا أنه أستر (ضمن مجموعة شروط)، أيضًا أصبحت ترتدي قميصًا بكمٍّ قصير جدًّا وهو أمر ما كانت تفكر فيه في بغداد لا قبل زواجها ولا بعده، لكنها بقيت تحرص ألّا تراها أمها -رحمها الله- وهي ترتديه مهما كانت الظروف. ممنوع التصوير

لأن الصور ستتسرب بسهولة. حتى بعدما تدهور وعي أمها وذاكرتها -رحمها الله- لم تكن تجرؤ على ذلك. أما السجائر فقد تسللت إليها بالتدريج، شاركتها همومها ووحدتها ومشكلاتها وأصبحت سرَّها الأكثر كتمانًا وخطيئتها الأكبر، سيجارة واحدة أو اثنتان فقط لا أكثر، مع شاي الصباح، والكل لا يزالون في أسرَّتهم، وأمامها نهار طويل من الركض والكد. تدرك طبعًا أنهم يعرفون، أو تتوقع ذلك، لكنها لا تتوقع أن يلومها أحد على السجائر. ولو فعلوا لانفجرت فيهم جميعًا. مع ما مرَّت به، عليهم أنهم يوجِّهوا لها كتاب شكر لأنها لم تدمن الأدوية المهدئة.

في أول مرة طرح نزار فيها فكرة الهجرة خارج العراق، وكانت آلاء لا تزال بريئة وحاملًا ببراء، ذكر عدة دول، فكانت تجد عيبًا في كل دولة، كندا؟ باردة جدًّا. لن أتحمل ذلك، ولا أنت ستتحمل.

أمريكا؟ فاسدة ويكرهوننا بسبب صدَّام والأولاد سيضيعون. لم يكن براء قد جاء بعد لكنها قالت الأولاد. أستراليا؟ بعيدة جدًّا وسكانها أجدادهم كانوا مساجين أُطلق سراحهم فيها. لا بدَّ أن جيناتهم لا يزال فيها الإجرام.

تذكر تمامًا ماذا كان جوابها عندما ذكر نيوزيلندا لأول مرة. أخبره صديقه «علي سليم» إنها فتحت باب الهجرة وإن جمع النقاط المطلوبة أسهل من كندا وأستراليا.

نيوزيلندا؟

قالت له: يقولون إن هناك ثقبًا في الأوزون فوق نيوزيلندا.

آنذاك، لم تكن تفرِّق تمامًا بين نيوزيلندا وآيسلندا وأحيانًا إسكتلندا، ولو كانت تعرف أن نيوزيلندا أبعد حتى من أستراليا لقالت ذلك. ولم تعرف ما هو ثقب الأوزون أصلًا، لكنها شاهدت في الأخبار أن الرأسمالية العالمية قد تسببت بثقب في طبقة الأوزون.

ستقول أي سبب لإحباط الأمر. كانت لا تزال في هذه المرحلة مع نزار.

نظر إليها ببرود وسألها: ماذا سيفعل هذا الثقب؟

قالت له: يقولون إنه يسبِّب السرطان. سرطان في الجلد.

هزَّ رأسه: سرطان في الجلد؟ هل تتوقعين أن فرص النجاة من صدَّام أفضل من فرص النجاة من سرطان الجلد؟

التفتت آلاء بذعر ونظرت إلى الناس حولهم. نزار لا يكترث لشيء. يقول اسم صدَّام في الأماكن العامة دون أن يسميه بشيفرة معينة، مثل (ذاك الرجَّال)، أو على الأقل يخفض صوته. لو اقتنعت بأمر الهجرة، فلن يكون ذلك بسبب الحصار الاقتصادي والمستقبل الأفضل خارج العراق، بل بسبب لسان نزار الذي سيقوده إلى الأمن حتمًا ذات يوم، لو بقيا في العراق.

كانا يجلسان في مطعم الساعة الذي يُقال إن ابن صدَّام يمتلكه. في كل مرة يطرح فيها نزار مقترح الخروج من العراق كان يأخذها إلى مطعم ما، رشوة من أجل القبول المبدئي بالفكرة. رشوة مكلفة. الوجبة التي يتناولانها تعادل ثلث راتب نزار، وأكثر من نصف راتبها هي. لكنها لم تكن تقاوم بيتزا الساعة. تقريبًا كانت تتوحَّم عليها.

قال لها، ولكن بصوت أقل ارتفاعًا هذه المرة: تأكدي أن الثقب الذي أدخلنا فيه صدَّام أخطر بكثير من ثقب الأوزون. ثم أطلق ضحكته التي كانت تجعل الكل يضحكون لا من ما يضحك عليه، بل من ضحكته. صوته خشن كما لو أن حنجرته مشعرة. إلا في الضحك. تنطلق الضحكة كما لو كانت لرجلٍ يحاول أن يقلِّد ضحكة نبيلة عبيد.

تفتقد تلك الضحكة كثيرًا. لا تعرف كيف تغيَّر كل شيء. كيف تمكنت هي من التأقلم والازدهار في نيوزلندا، بينما انزوى نزار بالتدريج حتى اختفى تمامًا كما لو أن ثقب الأوزون قد التهمه.

بغض النظر.

لم تكن جادة عندما تحدثت عن أي سبب تجاه أيٍّ من البلدان التي كان نزار يفكر في الهجرة إليها. لا برد كندا ولا فساد أمريكا ولا بُعد أستراليا وبالتأكيد لا ثقب الأوزون فوق نيوزيلندا.

كانت تريد حججًا لكي تبقى في العراق. في تلك الفترة كانت تحتاج إلى أسباب وحجج لإقناع نزار. الحصار قاسٍ والوضع الاقتصادي صعب، ولكن لا بد أن ذلك سيزول يومًا. السبب الحقيقي كان ببساطة هو أنها لم ترغب في أن تترك أهلها. كانت علاقاتهم قوية ومتشابكة إلى درجة تشعرها بالرعب لمجرد التفكير بتركهم. ثلاث شقيقات وشقيقان. وأم وأب موجودان في كل التفاصيل. أب مهيب مثل النسر المرسوم على الرتبة فوق كتفيه وحنون مثل سقف دافىء في ليلة شتاء باردة، وأم ترعى وتدقق وتنتقد وتدافع وتفعل كل شيء في آنٍ واحد. رفضت حتى فكرة السفر للعمل في ماليزيا أو اليمن أو ليبيا. أهلي لن يقبلوا بذلك. أبي يقول: «عندما خطبت لم تقل لنا إنك ستأخذها وتسافر بها. بنات الناس لسْنَ لعبة». لكنه خطبها قبل مصيبة غزو الكويت. كيف كان سيعرف أن العراق سيدخل في حرب مع ثلاثين دولة دفعة واحدة، وأن حصارًا اقتصاديًّا سيُفرض على العراق بقرار أممي وأن الراتب سيعادل سعر طبقة بيض. ولو. سنبقى. حالنا حال العالم.

لكن الكثيرين من العالم كانوا يسافرون بالفعل. شقيقتها أسماء سافرت بعد عامين إلى ماليزيا مع زوجها. وأسيل سافرت إلى ليبيا في نفس الفترة قبل أن تستقرَّ في عمان. حتى شقيقها أسعد صمد إلى

منتصف التسعينيات ثم استطاع الحصول على عمل في الإمارات عن طريق شقيق زوجته. شقيقها أحمد ذهب إلى عمان وقد حزم أمره مباشرة دون محطات في الوسط: العراق انتهى، الهجرة إلى كندا هي الحل.

استسلم أهلها لكل ذلك بتفهُّم.عاتبها نزار. لكنها لم تهتم. أهلها كانوا مجرد حجة. لم تكن تريد أن تغادر العراق. لم تكن تريد أن تغادر ما تعوَّدته برغم أنه كان يتدهور باستمرار. كانت تريد أن يكبر أولادها في بلدهم. براء. ثم يزن. ثم مروة.

بقيت من أجلهم، من أجل أن يكون لديهم جدٌّ وجدَّة بينما يكبرون، أو من أجلها هي، من أجل ما تعوَّدته وكانت تشعر بالأمان في ظلِّه. يسمون الآن الأمر (منطقة الراحة). لكن أيامها لم تكن تلك التسمية قد اختُرعت بعد.

ثم جاء وقت آخر -بعد سنوات فقط- قررت آلاء أنه لا مفرَّ من ترك العراق. من أجل الأولاد.

البقاء في العراق كان من أجل الأولاد.

والخروج من العراق كان من أجل الأولاد أيضًا.

في السنوات الأولى في نيوزيلندا، كانت تقول: إن ثقب الأوزون قد يكون أحنَّ عليهم من العراق.

هذا اليوم، قد تراجع ذلك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

يوم صعب، قالت لنفسها، قررت أن تصلي الفجر قبل أن تخرج.

ليست ملتزمة كثيرًا بالصلاة للأسف. تصلي وتقطع.

لكن هذا اليوم الصعب، ما كان لها أن تواجهه دون صلاة.

ولم تكن لديها أدنى فكرة عن صعوبته الحقيقية.

الساعة 6:29 صباحًا

نظر إلى المرآة وهو يبرز عضلات صدره ومنكبيه. أخذ أكثر من وضع ليتمكن من رؤية كل عضلاته.

سنوات التدريب الجاد في النادي الرياضي آتت أكلها. وكذلك فعلت الهورمونات التي حقنها بانتظام لكي تزيد من بروز عضلاته.

كل الذين تنمروا عليه في طفولته وأطلقوا عليه لقب (فرس النهر) لأنه كان بدينًا، كلُّهم، لا أحد منهم يمتلك مثل هذا الجسم الآن. دخل إلى حساباتهم وتأكد من ذلك. فقط لو أنهم يرون فرس النهر كيف أصبح الآن. تخيل مع نفسه كلمات الإعجاب. الإعجاب والفخر أيضًا. سيقولون لأصدقائهم وصديقاتهم. كان معي في غرافتون[1]. كان صديقي المقرَّب. يكذبون، لكن لا بأس. سيقولون أيضًا ذلك لأبنائهم وأحفادهم. هل تعرفون أن البطل الذي درستم عنه في مادة التاريخ كان صديقي المقرَّب في المدرسة؟

تخيل الـ (واو) ونظرات الإعجاب في عيون الأحفاد. البطل الذي أنقذ الحضارة البيضاء من الضياع والاندثار؟

نعم، هو بالضبط. كان صديقي المقرَّب. سيقولون كاذبين.

تخيل الأطفال وهم يسألون: كيف كان؟ أخبرنا يا جدي.

---

(1) غرافتون: مدينة إقليمية صغيرة تقع في ولاية نيو ساوث ويلز الأسترالية، على نهر كلارنس.

سيكون الرد: كان واضحًا أنه سيكون شيئًا مهمًّا منذ البداية. كان الكل يتوقع ذلك. وكان متواضعًا جدًّا أيضًا. وكان رياضيًّا أيضًا، جسمه مثالي. كان نموذجًا وقدوةً في كل شيء.

ابتسم في سره وهو يتخيل كل ذلك. بعد ساعات فقط سيبدأ الأمر بالحدوث. سيُسقِط قطعة الدومينو التي تغيِّر كل شيء. قطعة دومينو واحدة. ربما لن يرى ما سيحدث بعدها. لكنه كان واثقًا بما سيحدث.

كان قد راجع تاريخ هذا اليوم. الخامس عشر من مارس آذار. في السنة القادمة سيُضاف حدث مهم إلى قائمة الأحداث التي حصلت في التاريخ. وسيكون اسمه هناك. خلال سنوات قد لا تتجاوز العشرة أو العشرين في أبعد الأحوال سيُعاد تقييم ما سيفعله اليوم بحيث يكون يومًا فاصلًا في تاريخ الحضارة الغربية. في البداية سيقول إعلام الشركات الرأسمالية الذي يسيطر على السوق عن فعلته إنها (إرهابية) أو (إجرامية)، لكن مع الوقت، حتى هذا الإعلام سيتغير، الرأسمالية نفسها ستتغير، سيُنظر إليه أنه بطل قومي من كل البيض في كل القارات، وسيُنظر إلى هذا اليوم على أنه عيد قومي.

أعاد في ذهنه ما حدث في مثل هذا اليوم. Ides of March. اغتيال يوليوس قيصر الحدث الذي قاد إلى انهيار جمهورية روما وقيام الإمبراطورية الرومانية. ما سيفعله اليوم سيكون قريبًا من هذا. سيطلق النار على القيصر الذي خان أمَّته.

سيطلق رصاصة على دورة النفاق المسماة بـ (الصوابية السياسية) التي تجعل الساسة الموظفين عند الشركات الرأسمالية يجاملون المهاجرين لأن هذا يزيد من أرباح الشركات بأيدٍ عاملة رخيصة وبالمزيد من المستهلكين الثابتين لمنتجاتها. بعد هذه الرصاصة كل شيء سيتغير. سيكتشف البيض المخدوعون أنهم ضحية لغزوٍ واحتلال

يأخذ منهم أرضهم تحت ستار القوانين التي وضعها بيض خونة أضاعوا قيمهم.

نظرة أخيرة في المرآة. من سيقوم بدوره في الفيلم يا تُرى. لا يثق بهوليوود كلها. لم تكن سوى ذراع من أذرع الاستبدال الكبير[1] الذي حدث للبيض وجلب محلَّهم كل الأعراق الأخرى. لكنها تتبع أرباحها في النهاية. وعندما تتيقن أن المزاج العام قد تغيَّر، فإنها ستصبح ذراعًا للاستبدال المعاكس. الاستبدال المعاكس؟ يبدو عنوانًا جيدًا للفيلم. أم يختار Ides of March الفصل الأخير؟ ربما هذا أفضل. لا يريد أيًّا من نجوم الصف الأول الحاليين في دوره. كلهم حثالة بلا مبادئ. لكن آنذاك سيكون هناك نجوم مختلفين.

فكر في أن يلعب فورتنايت قليلًا[2]، يقتل بعض الغزاة ثم يرقص حول جثثهم كي يخفف توتره كما يفعل دومًا. لكنه خشيَ أن يتأخر عن موعده مع التاريخ. غدًا يصدرون نسخة من فورتنايت عليها اسمه وصورته. غدًا سيتسابق اليافعون من البيض على تقمص شخصيته في اللعبة.

---

(1) **الاستبدال الكبير**: هو مصطلح يشير إلى **نظرية مؤامرة يمينية متطرفة** تزعم أن هناك عملية متعمَّدة لإحلال سكان مهاجرين، خصوصًا المسلمين، محلَّ السكان الأوروبيين الأصليين ديموغرافيًّا وثقافيًّا، عبر الهجرة والولادات والسياسات الليبرالية.

صاغ المصطلح **المفكر الفرنسي رونو كامو** (Renaud Camus) في مطلع الألفية، لكنه تحوَّل لاحقًا إلى **شعار تحريضي** استُخدم لتبرير الكراهية والعنف، رغم أنه **مرفوض أكاديميًّا** ولا يستند إلى أدلة علمية.

(2) **Fortnite**: لعبة فيديو إلكترونية جماعية أطلقتها شركة Epic Games، تقوم فكرتها الأشهر على نمط **الباتل رويال** حيث يتنافس 100 لاعب للبقاء حتى النهاية، وتمتاز بالجمع بين القتال، والبناء، وطابع كرتوني سريع الإيقاع.

عليه أن يخرج في الثامنة على أبعد تقدير. سيمارس الجري الصباحي الآن ثم يعود ليأخذ دشًا سريعًا وبعدها يبدأ رحلته التي ستغير التاريخ. هناك 360 كيلومترًا عليه أن يقطعها من دنيدن[1] إلى كرايستشيرش[2]. لن يغامر بأي شيء يمكن أن يؤخره. لن يتجاوز السرعة المحددة. عليه أن يضع في الحسبان أسوأ الاحتمالات. المهم أن يكون في كرايستشيرش قبل الواحدة ظهرًا.

(1) **Dunedin:** دنيدن مدينة تقع في جنوب نيوزيلندا، ذات جذور إسكتلندية واضحة في عمرانها وثقافتها، وتُعدُّ مركزًا تعليميًّا وثقافيًّا مهمًّا، وتشتهر بطابعها التاريخي والجامعي.

(2) **كرايستشيرش Christchurch:** أكبر مدن الجزيرة الجنوبية، تُعرف بـ «مدينة الحدائق»، وتُمثل مركزًا حضريًّا رئيسيًّا في منطقة كانتربري.

الساعة 6:37 صباحًا

يوم غليندا تومبسون في العادة يبدأ قبل ذلك.

لكنها اليوم استيقظت متأخرة حسب مقاييسها. تجاوزت السادسة والنصف. في العادة تستيقظ قبل الفجر بساعة على الأقل. لا تعتمد على ساعة أو منبه. تقول: إن قلبها يوقظها. تقول لها ابنتها غلوريا دومًا إنها ساعتها البيولوجية وإن لا علاقة لقلبها بالأمر. لكن غليندا تردُّ دومًا: نفس الشيء.

منذ أن أسلمت، قبل ثماني سنوات تقريبًا، وقلبها يوقظها قبل الفجر. إذا كانت ساعتها البيولوجية هي التي توقظها كما تقول غلوريا، فلا بدَّ أن هذه الساعة تعمل بأمر قلبها. قلبها هو الذي تغيَّر قبل ثمان سنوات. وليس أي شيء بيولوجي آخر.

لم تكن هذه أول مرة يتغير قلبها على أي حال. تعوَّد من حولها ذلك. عاشت حياتها بناءً على ما يقوله لها قلبها إن هذا هو الطريق. 65 عامًا مرَّت عليها في هذا الكوكب، عاشت شبابها في السبعينيات حياة هيبية كما يقول كتاب الهيبيين بالضبط. سنصنع الحب لا الحرب. الكثير من الخرز والورود في اليد والشعر. الكثير من الأسفار حول العالم والكثير من الجنس والحشيش وعقاقير الـ LSD وبوب ديلان وجانس جوبلن. كانت ثائرة حقيقية على كل المؤسسات التي تحوِّل الإنسان إلى مجرد شيء أو سلعة. لكن هذا كله سرعان ما تبخر. قبل أن تصل الثلاثين، كانت الموجة الهيبية قد انحسرت ووُضعت في المتحف، صار هناك

حديثٌ عن تأثيرهم الثقافي والاجتماعي باعتبارهم ظاهرة وانتهت. عادت غليندا إلى قواعدها في أوكلاند وعندما ولدت غلوريا من زواج لم يستمر طويلًا، كان فصل الهيبية قد انتهى تمامًا من حياة غليندا، وصار عليها أن تنضم إلى المؤسسات التي ثارت عليها، لكي توفر حياة أفضل لغلوريا. الجامعة لتحصل على شهادة، والمدرسة لتعمل فيها. لكن بحثها عما تجهله لم ينتهِ أو يتوقف بتركها للهيبية. مرَّت باليسار، ثم بالنسوية (أسمت ابنتها على اسم غلوريا ستينام[1] بسبب ذلك) ثم أعادت اكتشاف المسيحية. انتمت إلى كل الكنائس المتاحة بمذاهبها المختلفة. كاثوليكية وبروتستانتية. ثم غادرتها إلى البهائية في انعطافة لم تتوقعها هي شخصيًّا، عندما حدث ذلك، كان باب الإسلام قد فُتح، لكنها لم تدخله من باب القراءة كما فعلت مع البهائية، بل دخلته بعد أن تعاملت مع عشرات اللاجئين المسلمين. جاؤوا مكسورين محطَّمين يبحثون عن حياة أفضل في موطنها. كان المتوقع أن يتأثروا أكثر مما يؤثروا. لكن غليندا رأت برغم الحطام قناعة ورضًى لم ترَهما من قبل. ثم بالتدريج وجدت نفسها هناك.

عندما قالت لغلوريا إنها أعلنت دخولها الإسلام في مسجد لينوود، لم يبدُ على غلوريا الاستغراب. سألتها فقط إن كانت متأكدة -هذه المرة- فأجابتها غليندا بنعم، قلبي يقول: إن هذا هو.

كانت غلوريا قد سألتها سابقًا السؤال ذاته، لكن الجواب كان مختلفًا. كان جوابًا مطوَّلًا لم تحدد فيه غليندا موقفها بنعم أو بلا.

---

(1) **غلوريا ستاينم:** هي **كاتبة وصحفية وناشطة نسوية أمريكية**، تُعدُّ من أبرز رموز **الحركة النسوية الحديثة** في الولايات المتحدة منذ ستينيات القرن العشرين. اشتهرت بدفاعها عن **حقوق المرأة والمساواة بين الجنسين**، وبمشاركتها في تأسيس مجلة *Ms*. التي لعبت دورًا مهمًّا في نشر الخطاب النسوي المعاصر.

أما الآن، فقد كان جوابها مختصرًا وبسيطًا. نعم قلبي يقول هذا هو.

لم تقلق غلوريا من تحوُّل أمها إلى الإسلام. لم تكن قد تعرَّفت حقًّا أي مسلمة من قرب. رأتهن طبعًا في المدينة، دون أن يحدث أي احتكاك يجعلها تعرف حقيقة الأمر. اعتقدت أولًا أن الأمر سيكون غطاءً على الشعر وعدم أكل الخنزير أو تناول الكحول، ولم تكن لديها مشكلة في أيٍّ من ذلك. أمها هي أمها.

أختها كاثي كانت أقل ترحيبًا بإعلان غليندا. واعتبرت الأمر (جنون) غليندا الجديد وتساءلت كم سيستمر هذه المرة. لكن بعد أشهر لاحظت أن غليندا أصبحت أكثر هدوءًا واستقرارًا، وأن حياتها أصبحت منظمة أكثر، وأنها لم تعزل نفسها عن مناسبات الأسرة، بل أضافت مناسبات جديدة.

للمرة الأولى منذ فترة طويلة لم تستيقظ غليندا قبل الفجر. أزعجها ذلك. شعرت أولًا بأن يومها قد تعكر وانتهى الأمر. لقد استيقظت على الجانب الخطأ من السرير. بعد صلاة الفجر خفَّ انزعاجها وقررت أن تنظر إلى الأمر بإيجابية. لقد مدَّها الله ساعة إضافية من الراحة وعليها أن تكون ممتنة لهذا. هذا الجزء من البحث عن إيجابيات كل شيء لم يكن متوفرًا في حياتها قبل أن تسلم. تعلَّمته بالتدريج ولمست فيه راحة كبيرة.

كان أمامها يومًا حافلًا على كل حال. لقاء في إدارة شؤون اللاجئين لمراجعة الملف المالي للمنظمة الخيرية التي تشارك في مجلس إدارتها، وتريد أن تستغل ذلك لتعرف إمكانية إجراء كفالة لشقيق محمد إيهاب. السوري الذي كفلته رسميًّا لكنها أصبحت تعتبره ابنها. ثم وبعد ذلك عليها أن تكون في مسجد النور حوالي الواحدة والنصف ظهرًا لصلاة الجمعة ثم بعد ذلك ستحضر درسًا للقرآن في مسجد لينوود، وبعد

الدرس سيكون هناك تجمع للترحيب بعائلة لاجئة جديدة. حاولت أن تعتذر لأنها يجب أن تحضر عرضًا مسرحيًّا لحفيدتها. لكنهم أصرُّوا. الأخت غليندا يجب أن تكون حاضرة، هكذا أخبرتها واحدة من منظمات التجمع. فقررت أن تحاول أن تكون في مكانين في وقتٍ واحد كما تفعل منذ سنوات. الأخت غليندا هنا. الأخت غليندا هناك. هكذا أصبح اسمها. الأخت غليندا. كانوا ينادونها بهذا أيضًا قبل أن تسلِم. يعرفونها من خلال العمل التطوعي. سألت بعد أن أعلنت إسلامها، هل عليَّ أن أختار اسمًا جديدًا؟ كانت تفكر في فاطمة أو عائشة. لكنهم قالوا لها: أنتِ الأخت غليندا. وستبقين كذلك. من يومها واسمها لا يُلفظ إلا مع كلمة الأخت. غمرها هذا دومًا بشعور حميمي جميل. كانت قريبة من أختها كاثي، لكن هذا كان شيئًا مختلفًا.

وعليها أن تردَّ على نادية.

هذا وحده كان عبئًا كبيرًا عليها.

تتمنى أحيانًا لو لم تهجر القهوة والشاي وكل أنواع الكافيين. يوم كهذا يحتاج إلى برميل من القهوة.

لكن عليها أن تقتنع بأن الزنجبيل والليمون قادران على تعويض الكافيين.

الساعة 7:12 صباحًا

قلب محمد إيهاب لم يوقظه.

ولا منبه الهاتف. ولا الساعات المنضدية الثلاث التي وضعها في أماكن بعيدة عن متناول يده إذا مدَّها من السرير الضيق في غرفته الصغيرة في حي أرانوي Aranui في كرايستشيرش.

لم ينَم جيدًا. منذ سنواتٍ لم يعرف معنى النوم الجيد. لكن ليلة أمس كان الأمر أسوأ من المعتاد. أرسلت شقيقته فيديو لمناسبة عائلية قديمة. وفي اللحظة التي التفت فيها والده إلى الكاميرا سرَت في جسد محمد إيهاب رعدة الخوف مما كان يراه من أبيه. اعتقد للحظات أنه سيخرج من الشاشة ليضربه أو يشتمه بواحدة من شتائمه التي بقيت راسخة في ذاكرته.

أيامها كان يكفي أن يسمع صوت تنحنح والده ليهبَّ فزعًا من سريره.

أما أمه فكان يكفي أن تهمس له: حمودة، فيتقلَّب في سريره طالبًا منها عشر دقائق أخرى. تتمدد إلى أخرى وأخرى حتى تصبح نصف ساعة. عندها كانت تصيح به: حمدي. فيستيقظ وقد عرف أنه استنفذ فرص التمديد.

حمل معه كل هذه الأسماء. محمد إيهاب كاسمٍ رسمي في الهوية جريًا على العادة السورية بوضع اسم النبي عليه الصلاة والسلام مع اسم آخر. في البيت كان اسمه حمودة، إلا أوقات التوبيخ والشجار، حمودة

اسم تدليل لا ينفع معه هذا. لا يعرف من قرر أن يكون حمدي اسمًا يُستخدم في حالات اللوم، لكن والده كان يسميه إيهاب عندما يضربه.

في المدرسة كان اسمه إيهاب فقط. كل من عرفه خارج البيت عرفوه هكذا. وهكذا كان يعرِّف نفسه في منصات التواصل.

كان لديه اسم مستعار أيضًا. اسم مستعار عبَّر عن أجمل وأنبل ما فيه في عالم لم يعُد يريد أن يتذكر منه أي شيء. كان اسمه أيهم. الاسم الحركي في الثورة. قبل أن يخرب كل شيء.

الآن اختصر كل ذلك إلى حرفين فقط. مو. Mo. كل تلك الأسماء اختُزلت إلى حرفين فقط. مو. كما يحدث مع كل من يمتلك اسم محمد في جواز سفره وأوراقه الرسمية. لا يمكن أن تشرح لهم إن اسمك الأول في الحقيقة مُركَّب من اسمين وإنهم ينادونك في البيت بحمودة وفي المدرسة بإيهاب. لن يفهم أحد ذلك إلا إذا خرج من بيئة مماثلة. عدا ذلك فـ (مو) أسهل من كل ذلك الشرح.

أصبح مو إذن. ليكن.

بقيت الساعات المنضدية ترنُّ بمفردها دون أي فائدة مع محمد إيهاب. لكن جاره الأفغاني الذي استيقظ بسبب مهرجان رنين الساعات المنبهة المتداخل يريد أن يعود إلى النوم، ضرب الحائط الفاصل بينهما بضرباتٍ توحي بحدوث زلزال.

قام محمد إيهاب من سريره وأوقف كل الساعات. اكتشف أنه تأخر أكثر من نصف ساعة على الموعد الذي يجب أن يكون فيه في المسلخ. قرر أن يكمل نومه. ذات حياة أخرى، لم يكن فيها اسمه مو، لم يكن هكذا أبدًا. قالت له المرشدة النفسية في برنامج التعافي من الصدمات: إن ذلك ربما يعود لمجموعة من الأسباب. عندما عدَّتها شعر بأنها مناسبة له جميعًا إلا واحدة. الاكتئاب. الهروب من الواقع. الفقدان. الشعور بالذنب.

سألها: لماذا يشعر بالذنب؟ ماذا فعل هو حتى يشعر بالذنب؟

قالت له: إن الذين نجوا يشعرون بالذنب تجاه الذين لم يحالفهم الحظ بالنجاة.

هزه الوصف.

لم يعتبر أنه قد نجا حقًّا كي يكون له ترف الشعور بالذنب تجاه الذين لم ينجوا. على العكس، قد يحسدهم أنهم تجنبوا ما مرَّ به.

قالت له المرشدة النفسية: إن شعوره بالذنب قد يختفي خلف هذا الشعور بالتحديد. بأن يقنع نفسه بأنه لم ينجُ كي يتخلص من شعوره بالذنب لأنه نجا.

ربما كان يشعر بكل هذا وأكثر. النوم مهرب جيد من كل ذلك، إلا عندما تطارده أشباح الماضي حتى في نومه. عندها يكون الواقع أفضل.

فتح هاتفه كعادة لم يتخلَّ عنها رغم تخلِّيه عن كل حساباته على مواقع التواصل الاجتماعي. لا رسالة من أمجد. لم يردَّ على رسائله بعد.

على شاشة الهاتف ظهر تاريخ اليوم. 2019/3/15.

بدا له التاريخ مألوفًا جدًّا. لكنه لم يعرف لماذا. هل هو ميلاد أحد قريب؟ استذكر ميلاد شقيقاته وشقيقه. لا. أقرب ميلاد منهم شقيقته شيماء. 3/27. ماذا إذن؟ لماذا يشعر بأن تاريخ هذا اليوم مهم؟ هل يكون تاريخ ميلاد أحد أصدقائه الذين يحاول أن ينساهم. عمر أقرب أصدقائه الذي استُشهد تحت التعذيب؟ لا، ميلاده في حزيران. يحاول أن ينسى كل شيء. لكنه لا ينسى أي شيء. ميلاد عمر. 18/ 6/ 1995. اعتُقل في 20/9/ 2012. تأكدوا من وفاته قبل نهاية السنة. نوبة قلبية كما سُجل في شهادة وفاته. لكن بعد سنتين وجدوا صورته في أول وجبة تسربت من صور قيصر. مات تحت التعذيب. من إذن؟ ميلاد من

يمكن أن يكون في الخامس عشر من آذار؟ جمال؟ لا. في نيسان. زياد؟ في تموز.

من إذن؟! أو ماذا حدث بحيث يكون هذا التاريخ مألوفًا جدًّا دون أن يذكر السبب.

أزعجه هذا الذي لا يتذكره مثل خشبة صغيرة عالقة في سقف فمه.

لكنه سرعان ما هرب مجددًا إلى النوم.

الساعة 7:30 صباحًا

بعض الكائنات نهارية بطبيعتها. تستيقظ قافزة من نومها في أقصى حالات النشاط دون أي مرحلة وسطى من التثاؤب والتمطي والندب بمواجهة ضرورة الاستيقاظ.

عارف فرحان، لم يكن من هذه الكائنات في أي مرحلة من مراحل حياته. على العكس من زوجته عابدة التي كانت تبدأ يومها قبل الفجر حرفيًّا، تنجز تقريبًا كل مهام البيت، ثم عندما تحين صلاة الفجر توقظ عارف، يصلي ثم يعود إلى فراشه ليواصل نومه، بينما تواصل هي مهام البيت مع ضجيج متواصل لا ينقطع، أحيانًا صوت غسيل الصحون والسكاكين، أو صوت الغسالة، أو صوتها وهي تقرأ القرآن، أو وهي تغني، أو وهي تتحدث بالهاتف مع شقيقاتها في سيلهت أو دكا في بنغلاديش، فرق التوقيت مناسب لهن جدًّا، الأزواج في القارتين نائمون، في بنغلاديش لأنها الساعة الحادية عشر مساءً، وفي نيوزيلندا لأن عارف يحب النوم أكثر مما هو معتاد من البنغاليين الذين يقول المثل عن صباحهم إنه (لا يصمت أبدًا)، هذا ينطبق على عابدة تمامًا. لكن ليس عليه، وليس بنادمٍ على ذلك.

كان عارف أحيانًا يشكُّ في أن صوت عابدة والضجة المصاحبة لوجودها يرتفع عمدًا في الوقت الذي تقرر فيه أن عليه أن يستيقظ. تلك هي طريقتها في تسيير الأمور، ترتب كل شيء كما لو كان حدث بمحض رغبته وإرادته، بينما تكون قد وضعت كل الخيوط بحيث تجعله يفعل

ما تريد. وما تريده يكون الأفضل دائمًا. لا يشكُّ في ذلك. لكنها تفضِّل أن تحفظ له مكانته ووجهه. كانت هكذا منذ بداية زواجهما، لكن ذلك أصبح أكثر وضوحًا بعد أن استفحل فيه المرض وأعاق حركته بالتدريج إلى أن أصبح مُقعدًا على كرسي متحرك، كرسي آلي بسيط أولًا، ثم كهربائي متطور قليلًا، وأخيرًا الكرسي الحالي المزوَّد بروبوت.

غيَّر المرض حياته ومهنته وكل عاداته. غريبة هي الحياة. مرض لم يكن قد سمع باسمه من قبل. التصلُّب المتعدد. Multiple Sclerosis. تعايش مع أعراضه الأولى لسنوات دون أن يشعر بأنه مريض. أعراض صغيرة أولًا ولا تستدعي الكثير من القلق. تنميل في الأطراف أولًا. صعوبة في الحركة. ضعف في الساقين. ربما بعض الراحة والمقويَّات ستفي بالأمر. ثم وجد نفسه فجأة مشلولًا على كرسي متحرك. ليس فجأة تمامًا. لكن الأعراض في البداية لم توحِ له بهذه النهاية.

يوم تزوجا كان مرضه في البداية، ولا ينذر بشرٍّ قريب. لكن عابدة بقيت بجانبه. شلله لم يبعدها ولم يكسرها. لم تكن قد أنجبت بعد. كان يمكنها أن تهجره. لم تفعل، كل ما مرَّت به في حياتها قبل ذلك كان تدريبًا على ما بعد الشلل الذي أصابه. فقدت أمها عند الولادة، عاشت في ظروف صعبة مع زوجة أب أساءت معاملتها، تعلَّمت بقدر ما سمحت به الظروف، ثم مرض والدها وأقعده المرض وهي في الثانية عشرة فعملت في هذه السن لكي تتمكن هي وشقيقتها الكبيرة من إعالة من تبقى من العائلة. كل ذلك أكسبها صلابة، ومرونة، وصبرًا وحكمة. وكانت ستحتاج إلى كل ذلك عندما أصبح عليها أن تواجه العالم وحيدة في الغربة بعد أن أصاب المرض اللعين غريب الاسم زوجها وصار قعيدًا مدى الحياة. كان عليها أن تصبح عمودًا فقريًّا بديلًا له. وقد كانت.

استيقظ اليوم على صوت ضحكها مع وحيدتهما سامية التي وُلدت بعد سنوات من المرض. لم يكن الاستيقاظ بصوت الضحك غريبًا على عارف. وكان يحب ذلك ويتفاءل به.

لكنه لم يتفاءل اليوم.

الساعة 8:14 صباحًا

ألقى نظرة أخيرة على المنزل الذي بقيَ فيه لأشهر وخطط فيه لأهم عملية تصحيح في تاريخ حضارة الرجل الأبيض.

نظر إلى الباب وهو يغلقه ويضع المفتاح في الصندوق الخاص به. كيف يمكنه أن يقترح على المالك أن يبقي كل شيء كما هو؟ لأن هذا البيت سيصبح متحفًا ذات يوم.

ركب السيارة السوبارو outback الفضية موديل 2005 التي استأجرها قبل ثلاثة أيام، بعد أن فحص الإطارات الأربعة، وتأكد من أنه لم ينسَ شيئًا من معدات مهمته. إشارة الوقود كانت قريبة من الامتلاء، ولكنه كان قد قرر أن يتوقف في الطريق لملء الخزان مجددًا. قد يحتاج إلى ذلك بعد إنهاء المهمة. تأكد من أن النظام الصوتي في السيارة قد رُبط بهاتفه قبل أن يتحرك. قائمة أغانيه المفضلة مهمة ولن يجازف بأن يقود أربع ساعات دون أن تحفزه أغانيه وتمدَّ روحه بالمزيد من القوة.

قبل أن يتحرك بالسيارة، ألقى نظرة أخيرة على الشارع الذي سكنه الأشهر الثمانية الأخيرة، قال في نفسه: شارع Somerville - Anderson Bay سيدخل التاريخ. أصحاب العقارات هنا سيشكرونه عندما ترتفع قيمة كل قدم مربع في هذه المنطقة.

عندما بدأت الأغنية الأولى، الموجودة بأكثر من نسخة وتوزيع، أخذ يكرر معها الكلمات بالصربية، لا يعرف الكثير من الصربية، لكنه يحفظ

كلمات الأغنية ظهرًا عن قلب. يفضِّلها بالتوزيع الأوركسترالي الفخم، ويرى أن تطورها من نسختها الأولى البسيطة إلى النسخة الإلكترونية وصولًا إلى النسخة الأوركسترالية يمثل تطور حركة (الاستبدال المعاكس) التي يعتبر نفسه من أبطالها. كان يتمنى لو أنه استطاع أن يضيف بعض المقاطع إلى الأغنية. كلمات أصبحت ملتصقة بالأغنية دون أن تكون من ضمن كلماتها. الإله صربي؟ لا. سيجعلها كما هي في الحقيقة. الإله أبيض. وسيضيف الشيفرة الأهم. كلمة السر التي أصبحت عنوانًا للأغنية دون أن تُذكر داخلها. أزل الكباب[1]. من الخارج تبدو مجرد كلمة مسالمة عن طعام شائع. لكنها كلمة سر تعني أن تزيل أولئك الذين جاؤوا بالكباب إلى الحضارة البيضاء من الوجود.

الذئاب قادمون، الذئاب قادمون...

لا يخافون شيئًا في العالم...

عليكم أن تخافوا، خونة[2] وأتراك...

في عالمٍ آخر موازٍ، سيكون هناك لقاءات تلفزيونية تحتفي به وتسأله عن خلاصة تجربته وكيف وصل إلى الحكمة التي وصل إليها، لكن في هذا العالم المهزوم البائس، كل القنوات عميلة مشتراة من قِبل الرأسمالية التي لا تريد للحقيقة أن تظهر. لذا لن يُجرَى معه أي لقاء.

---

(1) مصطلح **"Remove Kebab"**: هو **شعار عنصري تحريضي** ظهر في أوساط اليمين المتطرف، ويُقصد به **الدعوة إلى طرد أو قتل المسلمين**، حيث تُستعمل كلمة *kebab* (كباب) كـ **إهانة عنصرية** ترمز إلى المسلمين أو شعوب الشرق الأوسط.

(2) في الأصل كلمة تحقيرية تشير إلى الكروات الكاثوليك الذين عدَّهم الصرب خونة، لاحقًا المعنى العام أصبح يؤخذ إلى كل البيض الذين يتعاونون/يسهلون قدوم الغزاة/المسلمين وبينما كانت كلمة أتراك تشير في الأصل إلى البوسنيين، أصبحت تشير إلى المسلمين عمومًا.

لكن هذا لن يسكته. لقد احتاط للأمر وكتب بنفسه الأسئلة التي يجب أن يسألها، وقبل أن تُنجَز المهمة سيرسلها ضمن الملف الذي سيوزعه على كل الصحف والمواقع.

بينما الأغنية الثانية في القائمة تبدأ، Gas Gas Gas، بدأ يتخيل اللقاء الذي لن تسمح به شبكات الإعلام العالمية الرئيسية. ذكَّر نفسه أن عليه أن يبدو متواضعًا قريبًا من الناس، كل الأبطال المؤثرين في التاريخ يوصَفون بذلك. لذا عليه أن يبدو متواضعًا في هذا اللقاء.

من أنت؟

تخيل وجه مقدم اللقاء الذي يحاوره وهو ينظر إليه نظرة انبهار وتقديس بينما يسأله هذا السؤال.

أنا مجرد رجل أبيض عادي، عمري 28 عامًا. وُلدت في أستراليا لعائلة من الطبقة العاملة ذات دخل محدود. والداي من أصول إسكتلندية وأيرلندية وإنجليزية. عشتُ طفولة عادية، دون أي مشكلات كبيرة.

سيركز على أنه عادي. عادي يشبه الفرد الأبيض العادي بحيث لا يجب أن يفسر أي شيء مما فعله على أنه رد فعل متأخر على أحداث مرَّ بها في طفولته. لن يذكر شيئًا عن طلاق والديه وصدمته بعد ذلك. هذا أمر يحدث كثيرًا. لن يذكر شيئًا عن تعرُّضه وتعرُّض أمه وشقيقته للعنف من قِبل صديق الأم الذي عاشوا معه بعد انفصالها، والذي كان بالصدفة من أصول غير بيضاء، أبورجيني، من سكان أستراليا الأصليين قبل أن تحتلها بريطانيا ويستوطنها البيض. لن يذكر شيئًا عن العزلة دون أصدقاء في المدرسة، أو عن التنمر بعد أن أصبح بدينًا، أو أن أصدقاءه الوحيدين كانوا أشخاصًا يلعب معهم على الإنترنت دون أن يلتقيهم شخصيًّا. هذا حدث للكثيرين في جيله.

لن يذكر شيئًا عن انتحار والده وشكوك الشرطة في أنه قد تعاون مع والده لتنفيذ الانتحار.

لم يكن لديَّ اهتمام كبير بالتعليم خلال دراستي، بالكاد حصلت على درجة النجاح. لم ألتحق بالجامعة لأنني لم أكن مهتمًا بأي شيء يُقدَّم في الجامعات للدراسة. عملتُ لفترة قصيرة قبل أن أجني بعض المال من الاستثمار في Bitconnect، ثم استخدمت المال للسفر. مؤخرًا أعمل بدوام جزئي في إزالة الكباب.

أنا مجرد رجل أبيض عادي، من عائلة عادية. لكنني قررت أن أتخذ موقفًا من أجل بني جنسي.

يجب أن يُظهر عدم اهتمامه بالتعليم المؤسسي وليس عدم قدرته على النجاح فيه. ملايين البيض الذين لم يكملوا تعليمهم سيجدون في هذا التفسير ما يرضيهم. ليسوا مهتمين بما يُقدَّم في المؤسسات الأكاديمية، وهي أصلًا جزء من غزو الاستبدال الكبير الذي حدث ويحدث. الإشارة إلى العملات الرقمية ستداعب خيال الملايين من الجيل الجديد الذين يريدون أرباحًا سريعة دون جهد. سيدَّعي أنه ربح ما يكفي لتمويل أسفاره حول العالم إلى أكثر من ثلاثين دولة، ولن يذكر بحرف واحد أنه ورث من والده (العادي جدًّا) ما يقارب نصف مليون دولار أسترالي، وهو التعويض الذي حصل عليه والده من المصنع الذي عمل فيه كنتيجة لإصابته بسرطان الرئة جراء تعرضه لمادة الأسبستوس. هذه الحقيقة ستشوِّش على نجاحه في تحقيق أرباح من العملات الرقمية، وعلى انتفاعه من المؤسسات الرأسمالية التي يدَّعي أنه يحاربها. هذا يضرُّ بمصداقيته ومصداقية قضيته، لذا من الأفضل أن يترك ذلك جانبًا.

لماذا فعلت ما فعلت؟

يتخيل ابتسامة على وجه مُحاوره وهو يطرح السؤال، ابتسامة فيها مزيج من الخجل والإعجاب، الخجل من وجوده أمام مَن أخذ المبادرة وغيَّر وجه التاريخ والإعجاب بتواضعه الذي بان بوضوح في جوابه عن السؤال الأول.

السبب الأهم هو أن نُظهر للغزاة أن أراضينا لن تكون لهم أبدًا، وأن أوطاننا ملكٌ لنا، وأنه ما دام هناك رجل أبيض واحد على قيد الحياة، فلن يغزوا أراضينا أبدًا ولن يحلُّوا محلَّ شعبنا.

أيضًا من أجل الانتقام، ببساطة. الانتقام من الغزاة لمئات الآلاف من القتلى الذين تسبب بهم الغزاة الأجانب في الأراضي الأوروبية عبر التاريخ.

والانتقام لاستعباد ملايين الأوروبيين الذين انتُزعوا من أراضيهم على يد تجار الرقيق الإسلاميين.

والانتقام لآلاف الأرواح الأوروبية التي أُزهقت في هجمات إرهابية في جميع أنحاء الأراضي الأوروبية.

للحدِّ بشكل مباشر من معدلات الهجرة إلى الأراضي الأوروبية عن طريق ترهيب الغزاة وإبعادهم جسديًا.

لتحريض خونة شعبي من السياسيين على التحرك، ودفعهم إلى الإفراط والتمادي في الخيانة، وتجربة رد الفعل العنيف الذي لا مفرَّ منه نتيجة لذلك.

وأيضًا من جل الانتقام لإيبا أكرلوند.

سيسكت قليلًا عند ذكر إيبا أكرلوند.

يتخيل المحاور وهو يسأله:

إيبا أكرلوند؟ لماذا إيبا أكرلوند تحديدًا؟

عليه أن يلعب لعبة الإعلام كما يجب أن تكون. عليه أن يؤثر في الجمهور. صوته يجب أن يظهر تأثره. ليس واثقًا إن كان الأمر يجب أن يصل إلى الدموع. كانت دموعه نادرة بكل الأحوال. ويمكن للدموع أن تظهره بمظهر أضعف مما يليق بالبطل الذي سيغيِّر العالم. التأثر في الصوت يجب أن يكون في البداية فقط، بعدها عليه أن يعود إلى قوَّته وثباته. هذا سيكون أكثر تأثيرًا. التأثير الأكبر على الجمهور سيكون في ذكر قصة إيبا وكيف قرر أن ينتقم لها. لا وقت للدموع والعواطف. المهم هو رد الفعل. الانتقام. هذا ما يجب أن يحدث في نفوس المتابعين.

بذل جهدًا في البحث عن قصة إيبا لكي يستخدمها في حكايته على نحو مؤثر. هذه لعبة الإعلام أيضًا. التأثير على العاطفة لأجل التأثير على العقل. لا يمكن لأحد ألا يتأثر بمقتل طفلة مصابة بإعاقة على يد إرهابي. تسببت إعاقتها في تقليل فرص نجاتها. سيروي الحادثة كما لو كان شاهدًا مباشرًا عليها، برغم أنه لم يزُر بلد الحادثة في حياته، فإنه يتحدث نيابة عن العرق الأبيض برمته. مئات الملايين من البيض في كل العالم عليهم أن يشعروا بإيبا الآن وهو يفسر ما فعله، لكي يدركوا أن عليهم أن يفعلوا شيئًا مماثلًا.

إيبا أكرلوند أحدثت فارقًا لي على المستوى الشخصي. عالمي بعد إيبا لم يعُد يشبه عالمي قبل إيبا.

إيبا الطفلة البريئة الميتة.

كانت إيبا ذات الأحد عشر عامًا تسير للقاء والدتها بعد المدرسة، عندما قُتلت على يد إرهابي إسلامي، يقود سيارة مسروقة عبر ممشى التسوق المزدحم الذي سارت فيه. كانت إيبا صماء جزئيًّا، غير قادرة على سماع المهاجم قادمًا. لذلك لقت حتفها فورًا.

موت إيبا على أيدي الغزاة بهذه الطريقة كان إهانة شخصية لي، وعجزي عن إيقاف هذا الموت، كسر السخرية المُرهقة بداخلي، كالمطرقة.

لم أعُد أستطيع تجاهل مثل هذه الهجمات. كانت هجمات على شعبي، وهجمات على ثقافتي، وهجمات على إيماني، وهجمات على روحي. لن أتجاهلها.

تخيل صورة إيبا المبتسمة وهي تغطي الشاشة خلفه.

تحتها يظهر تاريخ ولادتها ووفاتها.

2017/04/7 - 2005/06/7

على المحاور هنا أن يبدي تأثره الكبير. يمسح دمعته، حتى لو لم تكن هناك دمعة.

أما هو، فعليه أن ينظر إلى الصورة بثبات. لقد أدَّى واجبه تجاه إيبا.

عاد من اللقاء المتخيَّل إلى لافتة تشير إلى اقترابه من محطة الوقود في أومارو Oamaru، تذكر أن عليه أن يملأ الخزان حسب خطته التي وضع كل الاحتمالات فيها. انعطف بسيارته إلى الشمال ودخل إلى محطة الوقود، لاحظ أن عامل المحطة يحمل ملامح الغزاة، ضغط دواسة الوقود وأكمل طريقه فورًا إلى خارج المحطة. هناك عدة محطات أخرى على الطريق، لا بدَّ أن يجد واحدة لم يحتلَّها الغزاة.

وإلا لن يتزوَّد بالوقود. ولن يتناول طعام الإفطار أيضًا.

لقاء لم يحدث مع رحمات آكيلوف – منفِّذ الهجوم على ستوكهولم الذي راحت إيبا أكرلوند ضحيته

من أنت؟

أنا مجرد شخص عادي. وُلدت في مدينة سمرقند، جمهورية أوزبكستان عندما كانت ضمن الاتحاد السوفيتي. أبلغ من العمر 39 عامًا. متزوج ولديَّ أربعة أطفال. لم أكمل تعليمي. كنت أعمل كعامل للبناء في أوزبكستان، لكن الأمور كانت أسوأ فأسوأ في دولة كان أكثر من ربع سكانها تحت خط الفقر. ذهبت إلى روسيا عام 2009 حيث حصلت على عملٍ في مصنع للأسمنت خارج موسكو عن طريق أخي الذي كان يعمل هناك أيضًا. بعد أربع سنوات خسرت عملي، قررت أن أذهب إلى أوروبا، حصلت على تأشيرة إلى بولندا ومنها تسللت عبر البحر إلى السويد. قدمت طلبًا للُّجوء هناك.

لماذا طلبت اللجوء في السويد؟

كنت مطلوبًا للنظام في أوزبكستان، أي ممارسة دينية هناك يمكن أن تجعلك مطلوبًا للنظام هناك. هذا أمر معروف.

وضع حقوق الإنسان في أوزبكستان معروف وموثَّق. لكنك تعلم جيدًا أن لا شيء يوثِّق أو يؤكد أنك كنت مطلوبًا فعليًّا للنظام في بلدك.

لن يوثِّق النظام في بلدي شيئًا يدينه. العشرات، بل المئات يُعتقلون دون أن تكون هناك أي وثيقة. مجرد السؤال عن هذا يعني أنك تجهل كيف تجري الأمور في بلدي.

الأهم من هذا أن لا شيء أصلًا يؤكد أنك كنت متدينًا في أي وقت من الأوقات، بل على العكس، كل من عرفك يقول إنك كنت بعيدًا عن ذلك، سواء في نشأتك أو شبابك أو حتى في الفترة التي كنت فيها خارج بلدك، حيث لا يمكن للسلطات أن تتعقبك...

لا يمكن إظهار التديُّن ما دامت احتمالية العودة إلى أوزبكستان قائمة، هذا ما لا يمكنكم فهمه. لا يمكنك فهم كم هي قمعية أنظمتنا.

لكن حياتك اليومية كانت مليئة بممنوعات في دينك، لنفترض أنك لم تكن تظهر التديُّن لما تقوله من أسباب، لكنك أظهرت العكس من ذلك.

أنتم لا تفهمون... لأني كنت عاصيًا ومرتكبًا للآثام كان عليَّ أن أفعل شيئًا كبيرًا للتكفير عن ذنبي.

ممكن أن تكون مقتنعًا بهذا، رغم أن دينك لا يطلب منك سوى التوبة... على فرض أن هذا الذي فعلته بقتل ناس أبرياء لم يكن أكبر من كل آثامك السابقة، ولكن ربما هناك تفسير أبسط، لقد زعمت كل ذلك للحصول على اللجوء في السويد ليس إلَّا، لم تكن متدينًا بأي فترة ولم تكن مُلاحقًا من سلطات بلدك لأجل ذلك.

هذا ما قيل لي عندما رُفض طلب اللجوء. تريدون أن توقفوا اللجوء فحسب. لقد اكتفيتم. تغيرت المعادلة عندما جاء السوريون إلى السويد. لو جئت بنفس الأسباب قبل مجيء السوريين لحصلت على اللجوء.

هذا لن يغيِّر من أن أسبابك لم تكن مقنعة منذ البداية... على أي حال لماذا نفذت هجوم ستوكهولم؟

للانتقام لإخوتي المسلمين في العراق وسوريا والبوسنة والهرسك وفلسطين والصومال.

هل تعتقد أن هناك من يمكنه أن يصدق ما تقول؟ ما علاقة السويد بما حدث؟ على العكس، السويد استقبلت مئات الآلاف من اللاجئين من هذه الدول التي ذكرتها، كما أنها لم تكن من الدول التي ساهمت في غزو العراق أو أي تدخل عسكري في الدول التي ذكرتها.

لم أقصد السويد تحديدًا، قصدت الكفار بشكل عام، الله أمرنا بقتالهم في كل مكان.

هذا تفسيرك، لكن تعتقد أنه لم يكن قد أمركم قبل أن تقدم طلبًا للُّجوء عند الكفار؟

كنت جاهلًا. أحسنت الظن بالكفار.

هل تواصلت مع داعش قبل الهجوم؟

نعم، تواصلت مع مؤيد لداعش عبر الفيسبوك قبل الهجوم بيوم وأخبرته ذلك وعبَّر عن تأييده ودعمه لي.

التواصل مع مؤيد أو متعاطف مع داعش لا يمكن أن يُعتبر تواصلًا مع داعش نفسها.

سمعت وقرأت عنهم على قدر ما تسمح لي لغتي. لديهم مدونات بأكثر من لغة من ضمنها لغتي.

لكنك لم تنتمِ إلى داعش حسب قواعد داعش نفسها، أي عبر البيعة، صحيح؟

لا لم يحدث هذا. كان التواصل مع معلِّقين على صفحات داعش فقط.

في تلك الفترة، وخلال طيلة مدة بقائك في السويد، كانت داعش قد أسست دولتها في أجزاء من العراق وسوريا، انضم إليها آلاف من مؤيديهم في أوروبا، كان يمكنك أن تتسلل إلى العراق عبر تركيا كما فعلت عندما دخلت السويد. لكنك لم تفعل.

لم يكونوا بحاجة إليَّ. لقد انضم إليهم آلاف كما قلت. يمكنني أن أكون نافعًا في السويد أكثر.

لم يتحقق أي شيء سوى الضرر بالمسلمين... الغريب أن تأييدك لداعش لم يظهر إلا بعد أن رُفض طلبك للُّجوء في السويد وطُلب منك رسميًّا مغادرة البلاد، هل يمكن أن توضح لنا سبب توقيت هذا التأييد؟

لا يوجد سبب غير أن رفض الطلب جعلني أرى نفاق الغرب وزيفه أكثر من قبل.

الغرب لا يكون منافقًا وكافرًا ومزيفًا إلا عندما يُرفض طلب اللجوء، هل أنت مقتنع بما تقوله؟

لا تعليق.

لو أنك تلقيت رسالة بتاريخ السادس من إبريل 2017 أي قبل تنفيذ هجومك، وجاء في الرسالة أن طلبك للُّجوء قد أعيد النظر فيه، هل كنت ستنفذ خطتك بكل الأحوال؟

لم يحدث ذلك. لذا لا يمكنني أن أردَّ على هذا السؤال.

فكِّر فقط في احتمالية ذلك. لو قُبل طلبك، هل كنت ستنفذ عمليتك؟

لا تعليق.

كنت تعرف بعدم وجود عقوبة إعدام في السويد، صحيح؟

نعم هذا معروف.

وكنت تعرف أيضًا أن السجون في السويد مريحة؟

ما علاقة هذا بالأمر؟

ربما فضَّلت أن تعيش في سجن سويدي على سجن في بلدك أو حتى على الحياة في بلدك، قررت أن تفعل ما يجعلك تدخل السجن

في السويد بحجة تأييد داعش وقتل الكفار وتجد من يتعاطف معك ويعتبرك بطلًا بين جمهور مشجعي داعش؟

لا تعليق.

بعد عامين من هجومك في ستوكهولم، قام شخص أسترالي بتنفيذ هجوم على مسجدَين في نيوزيلندا، وقتل أكثر من خمسين شخصًا. هل سمعت بهذا؟

نعم، سمعت.

هل سمعت أيضًا أن منفِّذ الهجوم قال إنه ينتقم لأجل إيبا أكرلوند، الطفلة السويدية التي كانت من ضحاياك؟

هذا ما يقوله هو. يمكنني أن أقول أيضًا إنني كنت أنتقم لآلاف الأطفال المسلمين الذين قتلهم الغربيون، قبل سنتين فقط من تنفيذي لعمليتي هناك سويدي أبيض هاجم مدرسة فيها أطفال مهاجرون، وقتل طفلًا صوماليًّا وكاد أن يقتل طفلًا سوريًّا، لون البشرة كان هو المعيار الذي اختاره للقتل.

المهاجم الأسترالي يقول أيضًا إنه ينتقم لكل البيض الذين قُتلوا واستُعبدوا على يد المسلمين في القرون الأخيرة...

لم يحدث ذلك في أستراليا لكنه حدث في بلدي. منذ منتصف القرن التاسع عشر جاء البيض واغتصبوا بلدي وحكموه وأعادوا تشكيله كما يشاؤون، ثم ارتكبوا على عهد ستالين مجازر راح ضحيتها مئات الآلاف، مسحوا ثقافتي وديني كي أصبح سوفيتيًّا، وبعد ذلك يقول أسترالي إنه ينتقم للبيض؟

المهاجم الأسترالي يقول إن المهاجرين المسلمين يمثلون غزوًا جديدًا يسلب البيض أرضهم وثقافتهم وطريقة حياتهم، ما فعلته ويفعله أمثالك يُعزز هذه الفكرة ويعطيها أدلة وبراهين.

لست جاهلًا لهذه الدرجة. آخر من يمكنه التحدث عن الغزو وسلب الأرض ومحو ثقافات السكان الأصليين هم الأستراليون.

أنت تقضي حكمًا بالسجن مدى الحياة وكذلك منفِّذ الهجوم الأسترالي، لكن هذه ليست نقطة التشابه الوحيدة. أنتما متشابهان جدًّا، على الرغم مما يبدو في البداية من اختلافكما.

ربما، لكني على صواب، وهو على خطأ.

هذا ما سيقوله هو أيضًا. كلاكما يجد شرعية وجوده من الآخر. هو يستخدم أفعالك كمبرر لما يفعله، وأنت تستخدم ما يفعله لتبرير ما تفعل.

الساعة 8:34 صباحًا

أعدَّت غليندا إفطارها الذي من المستبعد أن يعتبره أي أحد شهيًّا، إلا إذا كان أرنبًا، هكذا كانت تقول لنفسها. منذ سنوات تلتزم بحمية غذائية أفقدتها تقريبًا كل لذة للطعام، حتى تأقلمت بالتدريج وأصبحت تستطعم بعض ما تأكل. لا بدَّ أن الأرانب تتلذذ بما تأكل أيضًا. منذ فترة قررت أن يكون يوم الجمعة يومًا تحتفل فيه عبر تناول ما تتجنبه في بقية أيام الأسبوع. بيضة مقلية بالزيت مع فطر وأعشاب متنوعة تجمعها بنفسها من حديقتها. ولكن ليس أي زيت. بل الزيت الذي أهداه لها مسنٌّ فلسطيني انتقل إلى نيوزيلندا للعيش مع ابنه منذ أشهر. تعرف زوجة الابن جيدًا، دلال. قال لها هذا المسن إنه زيت من زيتونة عمرها أكثر من 200 سنة في قريته في فلسطين. وضعت سورة الكهف بصوت العفاسي على اليوتيوب بينما هي تقرأ الآيات من مصحفها المُترجَم. تنقلت بين أكثر من ترجمة عبر السنوات إلى أن استقرت على (Sahih International). ربما كان هذا تحيُّزًا منها، حتى دون أن تكون واعية، لكن كنسويَّة سابقة، منذ اللحظة التي عرفت فيها أن الترجمة وضعتها ثلاث نسوة أمريكيات اعتنقن الإسلام، لم يكن يمكنها إلا أن تعتبر ترجمتهن هي الترجمة الأقرب إلى عقلها وقلبها. بالنسبة لغليندا، النساء أكثر قدرة على التعبير من الرجال، ولهذا ربما يُتهمن بكثرة الكلام، لكن لا يمكن لثلاث مترجمات اتفقن على ترجمة القرآن إلا أن يكون عملهن متقنًا. خاصة أنهن اعتنقن الإسلام ولم يُلدن فيه. كانت تشعر برابطة تربطها بأولئك الذين اعتنقوا الإسلام مثلها، بعد أن

مرُّوا بمحطاتٍ كثيرة. اكتشفت مع الوقت أن لا أحد يشبه الآخر في هذا. كل اعتناقٍ للإسلام كان فريدًا مثل بصمة إصبع لا تتكرر. ما كان سببًا لاعتناق أحدهم للإسلام يمكن أن يكون منفرًا لآخر. والعكس صحيح. يبدو الأمر مثل أنهار كثيرة تأتي من أماكن مختلفة لتصبَّ كلها في بحرٍ واحد. لم يقلِّل اختلاف الأسباب من قوة الرابطة بالنسبة لغليندا. العمر أكسبها خبرةً لم تكن لديها يوم كانت شابة تحلم بعالم أفضل على أنقاض المؤسسات. أصبحت أكثر تقبلًا للضعف البشري ولميل الناس إلى قبول أنصاف الحلول. هل العمر هو الذي جعلها تكتسب ذلك؟ ليست متأكدة. ربما كان الإسلام هو الذي ساعدها على ذلك. أو ربما كان هذا ما ساعدها على دخول الإسلام أصلًا. الأمر معقَّد ومتشابك ولا يمكن تحديد ما الذي كان سببًا وما الذي كان نتيجة في حالات كهذه. كلما قرأت في sahih international تفكر في السيدات الثلاث اللواتي عملن على ترجمته، واحدة منهنَّ على الأقل كانت ملحدة قبل إسلامها، لا تعرف الكثير عن الأخريات، لكنها شعرت بأن السيدات الثلاث، وكلهن قريبات من عمرها، كنَّ يختصرنها بطريقة ما، أو يختصرن بعضًا منها. لقد عاشت ما يكفي لقبيلة نساء. ولكن من الجيد أن تشعر بأن هناك ثلاث نساء اجتمعن ليساعدنها في فهم هذا الكتاب الذي أصبحت تعتبر أنه كل ما كانت تبحث عنه في رحلتها. فكَّرت في أن تتواصل معهن. حصلت على بريد إلكتروني لإحداهن بالفعل. كتبت رسالة ولم ترسلها. بل لم تكملها. شعرت بأن الأمر قد يُهدد ما في مخيلتها عنهن. لذا تركت الأمر كما هو. ثلاث نسوة أمريكيات قادتهن أنهارهن المختلفة إلى البحر الذي جعلهن يستخدمن مهارات لغوية لا يملكها الرجل لترجمة الكتاب الذي أصبح سفينتها في هذا البحر. أي لقاء طبيعي مع أي واحدة منهن، مهما كان إيجابيًّا وموفقًا، لا يمكن أن يرقى لكمال الصورة في مخيلتها.

قررت أن تكتفي بالصورة عن الأخوات اللواتي يشبهنها في خيالها دون أن تحاول التواصل مع أيٍّ منهن.

في كل جمعة، بعد الإفطار وقبل أن تخرج لأداء ما عليها من مهام، كانت تقرأ سورة الكهف، وتتذكر في أقل من ثانية كل هذا عن أخواتها الثلاث.

في سنوات إسلامها الأولى كانت سورة الكهف مربكة. عدة قصص في سورة واحدة، بدت لها في البداية دون رابط واضح. بالتدريج، انتقل الأمر من الإرباك إلى الراحة والهدوء، الحياة نفسها مربكة عندما تخوض في تفاصيلها، لكن كلما نظرت إليها من بعيد، من زاوية الصورة الأكبر، تفهم أكثر، ويزول الارتباك بالتدريج، ويحلُّ محلَّها هدوء التقبل وطمأنينة الفهم. فتية هاربون في كهف. صديقان يتحاوران. نبي يتعلم من الحياة. وقائد عسكري يخوض حروبًا في أطراف العالم. وفي كل مرة، كانت البداية لا توحي أبدًا إلى أين ستؤول الأمور. حياتها هي أيضًا كانت كذلك، من رآها في العشرين وهي هيبية بشعر منسدل حتى منتصف الظهر، بعقد من الخرز والزهور، بسروال باهت من الجينز الممزَّق، حافية القدمين أو أحيانًا بصندل بسيط، لن يتوقع أبدًا أن يراها وقد وصلت إلى أن تكون الأخت غليندا التي تحضر دروس تفسير القرآن وهي ترتدي إسدال الصلاة الطويل.

منذ ثلاثة أسابيع يذكِّرها هذا المعنى بأغنية قديمة لجوني ميتشيل. تحاول أن تتذكر اسم الأغنية دون جدوى. تقرر أن تبحث عنها في اليوتيوب، ثم تعدل عن ذلك وتقرر أن ترسل صديقتها كارلي التي عاصرت تلك المرحلة الهيبية بكل عقود الخرز والحشيش وبأغاني بوب ديلان وجانيس جوبلان وجوان باييز وجوني ميتشيل. حياة كارلي أيضًا تغيرت، لكن ليس إلى الدرجة التي تغيرت فيها حياة غليندا. كل من بقيَ

على قيد الحياة من أصدقاء المرحلة الهيبية تغيرت حياته كما لو أن تلك المرحلة لم تكن، سورة الكهف تنطبق عليهم جميعًا بطريقة ما، لكن غليندا كانت الأبعد في رحلتها، ذهبت إلى أبعد مما ذهب الجميع.

أرسلت رسالة إلى كارلي: مرحبًا كارلي، كيف حال الجميع؟ أردت أن أسألك، كانت هناك أغنية لجوني ميتشيل عن تغيُّر رؤيتنا للحياة، تذكرين اسمها؟ أرجو أن تكون ذاكرتكِ أفضل مني.

لم تصل الرسالة. كارلي تنسى شحن هاتفها دومًا. على العكس من غليندا التي تعتبر ذلك خطيئة تستحق الاستغفار.

نظرت إلى الساعة.

اقتربت من التاسعة.

ستتصل بمحمد إيهاب. تتأكد من أنه استيقظ وذهب إلى عمله. لم يمضِ عليه أكثر من ثلاثة أشهر فيه وساعدته في إيجاده. تعرف صاحب العمل منذ أن أسلمت، وأوصته بمحمد إيهاب، خرج من كفالتها منذ سنتين، لكنها لا تزال تعتبر نفسها مسؤولة عنه. تمارس أمومتها معه كما لم تمارسها حتى مع غلوريا، تمارسها مع الجميع تقريبًا وتحاول إخفاء ذلك عن غلوريا لأنها سمعت منها عدة ملاحظات عن ذلك، لم تفعلي ذلك معي، لم تهتمي بي يومًا هكذا كما تفعلين مع لاجئيك. كانت غليندا تنكر ذلك علنًا، وتقرُّ بذلك مع نفسها، لكن دونما ندم، لقد كانت شخصًا آخر، لم تكن أمًّا مهملة على الإطلاق، لكنها أصبحت أكثر عطاءً وحنانًا مع الوقت، خصوصًا بعد عملها التطوعي مع اللاجئين.

ساهمت في إيجاد العمل لمحمد إيهاب، كانت قلقة عليه، عندما جاء إلى نيوزيلندا كان في السادسة عشر فقط، بدا مصدومًا من كل شيء، تصورت أنها صدمة حضارية، الانتقال من الشرق الأوسط إلى نيوزيلندا، لكن بالتدريج فهمت أن ذلك كان أقلَّ ما حدث له.

عندما بلغ الثامنة عشر، بل قبل ذلك، كان محمد إيهاب يحاول أن يعتمد على نفسه ويعمل بدوام جزئي هنا وهناك، لذلك ساعدته في أن يجد عملًا بدوام كامل للمرة الأولى في مسلخ للَّحم الحلال، كانت تعرف صاحب العمل حتى قبل أن يسلِم، رجل هندي سبق لها أن درَّست زوجته، تقبَّل صاحب العمل محمد إيهاب برغم أنه في العادة لا يوظف إلا هنودًا، لكنها أخبرته بأن وجود سوري في العمل قد يسهِّل العمل أمام زبائن عرب كان عددهم يزيد بكل الأحوال، واقتنع على أن يجرِّبه لشهر، ثم عندما تابعت الأمر معه أخبرها أنه مهذب وسريع التعلُّم لكنه كثيرًا ما يتأخر في القدوم للعمل. من يومها أخذت غليندا تقوم بالتأكد من استيقاظه من النوم عبر الاتصال به. توقعت أن تجد منه رفضًا أو تمردًا أو أن يعتبر ذلك تدخلًا في شؤونه الخاصة بعد أن لم تعُد مسؤولة قانونيًّا عنه، لكنه فاجأها بأن شكرها على ذلك، وقال لها إن أمه كانت ستفعل ذلك لو كانت على قيد الحياة، وقال لها إن صوتها يشبه صوت أمه قليلًا. بل إنها تشبه أمه بالشكل أيضًا.

لكن غليندا تعرف أنه كان يجاملها. كانت أمه أجمل منها بكثير.

عندما رأت غليندا صورة أمه في هاتف محمد إيهاب، في الأسبوع الأول لوصوله إلى كرايستشيرش، استغربت، كانت تتوقع امرأة بملامح شرق أوسطية، لم يكن محمد إيهاب بهذه الملامح أيضًا، لكن أمه فاقت ذلك بكثير، عينان ملوَّنتان بلونين مختلفين، واحدة خضراء والأخرى عسلية، مثل ديفيد بووي[1] الذي أُغرمت به في شبابها، جمال نادر

(1) **David Bowie:** هو موسيقي ومغنٍّ وكاتب أغانٍ بريطاني يُعدُّ من أكثر الفنانين تأثيرًا وتجديدًا في موسيقى القرن العشرين، عُرف بتبدُّل شخصياته الفنية وخلطه بين الموسيقى والتمثيل والموضة. تميَّز أيضًا بمظهره اللافت، ومنه **اختلاف لون عينيه الظاهري** (إحداهما تبدو أفتح من الأخرى)، وهو ناتج عن إصابة قديمة سببت اتساع حدقة إحدى العينين، ما منحه تلك السمة البصرية الشهيرة.

وجذاب وغريب، مثل ساحرة أسطورية تحمل نبوءة غامضة. أدركت غليندا لاحقًا أنها كانت نبوءة مأساوية، لكن هذا لم يكن واضحًا في الصورة في هاتف محمد إيهاب. لم تدرك ذلك إلا عندما عرفت تفاصيل القصة التي كانت تعرفها قبل ذلك بخطوط عريضة فقط. يوم قرأت ملفه المقدَّم للُّجوء. تعلُّقها الأمومي بمحمد إيهاب كان أفضل ما حدث لها في السنوات الأخيرة. برغم أن من يرى الأمور من الخارج قد يتوهَّم أنها هي، بكفالتها له وجلبه إلى نيوزيلندا، كانت أفضل ما حدث له.

اتصلت به. لم يتأخر في الرد. لكن كان واضحًا من صوته أنه لا يزال في سريره. كان يجب أن يكون في العمل قبل ساعة على الأقل. سألته إن كان في المسلخ، فردَّ بسرعة إنه في الطريق إلى هناك. كان صوته يقول إنه يكذب. لم يكن يجيد الكذب، وكانت تحب ذلك. القليل من البراءة في عالم فقد ذلك منذ قرون.

ثم سألته: اليوم هو الجمعة، في أي جامع ستصلي؟

كانت تعرف أنه تخلَّف عن ذلك لأسابيع، وكان ذلك يؤلمها بشكل شخصي. أرادت أن تشعره بذلك. لم تكن تقصد أن يذهب من أجلها. لكنها كانت تريد أن تنبهه فقط.

سكت قليلًا كما لو أنه يفكر.

ثم قال: النور، سأكون في النور، إن شاء الله.

صوته لم يكن يكذب هذه المرة.

قالت له: سأراك إذن بعد الصلاة، إن شاء الله. أعددت لك مربى البرقوق الأسود.

قبل أن تخرج من البيت أرسلت رسالة إلى عابدة.

السلام عليكم. جمعة مباركة. عابدة لا تنسي مرهم الظهر الذي أوصيتكِ عليه. أراكِ في الصلاة.

وصلت رسالة من نادية.

لم تفتحها.

الساعة 9:10 صباحًا

لم يستيقظ محمد إيهاب على هاتف غليندا.

كان قد استيقظ فجأة قبل ذلك بدقائق. تذكَّر فجأة ماذا حدث في 3/15. تذكَّر ذلك في نومه. لا يعرف كيف. فجأة استيقظ يشهق مذعورًا.

15/3/ 2011. الثلاثاء. المظاهرة الأولى.

الله. سوريا. حرية وبس.

في ذلك اليوم بدأت حياته بالتغيُّر. أوصلته إلى ذروة لم يتوقع وجودها. ثم قادته إلى أن انتهى وحيدًا في أقصى جنوب الكرة الأرضية.

كيف نسيَ تاريخ هذا اليوم؟

كان في الصف التاسع. في الخامسة عشر من عمره. طلبت منه أمه أن يأتي معها إلى بيت خالته. لا يزال يذكر قطط خالته وطعم (مقلي الفول). خالته تضع التلفاز على قناة الأورينت[1]. حديثٌ عن مظاهرة ضد النظام في دمشق. أمه ترتعب وتسأل أختها: هل يمكن لهم أن يكتشفوا أننا نشاهد الأورينت؟ تقول لها خالته إنهم منشغلون عن هذا الآن. لن يلاحقونا لأجل قناة.

---

(1) **أورينت نيوز**: هي قناة فضائية وموقع إخباري **سوري معارض**، تأسست عام 2009، واتخذت منذ بدايتها خطًّا ناقدًا للنظام السوري. بعد اندلاع الثورة السورية عام 2011 أصبحت من أبرز المنابر الإعلامية الداعمة للحراك الشعبي، وركَّزت على تغطية الاحتجاجات، وانتهاكات حقوق الإنسان، وأخبار اللاجئين والمعارضة السياسية، قبل أن تتوسع لاحقًا في المحتوى السياسي والتحليلي من خارج سوريا.

سمع الهتافات وشعر بشيء يغلي في عروقه. أمه خائفة وخالته متحمسة.

بعد يومين، يهمس له صديقه عمر: عندك للسر مطرح؟

لقد شارك في مظاهرة.

سرَت في جسده قشعريرة لا يزال يذكرها. شيء يشبه البلوغ الأول الذي كان قد ذاقه أول مرة قبل عامين. نظر إلى عمر. كان يكبره بسنة فقط. لكنه بدا له الآن كما لو أنه أكبر بعشر سنوات من الضوء والنضوج.

قال لعمر: خذني معك في المرة القادمة.

تردد عمر. نعم، لا. ثم استقرَّ على لا. لكن شقيق عمر جاء إلى البيت وقال له: هناك لعبة طابة بعد صلاة الجمعة في جامع الفاروق، تأتي؟ وفهم فورًا ما المقصود بلعبة الطابة. مظاهرة تنطلق بعد صلاة الجمعة من جامع الفاروق في المزة.

عندما حان الوقت الموعود، بعد صلاة الجمعة. انطلقت صيحة التكبير. إشارة بدء المظاهرة. حرية للأبد. غصبًا عنك يا أسد. شعر محمد إيهاب بفيض من المشاعر تعصف به. رهبة وخوف وهيبة وحرية وأشياء أخرى لا يزال يجهل أسماءها. هرب قبل وصول عناصر الأمن. دقائق فقط وعاد راكضًا يلهث إلى البيت. سلك طريقًا مختصرًا وشاهد عناصر الأمن قادمين. كانت دقائق فقط لكنها كانت كافية لسحبه إلى الثورة. لم تخطفه الثورة. بل سلَّم نفسه لها طوعًا. استسلم لوهجها كما يستسلم فراش الليل للنار.

عندما وصل البيت كان قد قرر ألا يقول شيئًا لأي أحد. سيقفون جميعًا ضده ويؤنِّبونه ولن يسمحوا له بتكرار الأمر. لكن وجهه الذي يحمل علامات دقائق الوهج المهيب فضحه. حاصرته شقيقتاه الأكبر

منه في المطبخ. أين كنت؟ لا تكذب! هل كنت في المظاهرة؟ لقد كنت في المظاهرة!

شيماء كانت غاضبة وخائفة وحانقة. هديل نظرت إليه بإعجاب كما لو كانت ترى شقيقها الصغير الذي كانت تدلله وقد شبَّ فجأة وصار رجلًا. عيناها كانتا تومضان مثل قلبَين أحمرَين يضيئان رسالة حب نصية.

تعقَّد الأمر مع معرفة أمه بعد دقائق. صمتت طويلًا ولم تقُل شيئًا عن الأمر أمام شقيقتيه. تحدثت معه لاحقًا كما تفعل دائمًا، بينه وبينها فقط، عندما ينزف جرحه، كانت تحتضنه في كلماتها بطريقة لا أحد يجيدها سواها. باحت لها بخوفها عليه، وبأن هذا الذي يفعله قد يودي به وبهم جميعًا. طلبت منه ألا يكرر الأمر. وعدها وعودًا غير قاطعة استقبلتها هي باستسلام لشيء جديد رأته في عينيه.

كان محمد إيهاب، حتى تلك الفترة، يكره سوريا. يكرهها. يكرهها كما يكره أباه. لا. ربما يكرهها أكثر. أو أقل قليلًا. لا يدري. امتزج الأمران بطريقة لم يفهمها هو. لكنه كان يكرههما معًا. سوريا وأباه. لم يرَ شيئًا من العالم غير سوريا. لكنه كان يدرك أن ثمة خطأ كبيرًا فيها. ثمة شيء قاتم وظالم وكئيب. سبق له أن رأى جيرانًا تأخذهم عناصر الأمن دون سبب واضح، وهمهمات غامضة تترحم عليهم كما لو أن الأمر محسوم، وسبق له أيضًا أن رأى والده يُهان مرتين من قِبل عناصر أمن، مرة بشكل مباشر، وأخرى بعد أن أهين، ووالده ظالم قاسٍ متجبر، ومن يهينه لا بدَّ أن يكون أشدَّ ظلمًا وقسوة منه.

مع لعبة الطابة تلك، وعاصفة المشاعر، والضوء الذي جذبه كما يجذب النار فراشات الليل، صار لديه أمل أن تكون سوريا مثل أمه التي يحب، لا مثل أبيه الذي يكره، أمه التي كانت تحاول أن تحميه من أبيه،

تحاول على الأقل، قبل أن تأخذ منه نصيبها، تضمد جراح إهاناته النازفة بكلماتها وحنانها.

شعر بتأنيب ضمير لأنه نسيَ تاريخ اليوم. كيف ينسى 3/15، كل سنة هناك حفلة من الاختلاف في موعد بداية الثورة، 15 أم 18، والمفترض أنه من مجموعة الـ 15. ورغم ذلك نسيَ.

اتصلت غليندا في وقت كان يحتاج إلى اتصالها. لم يعُد هناك حضن أمه. لكن كانت هناك على الأقل غليندا. لم يبُح لها بكل شيء عن ذلك. لكنه قال لها ما يكفي. وعدها بأن يذهب إلى صلاة الجمعة. كان يدرك تمامًا أن انقطاعه عن الصلاة يقلقها. وكان يخجله هو أيضًا، خاصة أمامها، هي التي غيرت دينها وأسلمت، وهو الذي لم يعُد يكترث لشيء.

نظر في الهاتف بعد مكالمة غليندا. لا رسالة من أمجد أيضًا. ماذا حدث له؟

قام من سريره وهو يشعر بأن وخز ضميره لأنه نسيَ ذكرى الثورة قد وصل إلى أن يشعر به في وجهه.

عندما نظر في المرآة أدرك أن ما يشعر به هناك ليس وخز الضمير.

بل ذكرى تهبُّ على وجهه بين الحين والآخر، ذكرى لما حدث بعد سنة ونصف تقريبًا من تاريخ أول مظاهرة.

الساعة 9:32 صباحًا

كانت آلاء تتوقع أن هذا اليوم سيكون صعبًا ومزدحمًا لأسباب مختلفة ومتفاوتة في الصعوبة. لكنها كانت تجهل تمامًا أن ما سيحدث سيفوق كل توقعاتها.

كل يوم جمعة كان مزدحمًا بالنسبة لآلاء، طلبات الطعام بكل أنواعه تزداد، العرب في نيوزيلندا يقيمون الولائم حتى لو كان يوم الجمعة يوم عمل. لا تعرف كيف يتدبرون ذلك، لكنه أمر مربح لها. تمكنت خلال السنوات الماضية من أن توسِّع عملها بحيث وصلت إلى مدن خارج كرايستشيرش، مثل رانجيورا وبيغاسوس، وتمكنت أيضًا من اقتحام كل الجاليات العربية في كرايستشيرش. حاولت مع الجاليتين الهندية والأفغانية ولكنهما كانتا حصينتَين تمامًا أمامها. لن تمدَّ عربية يدها في طعامهم. أحسن.

بدأ الأمر كما كان في بغداد في سنوات الحصار[1]. كانت تجيد صُنع الكيك، بل لم تكن تجيد سواه أول زواجها، ولأن قوانين الحصار فرضت إغلاق محلات الحلويات، فقد شكلت ربات البيوت الماهرات في صنع الحلويات سوقًا سوداء سريَّة تعتمد بشكل أساسي على المعارف

(1) فُرض على العراق **حصار اقتصادي دولي شامل** بعد غزوه الكويت عام 1990 بقرار من مجلس الأمن. شمل الحصار منع الاستيراد والتصدير، وتجميد الأصول المالية، وحظر بيع النفط إلا لاحقًا ضمن برنامج «النفط مقابل الغذاء». أدَّى ذلك إلى **انهيار الاقتصاد**، ونقصٍ حادٍّ في الغذاء والدواء، وتدهور الخدمات الأساسية، استمر الحصار عمليًّا حتى عام 2003.

ومعارف المعارف وهكذا. تفننت آلاء بكعكاتها وزادت الطلبات عليها. كعكة سبايدرمان وكعكة المحقق كونان وكعكة سالي وكعكة فتيات القوة. لم تكن كل الكعكات متقَنة في تعبيرها عن هذه الشخصيات، لكن بمقاييس التسعينيات كان منتجها جيدًا.

في نيوزيلندا، بعد أشهر من استقرارهم في كرايستشيرش، عملت أولًا بشهادتها كمحاسبة في مطعم من دون هوية محددة، يملكه عراقي مع شريك نيوزيلندي، وبعد فترة اقترحت على صاحب المطعم أن تصنع بعض الحلويات. جربها ووجد أنها أفضل مما كان موجودًا بالفعل، واستمرَّت في ذلك لفترة محققةً دخلًا إضافيًّا، كما كانت تقوم بتحضير طلبات خارج المطعم للمعارف ومعارف المعارف كما كان الأمر في بغداد، وسرعان ما تطور الأمر من الكيك والحلويات إلى أكلات عراقية مثل الدولمة وكبة الموصل والقوزي، وبالتدريج لم يعُد بإمكانها أن تواصل العمل في المطعم فقررت أن تستقل وتؤسس عملها الخاص في مطبخ البيت، ولكي تحصل على جمهور أكبر قررت أن تدخل المطابخ الأخرى، الأردني والفلسطيني تحديدًا، ونال ذلك قبولًا طيبًا، فقررت بعد أقل من عام أن تؤسس عملها بشكل رسمي بعيدًا عن المنزل، استدانت واقترضت وأجَّرت ما جعلته مطبخًا مرخصًا مطابقًا للشروط والمواصفات التي تحددها هيئة السلامة النيوزيلندية، ووظفت ثلاث عاملات، وعامل توصيل، وكان العالم هنا قد وصل إلى عصر انفجار وسائل التواصل فاستثمرت في الفيسبوك وفي الإنستغرام فلم تعُد تعتمد على الانتشار عبر المعارف ومعارف المعارف وكلمات الثناء التي تُقال في المجالس، وخلال ذلك كان السوريون قد بدؤوا في الوصول، فدخلت بحذر في المطبخ الشامي، وبحذر أكبر في الحلبي الأكثر تعقيدًا في التوابل، مستعينة بما تيسَّر في اليوتيوب وبنظرتها

وفراستها وملاحظات من حولها، وشجعها النجاح على الدخول في أكلات معينة من المطبخ المصري بعد أخذ ملاحظات دقيقة عن أن «السر في التسبيكة»، والتسبيكة القاهرية خصوصًا.

كل ذلك قاد إلى ازدهار عملها ونجاحه، وازدياد دائرة معارفها بسبب ذلك، أصبحت «أم براء» شخصية معروفة بين الجاليات العربية في كرايستشيرش، مشغولة دائمًا بحيث لا يمكن أن تكون صديقة مقرَّبة من أحد، لكنها مجامِلة، صاحبة واجب، يمكن الوثوق بها والاعتماد على كلمتها ورأيها. كذلك كانت متعاونة، لا سر لأي وصفة عندها، وكثيرًا ما تعطي الوصفات للزبونات إن طلبنها، النَّفَس أهم من الوصفة، وهذا شيء لا يمكن لأحد أن يتعلَّمه أو يسرقه.

نجاحها جعل مصروف البيت معتمدًا عليها أكثر فأكثر، كانت صاحبة الدخل الأكبر منذ السنة الثالثة لوصولهم إلى كرايستشيرش، وبينما نجح عملها الخاص وازدهر، واجه نزار تقلُّبات حادة في عمله، واضطر إلى تغيير أكثر من ثلاث وظائف خلال العشر سنوات الأخيرة، واضطر إلى العمل أكثر من مرة في مدن بعيدة عن كرايستشيرش. وخلال ذلك تغيَّر كثيرًا، ازداد انزواءً بالتدريج، وابتعد داخل نفسه حتى عندما يكون في الجوار. لم يكن لديها ما يفسر ذلك غير أنه لم يحتمل نجاحها وكونها من تنفق أكثر على البيت. الرجل الشرقي في داخله لم يتحمل ذلك. ماذا كان بإمكانها أن تفعل؟ أن تنجح أقل؟ أن تنفق أقل على الأولاد؟

توقعت أن يتأقلم مع الوضع. لكنه لم يفعل. مع الأسف لم يفعل. بل استمرَّ في الانزواء إلى أن جاء اليوم الذي أبلغها فيه بأنه سيغادر. سيغادر ليعيش بمفرده. ليس من امرأةٍ أخرى في الأمر. لا شقراء ولا سمراء ولا أصغر منها ولا شيء. فقط سيغادر ليعيش بمفرده.

قالت لها شقيقتها أسماء إنها أزمة منتصف العمر وإنه سيعود حتمًا. أزمة منتصف العمر مستمرة منذ أكثر من عقد. متى تنتهي؟ عندما ينتهي العمر؟ أما أسيل فكانت ترى أن نزار مصاب بالاكتئاب وعليه أن يتلقى علاجًا، ومن ثم قالت أمها، كما هو متوقع، إنها السبب، لأنها أهملته حتمًا. أمها تنتمي إلى ذلك الجيل الذي يعتقد أن المرأة هي السبب دومًا. سكتت. من يدري يدري، ومن لا يدري يقول عدس[1]. لكنها لن تقول شيئًا لأنها هي نفسها لا تدري. ربما كان ثقب الأوزون حقًّا هو السبب بعد كل شيء. أو ربما لا سبب أصلًا. هل كل ما يحدث في الحياة يكون له سبب واضح ومنطقي؟ منذ زمان كفَّت عن الإيمان بذلك. بعض الأشياء تحدث هكذا، بلا سبب واضح، وعلينا أن نتقبلها كما هي.

بكل الأحوال، بقيت تقول إن نزار (ترك) البيت، ولم تقل قط إنهما منفصلان، ولم يطلب هو أن يحوِّل الأمر إلى أي صيغة رسمية. وكان ذلك مريحًا لها، كما لو كان يفتح الباب لأمل كانت تعرف أنه يتضاءل بالتدريج. لكنه باب مفتوح على أي حال يتيح له أن يأتي إلى البيت في أي وقت يشاء. كانت تعرف أنه سيلجأ لها عندما يحتاج إليها، ذات مرض قادم أو شيخوخة. ولم تكن تشعر بأي نقمة تجاهه، أو حتى بأي رغبة في اتخاذ موقف تجاه كل ما حدث. لا تزال تحبه رغم كل شيء. لا يتعارض ذلك مع تقريعها المستمر له في كل فرصة متاحة. كانت من الجيل بين الجيلين. جيل أمها التي تعتبر أن الحق دومًا على المرأة، وجيل ابنتها مروة التي ترى أن الحق دومًا على الرجل. كانت مروة تحب أباها، لكن هذا لا علاقة له بموقفها مما حدث. كثيرًا ما حرَّضتها على طلب الطلاق، بينما حاول براء عبثًا إصلاح الأمور. يزن لم يتدخل. لكنها

(1) مثل عراقي له مرادفات مشابهة في بلدان عربية عديدة.

كانت تشعر بأنه يقف في صفها. برغم أنها هي نفسها لم تصطف لكي يقف في صفها أحد.

كل أيام الجمعة مزدحمة في جدول آلاء، ليس فقط بسبب ازدياد الطلب، ولكن لأن عليها أن تقود حوالي نصف ساعة خارج كرايستشيرش للوصول إلى أوهوكا، حيث السوق الوحيدة للخضار الطازجة المتوفرة يوم الجمعة، هناك أسواق أخرى يومَي السبت والأحد، أقرب إلى كرايستشيرش، لكن يوم الجمعة هذه السوق هي الوحيدة المفتوحة. بقية الأسبوع عليها أن تدبر أمورها بالمتوفر في الأسواق، لكن الجمعة ونهاية الأسبوع لا بدَّ للخضار أن تكون طازجة. اللحم أيضًا يجب أن يكون طازجًا، تحاول قدر الإمكان أن يكون يومًا بيوم، أحيانًا تشتريه مباشرة من واحدة من المسالخ الثلاثة الحلال في كرايستشيرش، وأخيرًا أصبحت تقصد واحدًا منهم بالتحديد لأنها لاحظت أنه وظَّف عاملًا سوريًّا شابًّا، وهذا أمر نادر عند أغلب الباكستانيين أو البنغاليين. في الغالب لا يوظفون إلا من بني عرقهم. اختيار الخضراوات واللحوم يجب أن يكون على يدها شخصيًّا، هذا أمر لا يمكن أن تتركه لأنه برأيها غير قابل للتعلُّم. الشخص إما يعرف كيف ينتقي وإما لا يعرف. لن تثق بأحد ولا حتى أمهر عاملاتها في هذين الأمرين، بينما يمكن أن تثق بهن في احتياجات المطبخ الأخرى.

بحلول الحادية عشر صباحًا تكون قد أنهت جولتها في الشراء وتذهب إلى المطبخ لتوزيع مهام إعداد الطلبات، الطلبات تُقسَّم حسب موعد التسليم المفترَض، الأول فالأول، تشرف بنفسها على كل خطوة، وبعض الخطوات تقوم بها بنفسها، وبعض الطلبات تعدُّها من الألف إلى الياء لأنها لم تجرب عاملاتها فيها، لن تخاطر أبدًا بأن يُقال: أم براء بدأت جيدة ثم تدهور مستواها، جملة كانت تقولها هي شخصيًّا على

الكثير من المطاعم التي يكون طعامها جيدًا في البداية ثم بالتدريج تنحدر. هذا لن يحدث. توسُّع العمل وتوظيف العاملات لن يعني أنهن هنَّ من سيطبخن الطعام. هذا مطبخ أم براء والطعام يخرج من بين يديها هي.

لم تكن علاقتها بالطبخ هكذا في البداية، تزوجت وهي لا تجيد سوى صُنع الكيك، لكن بالتدريج، أصبح الطبخ مثل هوية لها. الشيء الوحيد الذي كانت الأفضل فيه بين من حولها، بين شقيقاتها وصديقاتها وبنات خالاتها وشقيقات نزار وقريباته. لم يكن لديها شيء قبل الطبخ هي الأفضل فيه، لا الأجمل، ولا الأذكى، ولا الأكثر رشاقة، ولا الأكثر أناقة ولا الأكثر تفوقًا. بينما كان هناك من شقيقاتها أو قريباتها من حاز ذلك بسهولة. إلى أن جعلها الطبخ مميزة في شيء أكثر من الجميع. لا توجد كيكة مثل التي تعملها آلاء، ولا بيتزا مثل آلاء ولا تبُّولتها أو دولمتها. وهكذا. منحها الطبخ مكانة الأفضل التي لا يحصل الكثيرون عليها. بالتدريج، أصبح الطبخ أكثر بكثير من مجرد ذلك. أصبح الطبخ متنفسًا لها عن العالم الذي يفاجئها بما هو غير متوقَّع دومًا، في الطبخ يمكن التحكم في النتائج، ثمة معادلات محسوبة تؤدي إلى نتائج دقيقة، وثمة هامش للإبداع ووضع اللمسة الخاصة التي تميِّزها. عالم الطبخ عالم لا مفاجآت فيه. عالم تتحكم فيه آلاء بإرادتها. ما تضعه فيه، بالمقادير التي تحددها هي، سيؤدي إلى ما سيوضع على الطبق، وسيؤدي إلى الإحساس الذي سيتولَّد في نهايات أعصاب التذوق في اللسان.

بحلول الخامسة أو السادسة مساءً ينتهي العمل وخلال ذلك تكون قد أنجزت تحديد قائمة طلبات التسوق لليوم التالي بما يلبِّي الطلبيات ونواقص المطبخ وغالبًا ما تنجز الحسابات في المنزل.

لكن يوم الجمعة هذا، الموافق للخامس عشر من مارس آذار، سيُضم إلى جانب كل هذا الماراثون شيئًا أكثر صعوبة، شيئًا كانت آلاء تتجنب التفكير فيه. وصار عليها الآن أن تواجهه حرفيًّا.

اليوم، الساعة العاشرة مساءً بالتحديد سيكون موعد اللقاء الافتراضي الذي سيحدث عبر الزوم مع عائلة دعاء. الفتاة التي يريد براء أن يتقدم لها. العاشرة مساء بعد أن تكون قد استهلكت كل طاقتها في الركض منذ الصباح، سيكون عليها أن تضع على وجهها ابتسامة، وعلى لسانها كلمات مجاملة وترحيب، وفي رأسها مهارات التفكير النقدي والتحليل والملاحظة. العاشرة مساءً. أي عندما تكون عادة في سريرها. ولكن الفتاة وأهلها يعيشون في الإمارات. وفرق التوقيت يجعل العاشرة مساءً أفضل المتاح بالنسبة لهم.

منذ سنة أو أكثر، بدأ براء يلحُّ على موضوع الزواج. يريد أن تبحث له عن عروس. كانت تدرك صعوبة العثور على فتاة مناسبة في مجتمع الجاليات في نيوزيلندا. لكن أن تبحث هي عن زوجة لابنها؟ كل الأمهات يفعلن هذا. صحيح. لكنها لم تشعر بأن ذلك أمر صائب، أو بأنها يمكن أن تقوم به. تزوجت نزار بعد قصة حب. صحيح أن هذا يعتمد على تعريف كلمة حب، وأن الأمر لم يتعدَّ نظرات إعجاب وابتسامات وحركات تعديل للشعر وتغيير في أماكن الجلوس في كافتيريا الجامعة، ومن ثم عدة جلسات جماعية كانا ينفردان فيها بالحديث وسط ضجيج الجميع، لكن على الأقل كانت تعرفه ويعرفها. حتى أمها كانت تعرف والدها بسبب صلة مصاهرة تربط العائلتين. لكن الآن نعود إلى الزواج على العمى، الأم تبحث عن زوجة لابنها؟ لم تصدمه برفضها للفكرة في البداية. أليس الوقت مبكرًا؟ أليس من الأفضل أن تنتظر قليلًا؟ تكوِّن نفسك؟ كلمات التعقل المعتادة التي غالبًا ما تكون قناعًا للرفض. لكنه فاجأها. لقد

أصبح في الثامنة والعشرين. تخرَّج منذ ست سنوات. عمل منذ ست سنوات أيضًا. وفَّر مبلغًا معقولًا جدًّا. كلها كانت معلومات تعرفها طبعًا لأنها عاشتها معه لحظة بلحظة، لكنها لم تربطها مع بعضها لتصل إلى أنه أصبح في سنٍّ قابلة للزواج. فوجئت فعلًا بالأمر. هل كان هذا رد فعل نفسي مما انتهت إليه أمورها مع نزار؟ أم أنها انشغلت بعملها وطلباته ولم تنتبه حقًّا لهذا؟ أم أن كل ذلك أقنعة تخفي خلفها عدم رغبتها في التنازل عن براء لامرأة أخرى؟ قبل أن تفكر في اقتراح أي فتاة قال لها براء: انسَي نيوزيلندا. لا توجد أي عراقية مناسبة لي. يريدها عراقية إذن. ارتاحت للأمر وهنأت نفسها تقريبًا على تربيتها لبراء. ثم تذكرت أن تسأله. لماذا لا توجد عراقية مناسبة لك في نيوزيلندا؟ شرح لها عن متتالية هندسية توصَّل إليها بنفسه عن عدد الفتيات العراقيات المناسبات له في نيوزيلندا، والعدد هو 14 وأخته مروة من ضمنهن. ولكن لا توجد أي واحدة مناسبة له منهن.

شككت في الرقم بينها وبين نفسها. لم تفهم المتتالية الهندسية ولا تريد أن تفهمها. ولكن الجالية العراقية تُعتبر كبيرة. 14 فقط؟ وبضمنهن شقيقته مروة؟ فكَّرت في أن تسترجع تهنئتها لنفسها على تربية براء. هذا كثير. تعرف أنه يحب الرياضيات والمعادلات، ولكن الزواج لا يخضع لهذا. الزواج لا يخضع أصلًا لشيء غير القسمة والنصيب. بطيخة لا يمكن أن تحزر ما في داخلها إلا بعد أن تتورط بكسرها.

حتى لو كنَّ 14. ولا واحدة مناسبة منهن؟

ولا واحدة.

ماذا تريد بالضبط؟

قال: بنت عائلة تشبه عائلتنا...

مكتبة
t.me/soramnqraa

عائلة تشبه عائلتنا؟ الأم والأب منفصلان دون أن يعلنا ذلك؟ هذه عائلتنا.

هل هذا ما يقصده حقًّا؟ وكيف سنعرف أصلًا؟ لا أحد يعرف عنَّا فكيف سنعرف عن الناس. البيوت أسرار في البداية وفي النهاية أيضًا. ما الذي في عائلتنا حتى يريد براء أن يتزوج من فتاة من عائلة تشبهنا. أم يريد ألَّا تعايره فيما بعد. لا أعايرك ولا تعايرني. الهم طايلك وطايلني.

أكمل هو بينما هي تفكر في «عائلة تشبه عائلتنا».

«متعلمة جامعية».

هذه سهلة.

«الفرق بينها وبيني لا يزيد على خمس سنوات»

طبيعي. إذا كانت جامعية لا يمكن أن يزيد الفرق بينه وبينها على خمس سنوات. من وضع المتتالية الهندسية يجب أن يعتبر هذا الأمر مفروغًا منه أصلًا ولا يذكره.

ثم قال: ومحجبة.

محجبة؟

من أين جاء بهذا الأمر؟ لو كانت هي محجبة لكان ذلك منطقيًّا. لكن لا هي ولا أخته محجبتان. هناك حجاب في العائلة. خالات وعمات وبنات من بناتهن. لكن لا يمكن أن يكون لهن هذا التأثير. علاقته بالجميع أقل من عادية. واكتشفت أنه لا يميِّز بنات خالاته عن بنات عماته.

رددت بعده بعد صمت: تريدها بنت عائلة مثل عائلتنا ومتعلمة جامعية والفرق بينكما ليس أكثر من خمس سنوات ومحجبة؟

هزَّ رأسه وهو ينظر إليها مستغربًا من استغرابها.

نعم. بالضبط.

لماذا محجبة؟ تستطيع أن تقنعها بالحجاب إن شئت. خالتك أسماء تحجبت بعد زواجها. زوجها كان يريدها أن تتحجب ووعدته أن تتحجب وتحجبت.

هزَّ كتفيه كما لو أنه يقول إن قصة حجاب خالته لا تعنيه.

لا أريدها أن تتحجب من أجل الزواج ولا أريد أن أقنع أحدًا بشيء. أريد أن أتزوج فتاة محجبة.

لا تعرف من أين جاء هذا الشيء. كانت حريصة على صلاتهم خصوصًا في بداية مجيئهم إلى نيوزيلندا. لم يكن براء صغيرًا جدًّا، بل كان في السادسة عشر تقريبًا وقدَّرت أن الصلاة لن تكون فريضة فحسب، بل ستكون حرزًا وحماية وعفة وأشياء أخرى كثيرة. فعلت ذلك مع الجميع، والتزم الجميع بها ولكن بتفاوت، براء كان الأكثر حرصًا والتزامًا، واستمرَّ في ذلك، بينما يزن يتقطع فيها، هي أحيانًا تؤخرها أو تصليها كلها في آخر اليوم، لكن براء بقيَ الأفضل بينهم. كان شابًّا مثل أغلب الشبان في سنِّه، يحب كرة القدم والسباحة والتخييم والألعاب الإلكترونية، لكنه خلال ذلك كله بقيَ محافظًا على صلاته، وهناك موقف واحد على الأقل، بين براء ويزن، أظهر لها أن يزن ربما كان قد جرب شرب الكحول -جرب على الأقل- وأن براء نهره بشدة، مما يعني أن الأخير لم يكن يشرب. كانت تستنتج هذه التفاصيل ولا تعرفها مباشرة منهما لسببين، الأول أنها لا تريد أن تعرف لأن لا فائدة من المعرفة، خاصة في ظل غياب والدهما المتزايد، الثاني أنهما شابان وقد يمرَّان بكل ما يمرُّ به الشباب في كل مكان وزمان، وغالبًا ستكون تلك مرحلة عابرة وتنتهي. لقد وضعت بذورًا عميقة. هذا أقصى ما يمكن فعله في الغربة. وربما في أي مكان. التدخل الواضح المباشر قد يفسد كل شيء. التدخل الخفي أفضل وأكثر نجاحًا على المدى البعيد.

عمومًا لم تكن هناك علامات خطِرة في مراهقة براء، ولا في مراهقة يزن. رغم أن يزن كانت علامات مراهقته أكثر، ولكنها كانت عابرة وليست خطرة كثيرًا. لم يمرَّ بما تسمعه من الأهالي من كوارث في هذه المرحلة. الحمد لله. لكنها سرعان ما عرفت عمَّ يتحدث أولئك الأهالي. كل مشكلات المراهقة كانت تنتظرها بالمرصاد عند مروة. جعلتها تجنُّ وتسأل نفسها عن العبقري الذي أسمى البنات «ألطف الكائنات». تمرُّد بلا هدف غير التمرُّد بحد ذاته وعناد لا سقف له ودراما على أتفه التفاصيل. تزامن ذلك مع انسحاب نزار التدريجي (أو كان سببًا له؟ لا تدري) مما جعل كل المسؤولية في مواجهة مروة تقع عليها وحدها.

كانت آلاء تعتبر أن براء أعقل أولادها دون منافس. وكانت تعتبر أن عقله هذا، يتضمن (تديُّنه). ولم يكن الأمر يستوقفها أبدًا. براء أكثر واحد متدين في البيت. والتدين يعني الصلاة وعدم شرب الكحول. حسب مقاييس الطبقة البغدادية التي تنتمي إليها آلاء: المعتدل هو الذي لا يصلي ولا يشرب. والمتدين هو الذي يصلي ولا يشرب. براء إذن متدين. لكنها لم تعتقد أنه هو الذي كبر في نيوزيلندا، ودرس وعمل فيها، ضمن عائلة مباشرة ليس فيها أي حجاب، سيشترط على زوجته أن تكون محجبة.

قال براء: ماما، لماذا تتصرفين كما لو أني قلت أريدها متحولة؟ كل ما قلته هو أن تكون محجبة.

صحيح ما يقول. يريدها محجبة. نصف الشعب على الأقل يريدها محجبة. لماذا هذا الاستغراب؟

قالت آلاء بسرعة: فقط لأن فرصها في العمل في نيوزيلندا أقل. هذا كل شيء.

ردَّ فورًا: أقل نعم، لكن ليست منعدمة. وبالتدريج سيصبح هناك تقبُّل لهذا أكثر فأكثر.

حسنًا، عليها إذن أن تقوم بدور الأم التي تبحث لابنها عن عروس. بدأت بالمعتاد. بنات شقيقاتها. يا براء اثنتان من بنات خالاتك تنطبق عليهما المواصفات. أبدًا. بنات خالاتي مثل شقيقاتي. كيف مثل شقيقاتك؟ واحدة لم ترَها منذ 2006 وكانت في الصف الرابع الابتدائي والأخرى لم ترَها إلا في 2003 عندما جاؤوا في زيارة إلى بغداد. ولو. مثل شقيقاتي. توسعت قليلًا إلى بنات أبناء وبنات الخالات. الحصيلة كانت ثلاثة ضمن الشروط. لكن براء كان أصعب من توقعاتها. أنفها كبير. مكياجها كثير. كمُّها قصير. طويلة جدًّا. قصيرة جدًّا. شعرها ظاهر.

مع الوقت اتسعت دائرة الترشيحات لدرجة أن آلاء اضطرت -على مضض- إلى وضع بنات العمات في الاعتبار. تكررت أغلب الأعذار السابقة وظهرت أعذار جديدة: هذه وضعت ابتسامة هوليود المزيفة. هذه تتباهى بالبراندات التي تحملها. هذه أجرت عملية تجميل واضحة وعمليتها فاشلة أيضًا. سيل لا ينتهي من الاعتراضات على كل من تُرشَّح.

كانت في مكالمة فيديو جماعية مع شقيقتيها وهي تخبرهما إنها تكتشف للمرة الأولى أن ابنها صعب جدًّا بأكثر مما كانت تتخيل.

ردَّت عليها أسماء بتفهم: لم يأتِ بهذا من خارج العائلة على أي حال.

اعترضت آلاء: لا، رغم كل شيء، والده ليس هكذا. تعرفان وضعي مع نزار. لكن الحق حقٌّ. نزار ليس صعبًا على الإطلاق في هذه التفاصيل. مشكلاته في قسم آخر.

أُغرقت أسيل في الضحك فورًا، بينما نظرت أسماء باستغراب: من جاء بسيرة نزار يا آلاء؟

من تقصدين إذن؟ سألتها آلاء باستغراب. أمي الله يرحمها كانت صعبة، ولكن هذا زاد مع التقدم في العمر، وأبي الله يرحمه كان هينًا لينًا ولا أرقَّ منه.

فتحت أسماء فمها من الدهشة، بينما بدا وجه أسيل أحمر اللون من الضحك.

قالت أسماء: آلاء! لا أقصد نزار ولا أمي وبالتأكيد ليس أبي.

من تقصدين إذن يا أسماء؟ قلتِ إنه لم يأتِ بذلك من خارج العائلة.

وجَّهت أسماء كلامها لأسيل: ألم أخبركِ؟ آلاء لا تعرف. ثم قالت لآلاء: أقصدك أنتِ طبعًا. براء يتصرف تمامًا كما تتصرفين أنتِ دومًا. هل ما أقوله سر؟ لا تعرفين كم أنتِ صعبة؟

صُدمت آلاء بهذه التهمة. هي صعبة؟ براء أخذ هذا عنها؟ مستحيل. أسماء تريد إغاظتها فحسب. لكنها لن تقبل ذلك. أنهت الاتصال بغضب. ولم تردَّ على أي اتصال من أسماء وأسيل ولا على أي رسالة منهما. أرسلت أسماء مقطعًا من أغنية فيروز: زعلي طوِّل أنا وياك. لم تردَّ عليها أيضًا. أنا صعبة؟!

كتبت لها أسيل: أنتِ تثبتين ما قالته فحسب.

ترددت في الرد ثم كتبت: عمَّ تتحدثين؟ ماذا قالت؟ كنت منشغلة فحسب.

لكن كلمات أسماء بقيت في رأسها. هل هي صعبة حقًّا؟

على العموم، الفتيات اللواتي نجونَ من ملاحظات براء (الصعبة) كان عليهن الدخول في مرحلة تالية، مرحلة تقييم الحسابات على وسائل التواصل الاجتماعي، وهنا ظهرت الملاحظات الأعمق التي سرَّت لها آلاء

سرًّا دون أن تُعبر عن ذلك لا لبراء ولا لغيره. هذه تحب الظهور. هذه نظفت حسابها حديثًا، واضح أنها علمت بالأمر. هذه دمها ثقيل.

غربال براء لم يجعل أيًّا منهن تصل إلى المرحلة الثالثة. مرحلة التعارف بقصد الخطوبة تمهيدًا للزواج، وهي مرحلة تتطلب وجود الأهل، أو الأم على الأقل، لجعل الأمور حسب الأصول.

وفجأة، وبعد أن رفض كل الترشيحات التي جاءت عن طريقها، جاء براء ليخبرها بفرحٍ: وجدتها.

تظاهرت آلاء بأنها لم تفهم إلى من يعود الضمير في وجدتها. ماذا وجدت؟ ماذا كان ضائعًا؟

وجد الفتاة التي نجت من غرباله. دعاء محمد آل أمين. أراها صورة من جواله. عادية جدًّا. الفتاة كانت عادية جدًّا أو حتى أقل من عادية. ليس فيها ما يميِّزها وفيها أغلب الأعذار التي تحجج بها سابقًا. ضبطت نفسها متلبسة دور أم العريس التي تكره عروس ابنها منذ اللحظة التي تراها فيها. تظاهرت بالإعجاب بالفتاة وسألته عن أصلها وفصلها فكانت هناك أجوبة مقتضبة لا تروي العطش المعرفي الذي كانت آلاء تراه ضروريًّا في هذه الحالة.

لم تخبر شقيقاتها أنها كرهتها فورًا وأن قلبها انقبض فورًا عندما رأتها. لكن كان ذلك واضحًا دون أن تقول أي شيء.

قالت لهن في مكالمة جماعية: لا توجد أي معلومات عن الأسرة. اللقب لم نسمع به. بيتهم في شارع فلسطين. أبوها كان مهندسًا في وزارة النفط. وفي الإمارات منذ 2007، والبنت درست هندسة برمجيات

من جامعة الشارقة. أين نسأل عنهم؟ في شارع فلسطين؟ أين كانوا قبل ذلك؟ كيف سأصل إلى (سابع ظهر)[1] بهذه المعلومات؟

جارتها شقيقتاها في ضرورة وجود معلومات أكثر. لكن أسماء قالت لها في نهاية المكالمة: انسَي موضوع الجد السابع. لا أحد يبحث عن هذا في المهجر. حتى في بغداد لم يعُد أحد يمكنه أن يصل إلى الجد السابع. هذا كان ممكنًا يوم كانت بغداد مكوَّنة من الكرخ والرصافة وفي كل منهما بضعة أحياء. كلما كبرتِ أصبح ذلك أصعب.

كان الكلام مقنعًا، لكن آلاء قالت كما لو كانت تتحدث مع نفسها: على الأقل الجد الثالث يعني.

ردَّت عليها أسيل: اتركي الأجداد الآن. ركزي في الأب والأم والفتاة. وحاولي تقبل الأمور كما هي ما دام براء اقتنع أخيرًا. لا تعترضي إلا إذا وجدتِ شيئًا لا يمكن السكوت عليه.

أكملت أسماء: «لا يمكن *السكوت عليه*» ولكن ليس بمعاييرك أنتِ، بل بمعايير الناس الطبـ... بمعاييري أنا وأسيل مثلًا.

كانت ستقول بمعايير الناس الطبيعيين ثم توقفت. أسماء تستحق الإهمال لشهر آخر على الأقل.

سألتهما بمنتهى الجدية: ما المشكلة في معاييري؟ لكنهما غيرتا الموضوع كما لو كانتا تعرفان عواقب النقاش في الأمر.

اليوم هو لقاء التعارف الأول مع عائلة دعاء. أو (هذي البنيَّة) كما تسميها حاليًّا. العاشرة مساء. سيأتي نزار قبل ذلك لكي تظهر العائلة بصورة جيدة. هذه أول مرة تراه منذ أكثر من سنة. تحمل همَّ اللقاء

(1) سابع ظهر: أي الجد السابع، ويُقصد به أن البحث عن أصل العائلة والتأكد من سُمعتها وصل إلى الجد السابع.

وهمَّ الجلوس على مائدة العشاء قبل اللقاء. لكن المهم أن يظهرا كما لو أن الأمور طبيعية. لن يُقال عن أم العريس مطلَّقة. لو حدث وتزوجا ستعايره إلى أبد الآبدين. وربما يؤثر هذا لاحقًا في زواج يزن ومروة. كانت قد أوصت براء بأن يقول إن أمه تملك شركة مواد غذائية. لن تمنحهم فرصة أن يقولوا عن براء إن أمه طباخة.

الساعة 9:52 صباحًا

استغرب غسان أبو حجر من أن يأتي اتصال من ابن عمه حمزة في أمريكا في هذا الوقت. بل في أي وقت. قضت الرسائل النصية والصوتية على الاتصالات المباشرة. على الأقل بين ابنَي عمٍّ لم يرَ أحدهما الآخر إلا بضع مرات في مناسبات عائلية ويعيش كل منهما في قارة مختلفة.

كان في طريقه إلى موقع الإنشاءات الذي يشرف عليه في نيو برايتون، مجمَّع سكني يُبنى على أنقاض منازل وأبنية قديمة تضررت من زلزال 2011 الذي ضرب المنطقة بأكملها وتسبب في قرابة مائتي وفاة. لا يزال يرتعد كلما تذكَّر الزلزال، لم يكن قد مضى وقت طويل على انتقاله إلى نيوزلندا من أستراليا بعد أن أخذت الشركة الهندسية التي عمل فيها في بيرث بعض المقاولات الإنشائية في نيوزلندا. حدث الزلزال في الأسبوع الأول لوصوله. تشاءم جدًّا وأخبر والده إنه ربما يترك العمل في الشركة. قال له والده الذي كان لا يزال في الكويت: الزلازل قدرنا يا ابني، منذ الـ 48 ونحن من زلزال إلى آخر. الزلزال في حياتك مثل جار عليك أن تتعايش معه ولا تجعله يكسرك. سمع نصيحة والده وصار جارًا للزلزال. ترك العمل فعلًا ليؤسس شركته الخاصة التي استهدفت في أعمالها الترميم وإعادة الإعمار بعد الزلزال. الزلزال الذي تشاءم منه أولًا وفكر في أن يغادر نيوزيلندا بسببه أصبح مصدر رزقه واستقراره في البلد. بالنسبة له، نيوزيلندا لم تصبح البلاد بعد، لكنها ستكون كذلك حتمًا بالنسبة لأولاده. والده يعتبر أن فلسطين هي *البلاد*، أحيانًا يافا فقط، رغم أنه تركها وهو في الثامنة، لكنه لا يزال يعتبرها (البلاد). لقد

رآها وعاش فيها. على الأقل لديه ما يقول عنه البلاد. أما هو، المتنقل بين لبنان والكويت والأردن وأستراليا، فهو من الجيل بين الجيلين، لا بلاد له حقًّا، حتى لو حصل على جواز سفر وجنسية أجنبية، مجرد وثائق يحتاج إليها لضرورات البقاء على الحياة. لكن ليس البلاد. ليس الوطن.

تجاهل اتصال حمزة. ربما كان الاتصال بالخطأ أصلًا. سيرسل إليه رسالة لاحقًا.

لكن حمزة عاود الاتصال.

أوقف غسان السيارة جانبًا لكي يردَّ على الهاتف، لو كان عمُّه عبد الحق على قيد الحياة لتصوَّر أن حمزة يتصل به ليخبره بوفاته. اتصالات كهذه لا تكون إلا لخبرٍ كهذا.

قضيا بعض الوقت في جمل التحيات والمجاملات. لهجة حمزة لم يبدُ أنها تحمل خبر وفاة أو كارثة مستعجلة.

ثم ساد صمت قصير جعل غسان يتوقع أن سبب الاتصال بعدها فورًا.

- هل عمي بخير؟ سأل حمزة بتردد.

- نعم، بخير، بالتأكيد العمر له حقه، لكنه بشكل عام جيد، يذهب لصلاة الفجر مشيًا.

سكت حمزة قليلًا ثم قال: الحمد لله، لكني لم أقصد من هذه الناحية. قصدت من ناحية...ذهنه، هل هو بخير؟

لا أحد يسأل هذا السؤال فقط لمجرد السؤال. هناك شيء ما خلف هذا السؤال. لكن والده بخير من هذه الناحية بالنسبة لرجل في التاسعة والسبعين من العمر.

- هو بخير، ذاكرته ربما أفضل مني، ما الأمر؟

- مرة أخرى، ليس هذا ما قصدته. هل يمرُّ باضطراب من أي نوع؟

- ما الأمر يا حمزة؟

سكت حمزة قليلًا كما لو أنه يستجمع قواه ثم قال: تلقيت مكالمة منه قبل قليل. طلب مني أن أتصل بالمحامي في أمريكا من أجل قضية الدار.

- محامٍ في أمريكا؟ من أجل قضية الدار؟ أي دار؟

- هذا ما سألته بالضبط. أي دار؟

- وماذا قال؟

- قال: دار حي المنشية.

سكت غسان وهو يحاول أن يستوعب. فهم الآن أسئلة حمزة. يظن بأن والده فقد عقله.

أكمل حمزة: دارهم في حي المنشية في يافا. يريد أن أتصل بالمحامي من أجل قضية البيت، وأخبره أن...

سكت حمزة قليلًا كما لو أن ما سيقوله الآن صادمًا أكثر حتى مما سبق.

- تخبره ماذا؟

- باختصار طلب مني أن أهددهم بأنه سيلغي التوكيل إن لم يحدث تطور في القضية.

حمزة محقٌّ في اعتقاده أن والده فقد عقله.

كان غسان محرَجًا. تمتم بكلمات اعتذار مرتبكة وهو يقول إن هذه هي المرة الأولى التي تحدث مع والده، وإن هذا الأمر بلا سابقة من أي نوع.

كرر حمزة أنه غير منزعج وأنه لا داعي للاعتذار ثم قال: لكن هناك شيء آخر مثير للاهتمام. هل عمي يقضي وقتًا على الإنترنت أو يجيد التعامل مع محركات البحث بصورة عامة؟

- لا يقضي الكثير من الوقت بالتأكيد. لكنه يعرف كيف يتعامل مع الإنترنت وليس هناك أسهل من البحث في غوغل. لماذا؟
- لأنه ذكر لي اسم المحامي، ومكتب المحاماة الذي يتحدث عنه في بوسطن.
- ذكر اسم محامٍ؟
- نعم، ثم أرسل رقمه على الواتس آب. قال إنه لا يستطيع الحديث معه مباشرة لأن لغته (على قده) ولأني محامٍ أمريكي سأستطيع الحديث معه على نحو أفضل.
- وهل يوجد محامٍ كهذا؟ هل يوجد مكتب كهذا؟
- نعم، المكتب معروف، هاغنس وبيرمان. ولديهم محامٍ بالاسم الذي ذكره. والمكتب له قضايا مرفوعة في إسرائيل. لكن هذه معلومات يمكن الوصول لها بسهولة.

لم يعرف غسان ماذا يقول.

قال حمزة: يا غسان، عمي ذكر مبلغًا طائلًا جدًّا، قال إنه دفعه للمحامي منذ عشر سنوات.

ابتلع غسان ريقه ولم يعلِّق.

أكمل حمزة: مئة ألف دولار.

فكر غسان: الحمد لله أني أوقفت السيارة.

- لا يمكن أن يكون أي من هذا الكلام صحيحًا يا حمزة. لا بدَّ أنه بحث على الإنترنت ووجد المكتب والمحامي ثم اختلط عليه الأمر.

مئة ألف دولار! من أين لعمك بهذا المبلغ؟ أنت تعرف البير وغطاه. ربما يمزح معك أصلًا. هو بخير، إن كنت اعتقدت أنه قد خرف فتأكد أنه ربما كان يمزح معك.

بدا على صوت حمزة أنه قد تفهَّم تغيُّر لهجة غسان ومحاولته تغيير الموضوع إلى المزاح.

- نعم بالتأكيد، الله يطوِّل بعمره لعمي الحبيب، المرحوم أبي كان يحكي لنا عن مقالبه دائمًا، الله لا يحرمناه.

ثم قال بلهجة مختلفة: سأرسل إليك معلومات المحامي يا غسان. فقط في حالة أردت أن تسأل عن شيء.

شكره غسان وهو يعرف أن حمزة يعرف أن والده لم يكن يمزح.

فكَّر مع نفسه: مئة ألف دولار، قبل عشر سنوات، أي في 2009؟

اتصل بالمهندس المساعد في المشروع وأخبره أنه سيتأخر إلى بعد الصلاة.

ودار بسيارته عائدًا إلى البيت. عليه أن يفهم من والده ما الذي يحدث.

الساعة 10:12 صباحًا

الجمعة صباحًا هو أطول وقت تقضيه عابدة خارج المتجر، ولهذا فهو الوقت المناسب بالنسبة إلى عارف لكي يستقبل زبائنه الباكستانيين.

كل جمعة، تذهب عابدة إلى الميناء لتستلم الشحنة المجمدة من الأسماك النهرية التي يعتبرها البنغاليون جزءًا أساسيًّا من مائدتهم خاصة أيام نهاية الأسبوع. بالنسبة لهم السمك البحري لا يمكن أن يحلَّ محل السمك النهري الذي يجب أن يأتي خصوصًا من بنغلاديش، تستغرق الرحلة ثلاثة أسابيع تقريبًا، أي أن السمكة تكون قد اصطيدت ربما قبل حوالي شهر، لكن هذا لا يخفف من إقبال البنغاليين في المهجر عليها.

في كل جمعة توصل عابدة عارف إلى (بنغال باسكت)، تفتح الأبواب وتتأكد من أن كل شيء مهيَّأ لكي يتمكن عارف من إدارته بيسرٍ من على كرسيه المتحرك، عادة تستغرق رحلتها لاستلام السمك وتوصيله إلى المتجر قرابة الساعتين، بعدها تذهب إلى البيت وتغيِّر ثيابها للتخلص من رائحة السمك ثم تعود إلى المتجر لتصطحب عارف إلى صلاة الجمعة.

بنغال باسكت هو المتجر الذي أسساه معًا والذي كان فكرتها أصلًا بعد أن تعرَّض عارف للحادث، باعت القليل الذي تملكه من الذهب والمصوغات، وباعت حصتها من البيت الذي ورثته من أبيها، وأضافت

كل ذلك إلى مدخرات عارف من عمله السابق في مجال المقاولات الكهربائية، وافتتحت المتجر الذي تخصص ببيع ما يريد البنغاليون شراءه، رز كاليجيرا ورز شنيغرا، دقيق آتا ومايدا، أنواع الماسالا، البهارات وخلطاتها المتنوعة، زيت الخردل الذي يعتبر البنغاليون رائحته رائحة الوطن، الشاي الخاص الذي يتعالجون به من كل الأمراض تقريبًا، ولاحقًا أخذت تأتي بأنواع السمك خاصة الإيليش[1] الذي يُعتبر رمزًا قوميًّا.

عندما قررت عابدة أن تفتتح المتجر، كان عارف لا يزال في مرحلة التعافي الطويلة، وكانت قد أدركت بوضوح أن شفاءه من المرض وعودته ليقوم ويمشي على قدميه هو معجزة عليها أن تتمناها، ولكن لا تعول على حدوثها. سيكون عليها أن تتدبر أمور المعيشة بنفسها، وكانت تعرف أن عليها في الوقت نفسه أن تعتني بعارف. أي عمل تقوم به عند أحد، لن يمكنها من أن تعتني بعارف في الوقت ذاته، لذا كان عليها أن تؤسس عملها الخاص الذي يكفي احتياجاتهما، وفي الوقت نفسه عليه أن يسمح لها بالبقاء بالقرب من عارف، عيناها تكونان عليه، تساعده إذا احتاج إلى شيء.

قدَّرت عابدة عدد البنغاليين في كرايستشيرش بقرابة الـ 500 فرد. حسبت ذلك من عدد مرتادي صلاة الجمعة في الجوامع الثلاثة في كرايستشيرش وضواحيها، وكان هذا العدد أكثر من كافٍ برأيها. لا يوجد متجر متخصص بالبضائع البنغالية، بل متاجر آسيوية عامة

---

(1) **سمك الإيليش :(Hilsa\Ilish)** في بنغلاديش هو **السمك الوطني للبلاد** وأحد أكثر الأسماك شعبيةً وقيمةً غذائية. يعيش في البحر ثم يهاجر إلى الأنهار العذبة (خصوصًا نهر الغانج وفروعه) للتكاثر، ويتميَّز بلحمه الدهني الناعم ونكهته القوية. يُعدُّ طبقًا أساسيًّا في المطبخ البنغلاديشي، ويُطهى غالبًا مع الخردل أو الكاري، ويرتبط حضوره بالمواسم والاحتفالات التقليدية.

تحمل غالبًا بضائع هندية، بعضها يقترب مما يتناوله البنغاليون، ولكن لا متجر متخصص. حصتها من الإرث بعثتها إليها شقيقتها على شكل البضاعة الأولى التي انطلقت منها في (بنغال باسكت)، استخدمت حضورها الاجتماعي القوي في الدعاية للمتجر، إضافة إلى العشرات من مطبوعات الدعاية التي وزعَتها في المساجد وفي كل دعوة عرس أو ختان أو أي مناسبة تجمَّع فيها البنغاليون. منذ الشهر الأول، كان واضحًا أن المشروع سيلاقي النجاح. وسرعان ما بدأت تتوسع في البضائع التي تجلبها، وتجرأت بعد فترة على جلب وجبة من السمك الإيليش المجمد من بنغلاديش مباشرة، ونجحت التجربة نجاحًا فاق توقعاتها، فاستثمرت أكثر في الأمر، وأصبحت تصلها وجبة محددة في كل يوم جمعة من كل أسبوع، لكي تضمن أكثر جودة ممكنة بالنسبة لمدة الشحن، خلال عامين فقط أصبح (بنغال باسكت) متجرًا يقصده البنغاليون من المدن القريبة داخل منطقة كانتربري، مثل تيمارو وآشبيرتون.

منذ البداية، عملت عابدة على أن يكون المتجر مناسبًا لحركة عارف فيه، بحيث يمكنه أن يقوم بدورٍ في العمل، الرفوف ليست مرتفعة بحيث يمكن أن يصلها وهو على كرسيه، المساحات كافية لكي يدير كرسيه عندما يرغب في ذلك دون أن يصطدم بشيء ويتسبب ذلك في حرج له، طاولة المحاسب منخفضة مقارنة بالمعتاد لكي يستطيع التحكم فيها من خلال كرسيه. ثم شجعته على أن يقدم وصفات الطب الشعبي التي كان يمارسها كهواية قبل ذلك، فكرت في أن المتجر يمكن أن يكون مكانًا مناسبًا لتحويل ذلك إلى مهنة بما أن أغلب البنغاليين لديهم إيمان تقليدي بالوصفات الشعبية التي يعتقدون أنها بلا أضرار جانبية على العكس من الأدوية الحديثة والمستحضرات الكيميائية. نجح الأمر أيضًا

وأصبح -أحيانًا- يشكل نسبة لا تقل عن العشرين في المئة من واردات المحل.

هذه الجمعة لم تكن مختلفة. أوصلته عابدة وذهبت، وبدأ هو في استقبال زبائن الوصفات الشعبية من الباكستانيين.

منذ بداية زواجهما، لاحظ عارف مشاعر عابدة الباردة تجاه الباكستانيين، كانت ودودة مع كل الجالية المسلمة في كرايستشيرش، بل مع كل الناس مسلمين أو غير مسلمين، صديقة للجميع، تساعد الجميع، لكن بمجرد أن يكون هناك أي شيء باكستاني، رجل، امرأة، طفل، بل أي ذكر لأي شيء باكستاني، تسدل عابدة ستارًا على وجهها وتتحول إلى شخص آخر. لم ينتبه عارف لذلك في البداية، غالبًا لأنها كانت تتجنب الباكستانيين فلا يظهر أي شيء عليها، لكن مع افتتاح المتجر، صار ذلك أوضح لعارف بالتدريج. كان المتجر موجَّهًا للبنغاليين، لكن ذلك لا يمنع دخول الباكستانيين، وهم يرغبون أحيانًا في شراء بعض ما يحبه البنغال، هناك مشتركات كثيرة في ثقافة المطبخ والطعام، مع استخدام زيت مختلف ونسب مختلفة في خلطة البهارات، بل إن البعض من الباكستانيين لا يزالون يعتبرون أن بنغلاديش تابعة إلى الباكستان، وكانت كذلك فعلًا إلى حين الاستقلال وإعلان دولة بنغلاديش عام 1971. أقل من ربع قرن كانتا رسميًّا دولة واحدة رغم عدم وجود حدود مشتركة بينهما، لكن هذه الفترة الزمنية حفرت الكثير في نفوس الناس على الجهتين، وبمدى زمني أبعد بكثير من الربع قرن.

كلما دخل زبون باكستاني، كانت عابدة تحاول تجنب التعامل المباشر معه، وتترك ذلك لعارف. لا تقول شيئًا ولا تتعامل بفظاظة، فقط لا تصبح نفس العابدة. تنسحب وتنطوي على نفسها.

في البداية اعتبر عارف الأمر مجرد بقايا مشاعر كراهية كان يكنُّها الكثير من البنغاليين للباكستانيين، قلَّت طبعًا مع الوقت، لكنها لا تزال موجودة.

لكنه لاحظ أيضًا أن الأمر قد يكون أكثر من ذلك بالنسبة لعابدة. يعرف الكثير من البنغاليين ممَّن يكنُّون مشاعر كرهٍ عميقة للباكستانيين، لكنهم يحيدونها عند التعامل المباشر معهم. ظروف الغربة تحتِّم التعايش، والباكستانيون لهم حضور كبير في المساجد والمراكز الإسلامية وتجمعات الأعياد، لا يمكن تجنبهم، لكن يمكن تحييد المشاعر والتعامل معهم بلطف أو على الأقل بحياد.

لكن ليس لعابدة. تتجاهل. تتجنب. لكن لن تحاول أن تظهر أي لطف. لن يكون العداء واضحًا أيضًا. فقط البرود. عندما دخلت سامية المدرسة سمعها تقول لها بوضوح ألَّا تصادق الفتيات الباكستانيات ولا تتحدث معهن. حاول أن يعترض بلطف، لكنه لمح نظرة في وجهها جعلته يفضِّل أن يؤجل الأمر. أو حتى يتجنبه. الأم أعرَف بالتأكيد في هذه الأمور.

في مباراة كأس العالم بالكريكت عام 2012، صعد الفريقان البنغالي والباكستاني إلى النهائي، وكانت هذه المرة الأولى التي تصل بنغلاديش إلى هذه المرتبة، وكانت عابدة متحمسة إلى درجة هيستيرية، وعندما خسر الفريق البنغالي لم تحزن كما حزن كل المشجعين، بل كانت غاضبة. غاضبة على نحو مخيف. حاول عارف أن يهدئ من غضبها، فقال لها ما يُقال في هذه الحالات، هذه مجرد لعبة، الرياضة فوز وخسارة، إلى آخر هذه الأشياء المعتادة.

إلى أن قال: والباكستانيون إخوتنا أيضًا في الإسلام.

هنا انفجرت.

لا تقُل هذا. ليسوا إخوتنا.

قالتها بطريقة لم يسمعها منها من قبل. لم تحدثه هكذا من قبل. بل لم تحادث أحدًا هكذا من قبل. على الأقل ليس أمامه.

تجاوزت الغضب إلى البركان. تجاوزت الكره إلى الحقد.

لثوانٍ، قبل أن تستعيد السيطرة على نفسها، كانت قد أصبحت شخصًا آخر، لا يعرفه، ولا حتى يعرف من يشبهه.

هناك سياج مكهرب داخل عابدة. لا تسري فيه الكهرباء إلا عندما يمرُّ باكستاني أمامها.

عدا ذلك هي ألطف كائن على وجه الأرض.

لم يفهم كل هذا التناقض بين منتهى اللطف مع الجميع وكل هذا الصدِّ تجاه الباكستانيين تحديدًا.

ثم تقبَّل الأمر على أنه من حِكَمه سبحانه وتعالى، لا إنسان كامل مهما بلغ من أخلاق. لو كانت عابدة لطيفة مع الباكستانيين لربما أصبحت كاملة. لذا كان لا بد أن تكون فيها هذه النقيصة. حكمته عز وجل.

قبل أن يحين موعد عودة عابدة، كان قد أنهى تقديم الوصفات لزبائنه، وشرح لكل منهم بدقة طريقة الاستخدام أو التناول. تأكد من حسابات المحل بما أن الإقفال قد اقترب لأجل صلاة الجمعة، جاءه اتصال من ابن خالته أحسن. كان قد اتصل به قبل أسبوع وطلب منه أن يحاول إيجاد وثيقة بديلة لشهادة ميلاد عابدة لأن السجلات الأصلية في سيلهت احترقت. تعطل حصول عابدة على الجنسية قرابة العشرة أعوام بسبب النقص في الأوراق. معاملة التجنيس تحتاج إلى شهادة الميلاد الأصلية. حاول أقارب عابدة أن يأتوا بوثائق بديلة لكن كل ما يرسلونه كان يرفض. أخبره الموظف في دائرة الجنسية النيوزلندية إن هناك

وثيقة يمكن أن تعوِّض غياب الشهادة الأصلية، عبر وجود وثائق أخرى تثبت عمرها واسمها واسم والديها مثل ورقة دخول المدرسة، ووثيقة أخرى تثبت تعرُّض السجلات الأصلية للتلف. فضَّل عارف أن يعتمد على أقاربه هذه المرة، ولم يخبر عابدة بالأمر أصلًا.

- لديَّ خبر جميل يا عارف.

قال أحسن فورًا وقبل أن يردَّ على سلام عارف.

- حصلت على الوثائق البديلة بهذه السرعة يا أحسن. قالوا إن لديك معارف في مؤسسات الحكومة، ولكن لم أتوقع أن تنجز المطلوب بهذه السرعة.

- أبدًا، لم نحتَج إلى وثائق بديلة. حصلت على شهادة الميلاد الأصلية.

- شهادة الميلاد الأصلية؟ لعابدة؟ لا يمكن! السجلات في سيلهت احترقت.

- لا يوجد شيء كهذا يا عارف. استغرب الموظفون جدًّا موضوع الحريق. لا يوجد حريق، حصلت على الشهادة خلال ساعات.

- ماذا تقول يا أحسن؟ أخشى أن هناك خطأً ما. هل الاسم متطابق؟

- لا يوجد خطأ. والاسم متطابق.

- هل قمت بالمعاملة بنفسك؟ أم كلَّفت أحدًا الموضوع؟ أخشى أن تكون مزوَّرة، هنا إذا اكتُشف التزوير تتعقد الأمور وربما تُحرم عابدة الجنسية.

- أقول لك لا يوجد أي خطأ أو إشكال. قمت بكل شيء بنفسي. ولم أدفع لأحد غير الكلفة الرسمية.

سكت عارف قليلًا ثم قال كما لو أنه يتحدث مع نفسه: السجلات لم تحترق! عشر سنوات ونحن ننتظر شهادة الميلاد ثم يستخرجها أحسن في يومين!

قال أحسن: أي معاملة تحتاج إليها أنا جاهز يا عارف، لا تحمل همًّا أبدًا. لا مشكلة.

قال له عارف: أرسل إليَّ صورة شهادة الميلاد يا أحسن.

- يجب أن أكمل التصديقات أولًا قبل أن أرسلها يا عارف.

- أقصد أرسلها كصورة على الهاتف. واتس أو فيبر.

بعد دقائق تسلَّم عارف رسالة من أحسن. فيها صورة لشهادة ميلاد عابدة.

فتحها عارف فورًا، ونظر فورًا إلى تاريخ الميلاد.

كان يتوقَّع ما قرأه.

الساعة 10:50 صباحًا

تبًّا.

قال عندما اقترب من المتجر الملحق بمحطة الوقود في تيمارو.

الموظف من الغزاة.

تبًّا تبًّا تبًّا. وضرب بيده مقود السيارة. ثلاث مرات متزامنة مع كل لعنة.

انتبه موظف المحطة له، مدَّ رأسه وهو يبتسم، رأى شفتيه تتحركان بجملة: تفضل سيدي.

كم يكرهه، كم يكرههم جميعًا.

لكن لا يمكنه أن يخاطر بأن يترك هذه المحطة أيضًا. تجاوز منتصف الطريق إلى كرايستشيرش. لا ضمان أن تكون المحطة التالية لم يحتلَّها الغزاة أيضًا. لقد وصلوا إلى كل مكان. احتلوا الطرق والمطاعم والمدارس والمستشفيات والمصانع. وكل هذا يحدث أمام أعين الجميع وبموافقة القانون الذي صُمِّم ليخدم من وضعه من الرأسماليين. هذا ما رآه في فرنسا وجعله ينتبه إلى عمق الاستبدال الكبير. حتى المدن الريفية الصغيرة أصبحت مليئة بالغزاة. لم يعُد الأمر حصرًا على المدن الكبيرة. أدرك منذ الحين ضرورة أن يفعل شيئًا لوقف ذلك.

عليه أن يتزوَّد بالوقود من هذه المحطة. تنازل لا بد منه من أجل الاستبدال المعاكس.

أوقف سيارته أمام مزوِّد الوقود، ونزل وقد قرر أن يدفع بالبطاقة كي لا يضطر إلى أي تفاعل مع الرجل الذي في المحطة.

ثم تذكر أنه يحتاج إلى القهوة. فاضطر إلى الدخول واشترى مع القهوة شيئًا ليتناوله في الطريق. انتبه وهو يدفع إلى بطاقة التعريف المعلَّقة على سترة الموظف: عبد الجبار.

قال له موظف المحطة ونفس الابتسامة على وجهه: قُد بأمان. يوم سعيد.

سيكون بالفعل يومًا سعيدًا له. لكنه سيكون يومًا مرعبًا لك يا عبد الجبار. بعد ساعات سيأتيك البث المباشر بما سيجعلك تحزم حقائبك وترحل في أقرب طائرة إلى المرحاض الذي جئت منه.

قبل أن يحرِّك سيارته انتبه إلى أن المحطة تابعة إلى سلسلة محطات كُتب عليها BP 2GO.

بريتيش بيتروليوم[1] للذهاب.

سيحتاجون إلى بريتيش بيتروليوم للذهاب بالفعل. الذهاب قبل أن يحدث بهم ما سيحدث بعد ساعات، على يديه. هو سارق النار المقدسة. بروميثيوس المعاصر الذي سيحمي الحضارة الغربية من اندثارها وسقوطها على يد الغزاة. سيُعاقَب كما عاقبت الآلهة بروميثيوس الإغريقي، لكنه سيُعتبر بطلًا فيما بعد، بطلًا لكل الحضارة البيضاء لا لبلد معيَّن أو شعب معيَّن.

نعم آن أوان أن تحزم حقائبك يا عبد الجبار.

---

(1) **بريتش بتروليوم: (BP)** هي شركة طاقة متعددة الجنسيات مقرُّها المملكة المتحدة، تُعدُّ من أكبر شركات النفط والغاز في العالم، وتعمل في مجالات الاستكشاف والإنتاج والتكرير والتسويق والطاقة، ولها تاريخ طويل وتأثير اقتصادي وبيئي وسياسي عالمي.

غادر تيمارو، نصف الطريق إلى كرايستشيرش. يغمره الحماس أكثر فأكثر كلما اقترب من كرايستشيرش. لسنوات طويلة وهو يلعب الفورتنايت مع صديقيه الوحيدَين عبر الإنترنت. اليوم سيلعبها على الواقع. اليوم يخرج من العالم الافتراضي ليمارس الفورتنايت التي حلم بها. يكاد يشعر بالأدرينالين وهو يتدفق في عروقه. ليتك كنت هناك في كرايستشيرش يا عبد الجبار. ربما هناك شقيقك أو ابن عمك أو صديقك. وربما ستكون أنت في المرة القادمة، عندما يلعب أحد آخر الفورتنايت.

إلا إذا حزمت حقائبك ورحلت.

عاد في خياله إلى المُحاوِر وهو يسأله: ***نعرف أن ما فعلته أحدث تغييرات كبرى قادت إلى ما قادت إليه من رد فعل شعبي في أماكن كثيرة في العالم تقريبًا، على الأقل في ثلاث قارات بيضاء، لكن السؤال هو: كيف عرفت أن ذلك سيحدث؟***

- كنت واثقًا بحدوث ذلك. أعرف تمامًا أن كثيرين جدًّا يفكرون فيما فكَّرت فيه، لكنهم يعتقدون أنهم أقليَّة، وعندما يقوم شخص واحد، واحد فقط، بالفعل الذي يفكرون فيه جميعًا، عندها يتغير كل شيء، ويبدؤون هم أيضًا في الفعل ذاته. وهكذا شرارة واحدة، يمكنها أن تشعل نارًا كبيرة جدًّا.
- ***لكن كيف عرفت أن ذلك سيحدث؟ كيف كنت واثقًا؟***
- هذه ظاهرة معروفة في علم النفس، اسمها تأثير العربة، Bandwagon effect، أشخاص يركبون في عربة واحدة، تتجه إلى حافة الهاوية. الكل يفكر في أن يُسقط نفسه من العربة، لكنه يخشى ذلك، إلى أن يقوم شخصٌ واحدٌ بذلك، يرمي بنفسه من العربة، فينقذ نفسه من العربة المتجهة إلى الهاوية... عندها يقوم آخرون بتقليد الأمر... ويندلع الحريق من شرارة صغيرة.

- ***تتحدث عن ظواهر في علم النفس كما لو أنك تمتلك شهادة أكاديمية فيه، لكنك لم تنهِ دراستك، كيف ذلك؟***

- على العكس، ربما لو كنت درست العلم الأكاديمي لما استطعت أن أفكر في استثمار هذه الظاهرة باتجاه ما قمت به، لأن مؤسسات التعليم الأكاديمي كثيرًا ما تقوم بتدجين الدارسين لها بحيث تحوِّلهم إلى خصيان عاجزين عن أي عمل حقيقي.

- ***لكن ما فعلته تجاوز ظاهرة تأثر العربة إلى حدود السياسة الدولية، هل كنت مدركًا أيضًا ذلك؟***

- بالتأكيد، وهذه ظاهرة أخرى، تأثير كرة الثلج Snowball effect، وهي مرتبطة أيضًا بالأولى وناتجة عنها، ولكنها متأثرة أيضًا بحجم ما فعلته في البداية، والطريقة التي فعلته بها. لو كان ما فعلته قد حدث مع بضعة أشخاص فقط، ولو كان فعلي هذا، دون توضيح مني، دون شرح تفصيلي للأسباب، ودون تصوير لما فعلته، لربما كان قيل في وسائل الإعلام إنني شخص مختل نفسيًّا، وإن الحادث فردي، وسيمضي كما مضت أحداث مشابهة. لكني فعلت الأمر بحيث إن شخصًا واحدًا فقط، هو أنا، قتل أكثر من خمسين غازيًا في أقل من نصف ساعة، وصوَّرت الأمر بحيث يرى الجميع ذلك عبر البث المباشر، وأصدرت بيانًا موضِّحًا مفصَّلًا لما فعلته يقطع الطريق على أي احتواء يتحدث عن اضطراب نفسي مزعوم، وهكذا كان الأثر مختلفًا عن الحوادث المشابهة، أولًا بالحجم وثانيًا بالكيفية، التصوير، البيان المفصَّل.

- ***التصوير بالبث المباشر كان من أجل ماذا بالضبط إذن؟***

- كان من أجل إيصال رسالة بصرية للجميع ممن يشتركون معي في نفس المبادئ، ولكن يعجزون عن اتخاذ موقف. الأمر سهل

مثل لعبة فورتنايت تلعبها مع أصدقائك عبر الإنترنت. لا تحتاج إلى الكثير من المعدات أو التدريب. لا تحتاج إلى أن تكون رجلًا خارقًا، لكن أثر ما تفعله سيكون خارقًا للغاية.

- ***والبيان الذي وزعته، هدفه كان قطع الطريق على وسائل الإعلام التابعة للمؤسسات الحاكمة؟***

- بالضبط. لا يجب أن نسمح لهم بأن يرشونا بدعوى (الاضطراب النفسي) الذي يُخفف الحكم القضائي. لسنا مضطربين نفسيًّا. نحن أصحاب قضية. قضية عادلة. ويجب أن نفعل شيئًا من أجل ذلك.

هنا تخيل أن الجمهور الذي يحضر اللقاء سيقاطعه بالتصفيق الحاد. سينظر إليهم بنظرات متواضعة، يزداد التصفيق ثم يبدؤون في الوقوف له وهم يصفقون.

يتدخل المحاور وهو يظهر التأثر: ***فلنحاول أن نفهم كيف قُدر أثر كرة الثلج من الناحية الدولية؟***

- قُدر أن تقديم مثال صريح على تأثير العمل المباشر الذي قمت به سيكون مثل علامة على الطريق للمضي قدمًا لمن يرغبون في اتباعه. طريق لمن يرغبون في تحرير أراضي أجدادهم من قبضة الغزاة، لنخبرهم أنهم ليسوا وحيدين، هذا بدوره سيخلق جوًّا من الخوف والتغيير يُمكِّن من اتخاذ إجراءات جذرية وقوية تزيد من التوتر الاجتماعي الحاصل داخل المجتمعات البيضاء ويزيد الاستقطاب بحيث يحدث تغيير حاسم في حكومات الدول الأوروبية، وهذا بدوره يقود إلى إحداث شرخ بين دول حلف شمال الأطلسي (الناتو) الأوروبية والأتراك، الذين يُشكِّلون أيضًا جزءًا من قوات الناتو، مما يُحوِّل الناتو مجددًا إلى جيش أوروبي

موحَّد، ويُعيد تركيا إلى وضعها الحقيقي كقوة أجنبية معادية كانت ولا تزال تمثل الجزء الذي توغل في أوروبا تاريخيًّا وغيَّر من ديموغرافيتها، ولا يزال قادرًا على ذلك...

- ***إذن ترى أن تفكك الناتو سيكون النتيجة النهائية لما قمت به على صعيد السياسة الدولية؟***

- سيكون نتيجة، لكن ليست النتيجة النهائية. ستكون هناك نتائج أكبر بكثير، كثير منها يخص أمريكا.

- ***ماذا سيحدث في أمريكا نتيجة لما فعلته؟ مكتبة سُر مَن قرأ***

- هناك صراع قانوني قائم أساسًا داخل الولايات المتحدة حول امتلاك الأسلحة النارية، لكن هذا الصراع سيتحول بعد شرارة منتصف مارس ides of march التي قمت بها إلى انقسام سياسي واجتماعي وثقافي وعرقي داخل الولايات المتحدة. عنوان الصراع سيكون تعديل المادة الثانية للدستور ومحاولة إلغاء الحق في امتلاك السلاح الناري، لكن حقيقته ستكون أعمق بكثير وسيقود إلى حرب أهلية ستُقسِّم الولايات المتحدة على أُسس سياسية وثقافية، والأهم من ذلك، على أسس عرقية. لن يؤدي هذا التقسيم للولايات المتحدة إلى الفصل العنصري بين سكانها فحسب، مما يضمن مستقبل العرق الأبيض في قارة أمريكا الشمالية، بل سيضمن أيضًا زوال حلم «بوتقة الانصهار» الوهمي بين الأعراق والثقافات داخل أمريكا. علينا ألا ننسى أن الولايات المتحدة تدخلت بشكل سلبي جدًّا في أوروبا لصالح الغزاة المسلمين.

- ***تقصد تدخُّل حلف الناتو في كوسوفو أواخر التسعينيات؟***

- بالضبط. كان الصرب على وشك طرد المحتلِّين الغزاة من أوروبا، لكن الناتو، بقيادة الولايات المتحدة تدخَّل لصالح المسلمين، وقام

بذبح المسيحيين الأوروبيين. كان يكفي أن تقف أمريكا على الحياد لكي ينجز الأمر. لكن أمريكا تدخلت لصالح المسلمين. هذا يجب ألا يتكرر.

- ***رغم أني معجبٌ بما تقول ومقتنعٌ به، لكن اسمح لي أن أكون محامي الشيطان هنا، هل تعتقد فعلًا أن ما فعلته قد يقود إلى تغيير العالم؟ يتفكك الناتو؟ تنقسم أمريكا إلى أمريكا بيضاء وأخرى ملوَّنة بعد حرب أهلية؟ من السهل أن يقول أي شخص من الطرف الآخر إنك ربما تعاني جنون العظمة.***
- أفهم هذا. لكن هذه نظرة تغفل كيف يعمل التاريخ. هناك براميل من البارود في كل مكان. يحتاج إلى الأمر إلى شرارة واحدة فقط كي تنفجر، مقتل الأرشيدوق فرانز فرديناند[1] على يد الصربي «غافريلو برينسيب» تسبب في إشعال الحرب العالمية الأولى. زالت إمبراطوريات وتغيرت الخرائط بسبب هذه الحرب التي اشتعلت بفعل فرد واحد.
- ***وأنت قتلت الأرشيدوق؟***
- بكل فخر.

---

(1) الأرشيدوق فرانز فرديناند هو ولي عهد الإمبراطورية النمساوية-المجرية في مطلع القرن العشرين. اغتيل في سراييفو عام 1914 على يد قومي صربي، وكان اغتياله الشرارة المباشرة لاندلاع الحرب العالمية الأولى بسبب شبكة التحالفات والتوترات الأوروبية القائمة آنذاك.

الساعة 11:10 صباحًا

كان موعد غليندا في إدارة شؤون اللاجئين في الساعة الحادية عشر صباحًا. تصل قبل موعدها عادة. بل تشعر بالذنب والتقصير إذا وصلت في الموعد تمامًا. بالغت في وضع مسافة الأمان الاحتياطية بحيث أصبح الوصول إلى الموعد في الوقت المحدد أمرًا تشعر بالذنب تجاهه. بدأ الأمر معها عندما كانت لا تزال هيبية وكانت تقدم على وظائف من أجل العمل بشهادة الثانوية، كان يُحكم عليها من خلال منظرها الهيبي فيُعتقد أنها ستكون منفلتة في المواعيد وبعيدة عن الانضباط. لكنها كانت تحتاج إلى المال وحاجتها هذه جعلتها تتنازل عن شعارات التحرر من العبودية للمؤسسات التي كانت تخطب عنها، على الأقل فيما يتعلق بساعات العمل.

لاحقًا، عندما جاءت غلوريا، قررت أن تلتحق بكلية التعليم لتزيد فرصها بالحصول على وظيفة ثابتة توفر لغلوريا حياةً أكثر استقرارًا، تخلَّت بالتدريج عن المظهر الهيبي، وكانت الهيبية قد بدأت تنحسر، ولم تنتهِ السبعينيات من القرن العشرين إلا وغليندا قد أصبحت معلِّمة في مدرسة ابتدائية في كرايستشيرش، مثالًا للانضباط في الوقت، وأقل من ذلك بكثير في بقية الأمور. إذ أورثتها الهيبية تمردًا على المناهج التعليمية التي كانت لا تزال وقتها شديدة المحافظة بتأثيرات مباشرة من التعليم البريطاني في العصر الفيكتوري -كما كانت غليندا تقول بسخرية- كانت تحاول بقدر ما تستطيع أن تخرج الأطفال إلى الطبيعة، تحوِّل مادة الدرس إلى حوار فيما بينهم وتشجع الاختلاف في فهم

المعلومات. كان ذلك قبل سنوات من التغيُّر الذي حدث في المناهج لاحقًا وجعلها أكثر تفاعلًا وتشجيعًا على الحوار والاختلاف.

مرَّت دقائق على الموعد دون أن يأتي الموظف الذي يستقبلها عادة. كانت تنزعج سابقًا من ذلك، تأتي قبل الموعد وتتوقع أن يلتزم الآخرون بالموعد. ليس التقدم في العمر وحده هو الذي غيَّر ذلك، بل ما قالته لها صديقتها شادية في المركز الإسلامي، قالت لها أن تتعامل مع أوقات الانتظار هذه باعتبارها نعمة من الله سبحانه وتعالى. وقت فراغ مستقطَع لها يمكن أن تسبِّح فيه وتمجده. قالت لها أن تسبِّح الكريم الصبور. لأنه كان كريمًا بهذا الوقت، والصبور لأنه سيلهمك الصبر في هذا الانتظار. أعطتها شادية كتيِّبًا صغيرًا عن الأسماء الحسنى لله ومعانيها وكيف تُلفظ بالإنجليزية. أخبرتها أن تختار منها ما يناسب الوضع النفسي الذي تمرُّ فيه لكي تسبِّح لله من خلالها. العليم الحكيم عندما تكون في تردٍ وشكٍّ. القوي العزيز عندما تكون في ضعف. الغني الحميد عندما تكون في حاجة وعوَز. وهكذا... كان لهذه التفاصيل أثر كبير فيها. أحدثت فرقًا كبيرًا معها. لا في لحظات الانتظار والوقت المستقطَع هنا وهناك كما تصورت أولًا. بل امتدَّ تأثيرها إلى باقي حياتها اليومية. أصبحت أكثر هدوءًا واتزانًا واتساقًا مع ما يحدث. ليست متأكدة من أن ذلك بسبب هذه التسبيحات التي علَّمتها لها شادية، أو بسبب الإيمان عمومًا، أو بسبب خبرة العمر المتراكمة، أو ربما كل ذلك. لكن هذا ما حدث معها، وأصبحت تشغل نفسها بأي تأخير يحدث بهذه الطريقة، وهي سعيدة بذلك.

- مس تومبسون؟

لم تتوقع غليندا صوت سيدة. عادة يستقبلها ستيوارت مسؤول ملف المنظمات الخيرية تعرفه منذ عشر سنوات على الأقل. لكن اسمها كان

يُنادى من قِبل سيدة تراها لأول مرة. أربعينية ماورية[1] الملامح مع ابتسامة عريضة.

نهضت غليندا وسارت إلى المكتب مع السيدة.

- أين ستيوارت؟ كنت أعتقد أن مقابلتي ستكون معه.

- ستيوارت غادر منذ شهر. تصورت أنه أرسل بريدًا إلكترونيًّا وداعيًّا إلى الجميع، أنا سأكون بديلة عنه، اسمي مايزي مانيبوتو.

نظرت إلى غليندا مطوَّلًا وهي تقول اسمها.

- لا، لا أعتقد أني استلمت شيئًا منه. على أي حال أهلًا وسهلًا بكِ مس مانيبوتو.

- مايزي رجاءً.

- أهلا بكِ يا مايزي.

بقيت مايزي مبتسمة وهي تنظر إلى غليندا ثم قالت لها: لم تتذكريني؟ تعمَّدت أن أقول الاسم كاملًا على أمل أن تتذكريني.

مايزي مانيبوتو؟ من تكون؟ لا تذكر هذا الاسم. لا تزال ذاكرتها قوية لكن لا. لا تذكر الاسم.

- كنتِ مدرِّستي في مدرسة آدنغتون الابتدائية. عام 1982. تذكَّرتكِ بمجرد أن قرأت الاسم وتأكدت عندما رأيتك.

---

(1) الماوريون: هم السكان الأصليون لنيوزيلندا، وتنحدر أصولهم من شعوب بولينيزيا في جزر المحيط الهادئ، حيث وصل أسلافهم إلى الجزر النيوزيلندية قبل نحو سبعمائة إلى ألف عام. طوَّروا عبر القرون ثقافة خاصة تقوم على الانتماء القبلي، والأنساب، والتقاليد الشفوية، ولغتهم الخاصة المعروفة بالماورية، إضافة إلى طقوس ورموز مميزة مثل رقصة «الهاكا». ويُعدُّ الماوريون اليوم جزءًا أصيلًا من المجتمع النيوزيلندي الحديث، مع اعتراف رسمي بثقافتهم ولغتهم بوصفها عنصرًا من هوية البلاد.

- يا للصدفة الحسنة! قضيت سنة واحدة في تاماركي. آمل أني كنت مدرِّسة لطيفة، تلك الأيام كانت لا تزال هناك عقوبات عجيبة. لا أذكر إني استخدمت شيئًا، لكنها كانت أيامًا مختلفة تمامًا.
- لم تكوني مدرِّسة لطيفة..... لقد كنتِ رائعة، لا لطيفة فحسب.

همست غليندا مع نفسها: الحمد لله. ثم قالت: لقد صدقتكِ أولًا وكنت على وشك الاعتذار عن أي شيء أزعجك وأنتِ طالبة وكنت متأكدة أن الطلب الذي أريد أن أناقشه قد رُفض تمامًا، شكرًا على الإطراء.

- لم يكن إطراءً مس غليندا. لقد غيَّرتِ حياتي. أعني ذلك تمامًا. وكثيرًا ما كنت أتذكركِ، لكني انتقلت من كرايستشيرش بعد الثانوية ولم أعُد إلا الآن.
- كيف غيرت حياتك يا مايزي؟ أثرتِ فضولي.
- كنت الماورية الوحيدة في الفصل. الجميع كانوا بيضًا. وأعتقد أنكِ لاحظتِ عزلتي، وتوقعتِ وجود تنمر عليَّ بسبب ذلك. لم تتركي فرصة إلا وذكرتِ ثقافة الماوريين وكيف أنهم كانوا السكان الأصليين قبل وصول البيض، رغم عدم وجود إشارة إلى ذلك في المناهج الدراسية في تلك الفترة، تعرفين، التغيير في المناهج جاء لاحقًا، قبل ذلك كنَّا تقريبًا أشباحًا غير مرئية، لا نُذكر إلا مع قصص الأساطير المسلية.
- نعم أذكر تلك الفترة بالتأكيد. لكن الأمور تغيرت بعد ذلك بفترة قصيرة.
- ما غيَّر حياتي لم يكن ذكر الماوريين فقط، بل في مرة جعلتِ كل من في الفصل يشكرني شخصيًّا، قلتِ لهم أجدادكم كانوا ضيوفًا

عند أجدادها، عليكم أن تشكروها على حسن الضيافة، وردَّد الجميع كلمات الشكر لي.

عاد المشهد إلى ذاكرة غليندا فجأة. قامت بذلك بالفعل مرتين أو ثلاثًا.

- في الحقيقة، كنت أريدهم أن يعتذروا على ما فعله أجدادهم بأجدادكِ، لا أن يشكروهم. لم يتصرفوا كضيوف كما تعلمين، لكن هذا حدود ما كان مقبولًا في تلك الفترة.
- كان ذلك أكثر من كافٍ بالنسبة لي، لو كان صدرَ عن مدرِّسة ماورية، أو كان جزءًا من المنهج المقرَّر، لربما كان أثره مختلفًا. لكن لأنه صدرَ عن مدرِّسة بيضاء طواعية، كان أثره كبيرًا جدًّا فيَّ، في ثقتي بنفسي ورؤيتي لها. شكرًا لكِ.
- مسرورة لأني فعلت الشيء الصواب في الوقت الصواب، لكنه كان واجبي، ما دمت أعرف، كان يجب أن أفعل شيئًا.

هزَّت مايزي رأسها مع نفس الابتسامة ثم قالت وهي تشير إلى غطاء الشعر على رأس غليندا: أرى أنكِ لا تزالين تبحثين عن طريقك... إن جاز لي أن أقول.

قالت غليندا: الحمد لله، بالعربية، ثم قالتها بالماورية Whakamoemiti ki te Atua.

قالت مايزي: أتمنى لكِ كل خير، فلنرجع الآن إلى ملف المنظمة.

ارتدت نظارتها الطبية ونقرت على لوحة الحاسوب أمامها. تغيَّر شكلها فورًا من طالبة المدرسة الابتدائية الممتنة للمدرِّسة التي غيَّرت حياتها إلى الموظفة الجادة الملتزمة بالتعليمات.

- هناك أمر أحببت أن أعرفه بعد أن راجعت الملفات المالية للسنة الماضية، هناك تبرعات لا يبدو واضحًا مصدرها، ليست كبيرة ككميات مفردة، لكنها متكررة، وعندما تتراكم فحجمها يكبر بالتأكيد.
- هذه مشكلة حقيقية يا مايزي، تحدثنا مطوَّلًا مع ستيوارت بشأن ذلك، بعض المتبرعين من المسلمين يعتقدون أن أجرهم سيقلُّ عند ذكر الاسم. يفضِّلون أن يبقى سريًّا لكي يزيد أجرهم.

نظرت مايزي من فوق نظارتيها: أجرهم يقلُّ؟ أي أجر؟ من يعطيهم الأجر؟

- آسفة، كان يجب أن أشرح، عند المسلمين كل ما يفعلونه من خير في الدنيا، سيُردُّ إليهم في الآخرة، ويسمُّون ذلك الأجر، ولكنهم لا يقصدون شيئًا ماديًّا، بل يقصدون مكافأة من عند الله في الحياة الأخرى.
- ولماذا يقلُّ الأجر إن كشفوا عن أسمائهم؟
- يعتقدون أن ذلك قد يعني الرياء أو التباهي بالتبرع أمام الناس، ولهذا يفضِّلون أن تبقى أسماؤهم مجهولة.
- هل كان ستيوارت على علمٍ بهذا الأمر؟
- نعم بالتأكيد. سأل نفس الأسئلة منذ أن تسلَّم الملف.
- قبل ثماني سنوات؟
- نعم، تقريبًا.

بانت عليها الدهشة ثم قالت: هل تقصدين أن هناك تبرعات مجهولة المصدر متراكمة في هذه الملفات منذ ثماني سنوات.

سكتت غليندا لثوانٍ ثم قالت: أعتقد أكثر من ثماني سنوات.

- لا يمكن لهذا أن يستمر، ولا علاقة لي بمعتقدات المتبرعين الدينية، أستغرب موقف ستيوارت. سأكلِّمه لاحقًا لأفهم كيف يمكن أن نخرج من هذه الورطة. هل تعرفون المتبرعين شخصيًّا؟
- لو سلَّموا التبرع باليد ربما نذكرهم بالنسبة للفترات القريبة، لكن لو وُضعت في صندوق التبرعات لا يمكن معرفة ذلك.
- سأعيد تقارير السنة الأخيرة على الأقل، يُرجى سدُّ هذه الثغرات في أقرب فرصة.

سكتت غليندا، كانت تريد أن تفتح موضوعًا يخص محمد إيهاب لكنها شعرت بأن الجو متوتر.

- شيءٌ آخر، بالنسبة لكفالة اللاجئين، قريبًا يجب أن يثبت الكفيل قدرته على الكفالة لمدة عامين لا عامٍ واحد.
- بأثر رجعي؟
- لا بالتأكيد. بخصوص طلبات اللجوء الجديدة أو التي قُدمت من تاريخ محدد سيتم تحديده، لكن بالتأكيد ليست التي وصلت إلى مراحل متقدمة من التدقيق.

وجدت غليندا فرصتها هنا.

- كنت أريد أن أسألكِ بخصوص طلب جديد. محمد إيهاب جاء عن طريق منظمتنا، وكنت كفيلته شخصيًّا، شابٌّ في السادسة عشر تقريبًا عندما جاء. والآن لديه وظيفة. وهو بصدد أن يقدم دعوة لشقيقه، لكي يحصل على لجوء أيضًا.
- هل تجاوز الثامنة عشر، وحصل على الإقامة الدائمة؟
- نعم، نعرف أن عمره مقبول من الناحية القانونية، ولكنه سيُعتبر راعٍ ضعيف أو غير مستقر، هو في التاسعة عشر، ولا يزال يدرس

بشكل جزئي ويعمل في ذات الوقت ولكنه لم يثبَّت في عمله بشكل رسمي. يمكننا كمنظمة دعم طلبه والتكفل بأخيه، ولكن ستبقى هناك مشكلة العدد المحدود من قبول هذا النوع من طلبات لمِّ الشمل.

- صحيح، لا يمكن ضمان قبول الطلب. ومن المؤكد أن مقدِّمي الطلبات الأكثر استقرارًا ستكون لهم الأولوية... والعدد محدود بالفعل.

ثم أزالت نظارتها، عادت فورًا إلى ملامح الطالبة الممتنة لمدرِّستها التي غيَّرت حياتها كما لو أن شخصية الموظفة كانت ملتصقة بالنظارة.

- أرى بوضوح أن الأمر مهم بالنسبة لكِ على المستوى الشخصي.
- نعم، أيُّ أحد لو عرف التفاصيل سيكون مهتمًّا على المستوى الشخصي.
- أفهم ذلك. مهما كنَّا ملتزمين باللوائح والتعليمات، يبقى هذا الجانب الشخصي مؤثرًا على قراراتنا، المشكلة أن للكل تفاصيلهم، وكلها مهمة.
- لو أنكِ سمعت التفاصيل لفهمتِ ما أقصد.
- لن أسمع الآن، لكن لو جاء الملف إليَّ حسب السياقات الاعتيادية، فأنا أعدكِ بأني سأسمع كل شيء، وسآخذ رأيك ودعمك بنظر الاعتبار.

ثم قالت: هذا وعد مني. عندما يصل الملف.

فور خروجها من المكتب أمسكت هاتفها وأرسلت رسالة إلى محمد إيهاب: هل قدَّم أخوك على طلب اللجوء؟

وانتبهت لوصول رسالة أخرى من نادية.

الساعة 11:42 صباحًا

(لماذا لا يردُّ عليَّ أحد منكم؟ هل وصل أمجد إلى لبنان؟ يُفترض أنه وصل الآن. لكن لا أحد يردُّ عليَّ منذ ثلاثة أيام. قلبي يغلي هنا وأنتم في عالم آخر. ماذا فعل أمجد؟ يجب أن يقدِّم على مفوضيَّة اللاجئين بأسرع وقت. يوم الإثنين يجب أن يذهب).

أرسل محمد إيهاب إلى أخته شيماء بعد أن يئسَ من رد أمجد.

منذ ثلاثة أيام توقف أمجد عن الرد بعد أن اتفقا على كل تفاصيل تهريبه إلى لبنان. دفع محمد إيهاب نصف التكاليف إلى المهرِّب فعليًّا، والباقي بعد أن يصل إلى لبنان بسلام. يُفترض أن يكون وصل الآن. لكنه لا يردُّ.

أرسل هذا بعد أن أنهى تنظيف أرضية المذبح من الدم والدهون وشطفها عدة مرات. وصوله المتأخر إلى المسلخ قوبل بتقطيب جبين ونظرة غاضبة من نعيم خان -صاحب المسلخ- قال له إن ذلك سيُخصم من أجره وأشار إليه أن ينظف أرضية المذبح. أدرك محمد إيهاب منذ البداية أن نعيم خان يريده على الكاونتر الأمامي، يتحجج بالتأخير ليخصم من أجره، لكنه يعرف أن فاعليته الحقيقية ليست في الخلف حيث الذبح والتنظيف والتعامل مع أشلاء الحيوانات الذبيحة، بل مع الزبائن من البشر. رأى نعيم خان أثره في الزبائن العرب فورًا، فأدرك أن مكانه ليس في الأعمال التي تؤدَّى مبكرًا قبل مجيء الزبائن، بل مكانه على منصة خدمة الزبائن حيث يقول للزبونة (شو الطبخة اليوم مدام؟)

(تكرم عينك) أو(على راسي) و(مأكول العافية). فتسري الكلمات واللهجة مثل المخدر في عروق الزبائن العرب. خبرة لفظية وذوقية في التعامل اكتسبها محمد إيهاب في التعامل المباشر منذ أن وضعه والده في سوق العمل قبل أن يتمَّ العاشرة من عمره، أولًا في سوق الجمعة في حي الشيخ محيي الدين، ثم في الصالحية، ثم الحميدية، وأخيرًا سوق الخجا. لاحظ صاحب المسلخ الباكستاني هذه القابلية وهذا التأثير منذ الأسبوع الأول، ولاحظ أن عدد الزبائن العرب في الشهر الأول لوجود محمد إيهاب قد ازداد، وربط ذلك بوجود (السوري) الصغير صاحب العينين الملوَّنتين. فهم محمد إيهاب أن صاحب المسلخ نعيم خان قد لاحظ ذلك وسأله عن الكلمات التي يقولها للزبائن، لكنه لم يعلِّق بشيء لاحقًا غالبًا كي لا يكبر رأس محمد إيهاب ويطالب بزيادة في الأجر، وأصبح هناك نوع من الاتفاق الصامت غير المعلَن عنه، إذا تأخر يكتفى بنظرة غاضبة وبالخصم عن التأخر في الحضور، ولو كان دون هذا الأثر في الزبائن لطرده في ثاني تأخير على الأغلب.

بينما محمد إيهاب يقطع اللحم، تذكَّر فجأة أن المهرِّب لم يتصل به ليطلب تحويل باقي المبلغ. كان قد رتب كل شيء عند صديق له في بيروت. لكن هذا الصديق ينتظر مكالمة منه. زاد قلقه. شعر بالحكة تزداد في وجهه. منذ الصباح وهي تلاحقه كالحريق. والآن يشعر بها أنها قد زادت لمجرد هذا الخاطر. انتظر أول فرصة ليخلع قفازه ويرسل رسالة إلى المهرِّب على الواتس.

- كيفك معلِّم إن شاء الله بخير؟

كلمة (متصل) تظهر على أعلى الشاشة، بجانب اسم المهرِّب كما سجَّله محمد إيهاب: أبو طلعت مهرِّب لبنان 3.

ثم أخذ يكتب...

- هلا.

شعر محمد إيهاب بأن هذا الرد فيه جفاء غير معتاد من شخص ينتظر استلام باقي أتعابه. ثمة شيء خاطئ.

يرسل إليه سؤالًا عامًّا عن الأحوال: كيفك إن شاء الله كل شيء بخير؟

المهرِّب يسجل رسالة صوتية.

صوت أبي طلعت مهرِّب لبنان 3 يبدو غاضبًا في الرسالة: إن كنت تتصل لتسترجع المقدَّم فانسَ الأمر. أخوك هو الذي تراجع قبل ساعاتٍ وكنت قد أعددت كل شيء ودفعت لرجالي على الجانبين.

أخي تراجع؟ لم يكترث محمد إيهاب لتعليمات عدم إجراء اتصالات في أثناء العمل وانزعاج نعيم خان الشديد من ذلك، اتصل فورًا بالمهرِّب.

فهم منه بينما هو يحاول أن يتمالك أعصابه والدنيا تدور به أن أمجد اتصل به قبل ساعات من الموعد المحدد وأخبره أنه لن يأتي ولم يذكر أي سبب. لم ينسَ المهرِّب أن يذكر أن التهريب الذي يقوم به (شغل نظيف) و(نظامي) وأنه أدَّى ما عليه ولذلك فالمقدَّم لا يُسترد.

لا يعرف ماذا قال للمهرِّب. وجد نفسه يرسل رسالة غاضبة مليئة بالشتائم إلى أمجد. غبي، حمار، حقير. ثم حظره. ثم فك الحظر. وأرسل رسالة أخرى بشتائم من مستوى آخر. وحظره أيضًا. أرسل رسالة إلى أخته شيماء. شتائم على أمجد وعليها أيضًا لأنها تستَّرت عليه. جاءت زبونة مصرية. تمكَّن بصعوبة من أن يضع القناع الشامي على وجهه ولسانه. شو الطبخة اليوم يا مدام. فتة باللحمة الضاني. ثلاثة كيلو. تكرم عينك. لكن ضربة الساطور في يده كانت مختلفة. كما لو كان يفرغ غضبه في اللحم. لا يعرف إن كان غاضبًا من أمجد الجبان الغبي لأنه نكل بالاتفاق وأضاع الفرصة أم لأنه سيحرجه أمام غليندا التي

ترتب موضوع لمِّ الشمل أم لأنه أضاع المقدَّم الذي دفعه للمهرِّب، أم لأنه وشقيقاته اتفقوا جميعًا على عدم إخباره، أم على من يدعو ليل نهار بلعن روحه الذي تسبب بكل هذا.

زبونان هنديان. لحمة جاهزة مقطعة ببهاراتها وقاسية قليلًا. صار يعرف طلبات كل زبون بمجرد أن يراه. لا يحتاج إلى أن يستخدم كلمات الترحيب الشامية مع غير العرب. مع الهنود يبتسم ويهز رأسه ويجعلهم يتأكدون من دقة الوزن. المصريون يريدون اللحمة طريَّة. العراقيون يريدونها دسمة بدهون عالية، طريَّة للقوزي وبفرم ناعم جدًّا للكباب. الباكستانيون يريدون قطع اللحم كبيرة، والأفغان يعشقون لحم الغنم النيوزيلندي. لا يناقش شيئًا مع السوريين، بل يتركهم يعطونه إرشادات أولًا بأول. قبل أن يبدأ العمل لم يكن يعرف شيئًا عن الجزارة، بل كان يقرف من مجرد فكرة العمل في مسلخ. لكنه تعلَّم كل شيء بسرعة. قالت له أم براء الزبونة العراقية الدائمة التي يتوقع مجيئها الآن في أي لحظة، إن السوريين عندما يقعون فإنهم يقعون واقفين على أرجلهم. ربما لم تقصد تشجيعه وكانت تقول ما تراه فعلًا، لكن كان للكلمة وقعها الخاص عليه. اللهجة العراقية فيها قوة تزيد من قوة الكلمات. لاحظها أيضًا في زبونة عراقية أخرى، خطَّاطة ورسَّامة بالخط شهيرة اسمها جنة. يأتي معها أحيانًا ابنها حسين. يُذكِّره بأحد ما لكن لا يعرف من.

وجد فسحة من الوقت فأخذ هاتفه وأرسل رسالة إلى أخته هديل. نفس الغضب في الرسائل الأخرى. ألا يفكر أحد فيه؟ هل يعتقدون أن الخمسمئة دولار التي ضاعت عليه مع المهرِّب أمر سهل؟

أراد أن يحظر الجميع عقابًا لهم. يعتزل كل شيء ويتركهم يقلقون عليه لأيام. لا. لأسابيع. لأشهر. لن يستطيع أن يفعل ذلك. قلبه أرقُّ بكثير

مما يبدو عليه. من يعرف ماذا كان يفعل في المظاهرات لا يتخيل أبدًا رقة قلبه. لكن كل نقاط ضعفه تجمعت هناك في قلبه.

قبل أن يحظر أحدًا جاءه اتصال من شيماء. سيرفع صوته حتمًا لذا نزع قفازاته وغطاء رأسه وخرج من الباب الخلفي للمسلخ. فليطرده نعيم خان إن شاء. طز.

قبل أن يقول أي شيء جاءه صوت شيماء: حمودة، لا فائدة مما تفعل أو تقول.

هناك شيء حاسم في صوتها.

- ماذا تعنين؟

- أمجد لن يسافر يا حمودة. لم يؤجل أو يتراجع خوفًا من شيء. لن يسافر.

- ماذا تعنين؟

- لقد التحق بالجيش أمس.

الجيش؟! جيش النظام؟

شعر محمد إيهاب بالحريق في جسده كله. شعر بالنار حرفيًّا تلتهم جسده. كما حدث لوالده يوم صار ما صار. لا يعرف حتى الآن إن كان ذلك قد حدث قبل أن يقتلوه أم بعد ذلك. لن يعرف أحد. إلا من فعل ذلك.

جيش النظام.

- ماذا تقولين؟ التحق بالجيش؟ الجيش الذي فعل ما فعل؟

- نعم يا حمودة. ما حدث قد حدث. مهما قلت لن يتغير شيء الآن.

- كيف تركتموه يفعل ذلك؟ كيف وافقتموه على ذلك؟

لم تردَّ.

لم يوافقوا على ما فعله فقط. بل ربما شجعوه وأقنعوه.

- انتهت كل فُرصه الدراسية في تأجيل الالتحاق في الجيش. لا نريد أن يعتقل عند الحدود. ماذا تريد يا حمودة؟ أن نخسره بعد أن خسرناك؟

سيجعلها تندم على هذا.

- نعم. بقيَ لكم أمجد فقط. لن أتحدث معكم أبدًا بعد الآن. تتركونه يلتحق بالجيش؟ كل شيء حدث بينما هو على بعد أمتار. ثم يلتحق بهم.

- حصلنا على وعد بأنه سيكون في المطبخ فقط، وفي الشام، لن يكون في...

قاطعها: أخبري الـ (...) إنه بلا ناموس. وإنه لن يسمع صوتي أبدًا. وإنه إن مات سيكون(....). ليس شهيدًا مثل أمه وأبيه. وكرر الكلمة التي قالها مرتين.

أغلق الهاتف قبل أن تقول أي شيء.

عاد وكان نعيم خان يقف أمام الباب. إن قال أي شيء له عن خروجه من المسلخ دون إذن سيضربه. لم يقُل شيئًا كما لو أنه شعر بأن ثمة شيء خطِر قد حدث وبأنه من الأفضل أن يسكت.

وجد أم براء تقف أمامه. حاول أن يرحِّب بها فلم يجد صوته. كل ما فيه كان يشتعل الآن.

نظرت إليه أم براء بتمعُّن كما لو كانت تقرأ شيئًا مكتوبًا على وجهه.

قالت له: ابني إيهاب، هل هذه نوبة صدفية؟

لم يسبق لأحد أن انتبه لها قبل اليوم هنا في نيوزيلندا. حتى غليندا لم تنتبه. أم براء هي أول من ينتبه. هل النوبة هذه المرة واضحة لهذه

الدرجة؟ أم أن أم براء دقيقة الملاحظة؟ يعرف أنها تدقق في كل غرام من اللحم الذي تشتريه كما لو كانت ستناسبه لا ستطبخه، لكن يبدو أنها كذلك في كل شيء.

هزَّ رأسه محرجًا. شعر كأن كل جروحه أصبحت مشاعًا علنيًّا أمام الناس، أو على الأقل أمام أم براء.

كان يشعر أحيانًا بالحاجة إلى الشرح أنه ليس مرضًا معديًّا لكي يخفف من قلق الناس من حوله. لكن أم براء تعرف ما يكفي ما دامت ميَّزته فورًا.

قالت له: أعانك الله. أمي كان لديها أيضًا. أُصيبت به على كبر، كانت تعاني جدًّا.

لم يردَّ. هو أيضًا يعاني.

قالت له أم براء باهتمام: هل تعرف محل باسكت بنغال؟ الذي في شارع كلارنس؟ عارف البنغالي لديه وصفات ممتازة للصدفية، كنت أُرسل إلى أمي منها وقالت إنها أفضل ما استعملته. الله يرحمها.

ردَّد معها: الله يرحمها.

ثم قال: المعتاد ليوم الجمعة؟

ردَّت أم براء: المعتاد، الله يعدي هذه الجمعة على خير.

الساعة 12:01 ظهرًا

أعادها وجه محمد إيهاب المليء بحمرة طافحة وقشور طازجة إلى وجه أمها وقد أُصيب فجأة بما يشبه ذلك، ولكن أسوأ بكثير.

ثالث أيام العزاء، مالت عليها جارتهم أم مصطفى وهمست في أذنها: آلاء. أمكِ ليست بخير. انظري إلى وجهها. يمكن لآلاء أن تقسم على أن الأمر حدث خلال دقائق، قبل قليل كانت تتحدث معها. طلبت منها أن تُخرج المدفأة من الصالة لأنها تشعر بالحر. كان وجهها طبيعيًّا بقدر ما يكون الوجه طبيعيًّا بعد ثلاثة أيام من البكاء. على العموم لم يكن بكاء أمها موافقًا لمواصفات الأرملة العراقية النموذجية التي يُنتظر أن تقدم العويل كمكافأة نهاية خدمة بعد وفاة زوجها. بل كان بكاؤها أقرب إلى أنين مكتوم لطفل في الميتم أخذوا شقيقه وتركوه. كانت تبكي صديق العمر أكثر من الزوج الذي يجب أن تعبِّر عن وفائها له بالبكاء أمام الجيران والأقارب. بل إن آلاء اعتبرت أن أمها لم تستوعب ما حدث بعد، وأن البكاء والحزن الحقيقي سيأتي لاحقًا. أخبرت ذلك أسماء في هاتف صباح نفس اليوم، قبل أن تظهر العلامات الأولى للصدفية مساءً. كانت آلاء وحدها مع أمها في كل ذلك. أسماء وأسيل لم تصلا إلا في اليوم التالي. وتوسلت أمها بأسعد وأحمد ألا يأتيا. بدأ الأمر بنقاط حمراء في الرقبة والوجه مع شعور منهِك بالحرارة، وحكة شديدة كانت أمها تحاول أن تكبحها بسبب وجود الناس حولها في العزاء. كانت آلاء تضع لها المراهم المرطبة العادية وكريمات الالتهابات. بعد أيام ظهرت طبقة قشرية واضحة. هذا ليس التهابًا عاديًّا. شرح طبيب الجلدية لهما الأمر.

هذه صدفية قطرية من نوع سريع تحولت إلى صدفية قشرية، وسببها غالبًا يعود إلى حدوث صدمة نفسية.

سأل: هل تعرضت الحاجة لصدمة مؤخرًا؟

نظر إليها وإلى أمها وأدرك غباء سؤاله فورًا. سيدتان متشحتان بالسواد الكامل، بينما العاصمة تشهد العثور على أكثر من خمسين جثة مجهولة الهوية كل يوم. ماذا يمكن أن يكون الأمر مثلًا؟

لم ينفع شيء في إيقاف المرض. ظل ينهش في جسد أمها حتى عزلها عن العالم، لم تعُد ترغب في أن يراها أحد وهي على هذا الشكل. لم تغادر آلاء العراق إلا بعدما تركتها عند أسيل في عمان، ولعشر سنوات لاحقة لم ترَها إلا مرتين، عندما زارتها في عمان، في الزيارة الأخيرة كانت الصدفية قد توقف تمددها على جلدها، ولكن الآلزهايمر استولى على ذاكرتها. جلست آلاء قربها واحتضنتها، رحَّبت بها أمها وردَّت السلام بحرارة أفرحت آلاء. لقد تذكرتها! قلب الأم ذاكرتها التي لا يتمكن منها الآلزهايمر اللعين.

لكن الفرحة لم تدُم أكثر من لحظات، التفتت لها أمها وسألتها: كيف هي أمك؟ لماذا لم تأتِ معك؟

وصفات عارف البنغالي كانت تريحها أكثر من أي مرهم آخر. كانت ترسلها بالبريد ومتى ما عرفت أن هناك من يسافر إلى عمان. آخر ثلاث علب استلمتها من عارف بعد أن عادت من عزائها. لم تلحق خروجها من بيت أسيل ولا الجنازة. فقط العزاء. جلست مثل الغريبة بين صديقات ومعارف أسيل. قالت أسيل شيئًا غريبًا وهي تبكي في العزاء. قالت: لن يُدفَن أي أحد منَّا بجانب الآخر. أبي في بغداد. وأمي في عمان. وأولادهما كلٌّ في قارة.

بعد انفضاض المجلس سألتها آلاء: ماذا تقصدين؟ لماذا أمي تُدفن وحدها في عمان؟ أين تنوين أن تُدفَني؟

رفعت أسيل حاجبيها بدهشة وسألتها: سأُدفَن في القبور السود يا آلاء. ماذا تريدين مني؟

- أسألكِ بجدية، لماذا قلتِ هذا؟

- تعرفين أننا قدمنا منذ سنوات طويلة على الهجرة إلى كندا. ماطلنا في التنفيذ لأن أمي معنا. الآن سنذهب يا آلاء، سأُدفن في القبور السود المتجمدة في كندا.

ردَّت آلاء دون أن تفكر تقريبًا: وتبقى أمي وحدها في مقبرة سحاب؟

- الله أكبر يا آلاء. بقيتُ عشر سنوات مع أمي. سافرتِ أنتِ وحصلتِ على الجنسية وأسستِ عملك وألف ما شاء الله عليك. لم تسأليني يومًا واحدًا إن كنت بحاجة إلى مساعدة مع أمي من أي نوع. أسماء وأسعد وأحمد لم يقصروا. الشهادة لله. لكن أنتِ لم تسألي ولم تفعلي أي شيء. لا ماديًّا ولا معنويًّا ولا شيء. لا سألتِ عن تكاليف العلاج ولا عن راتب الشغالة التي جلبتها إليها. واليوم تريدين أن أبقى لأموت وأُدفَن في نفس المقبرة. من أي شيء خلقكِ الله يا آلاء؟ حرامٌ عليكِ.

وانفجرت تبكي.

وانفجرت آلاء تبكي معها. أسيل محقة تمامًا. لا شك في ذلك. كل ما قالته كان صحيحًا. لكن آلاء لم تره بهذا الشكل. هذا كل شيء.

ما قالته عن مقبرة سحاب كان بسبب أنها تذكرت شيئًا قاله والدها منذ عقود، كانوا صغارًا كلهم، في السبعينيات، اشترى قطعة أرض لتكون مدفنًا للعائلة ضمن مقبرة الكرخ. قال والدها يومًا إن الدفن فقط

لأفراد العائلة. أراد أن يبقوا جميعًا معًا بعد موتهم. تذكّر أيضًا أنه قال مازحًا: الأنسباء لا يُدفنون هنا. البنات فقط دون أزواجهن. زوجتا أسعد وأحمد يمكن أن يُدفنا معنا.

لم يكن أحد في سن الزواج أصلًا، لا أنسباء ولا كنّات. ولكنه قال ذلك للمزاح فقط. الأب الحنون الذي يريد أن يبقى خيمةً على أولاده حتى بعد موته وموتهم... لكنه دُفن وحيدًا في مدفن العائلة، وآلاء الوحيدة التي كانت لا تزال في العراق آنذاك، غادرت العراق ولم يأتِ أحد منهم بعدها. لم يبقَ قبره وحيدًا فحسب، بل لم يزُره أحد في قبره. ولا في السنة مرة.

لاحقًا استأذنت أم مصطفى أن تدفن مصطفى في مدفنهم. راح في تفجير انتحاري من الذي ينفذه متعاطو المخدرات، وصار لأبيهم أنيسٌ يجاور قبره. أنيس بينهما أجيال في العمر. ولكنه أنيس على كل الأحوال.

كيف وصلت آلاء إلى كل هذا؟ صدفية محمد إيهاب. وعلب الصدفية التي استلمتها من عارف البنغالي بعد وفاتها. لا تزال هناك على الرف. أكيد لم تعُد صالحة للاستخدام. وإلا كانت جلبتها إلى محمد إيهاب. الله أعلم ماذا وراء صدفيته. لم يعانِ أحد أكثر من العراقيين غير السوريين. أو الفلسطينيين ربما. لا تعرف. منطقة ملعونة برمتها. محظوظ من ينجو منها.

تذكرت علب الصدفية من جديد. كلما تذكرت صدفية أمها تشعر بوخز في الضمير. كان يجب أن تمنع أمها من أن تفتح ذلك الكيس الأسود. كان يجب. لو منعتها لربما لم تأتِ الصدفية. ولا الآلزهايمر. الله أعلم. انتبهت إلى أنها تمادت في سيل أفكارها حتى تجاوزت المطبخ بشارعين. بينما تحاول أن تستدير بالسيارة كادت أن تصطدم بسيارة أخرى قادمة من الاتجاه المعاكس. ضربت الفرامل بقوة لتفادي الأمر.

كل ما كان ينقصها في هذا اليوم هو أن تعلَق في حادث سيارة، وشركة تأمين وسين وجيم واستنزاف لأعصابها.

قبل أن تصل المطبخ جاءها اتصال من نزار.

نزار إحسان. هكذا أعادت تسجيل اسمه في هاتفها. سابقًا، كان مسجلًا باسمه الأول فقط، كما يكتب أغلب الناس أسماء المقرَّبين منهم، دون حاجة إلى تعريف باسم الأب أو العائلة. نزار فقط. لكن بعد أن ترك المنزل، أصبحت تحاول أن تضع الحواجز بينه وبينها حتى لو كانت مع نفسها فقط. جعلت اسمه نزار إحسان كما لو كان مجرد شخص تعرفه معرفة سطحية وتحتاج إلى أن يكون اسمه مقترنًا بأبيه كي تتذكر من يكون. نزار إحسان. في البيت مع الأولاد اسمه (أبوكم) فقط. على الهاتف اسمه نزار إحسان. عندما تتحدث مع شقيقتيها يكون اسمه نزار، قبلها كان اسمه أبو براء. لكن عندما حدث ما حدث عاد نزار فقط. أبو براء فيها رابطة محبة لا تريد إظهارها رغم معرفتها أنها لا تزال موجودة.

لا تستغرب الاتصال. اليوم يجب أن يحضر في موعد التعارف إيَّاه. ربما يريد أن يرتب شيئًا قبل الحضور.

تردُّ بصوت طبيعي محايد، ليس عدوانيًّ البرود ولا مبالغًا في الترحيب.

تبادلا السلام بشكل مناسب لمنفصلَين لا يوجد سبب واضح لانفصالهما.

دخل نزار في الموضوع مباشرة: بخصوص لقاء اليوم، هل الفتاة من ترشيحك؟

- لا. قطعًا لا. لا أعرف شيئًا عنها. براء تعرَّفها من خلال أصدقاء عبر الإنترنت. افترضت أنه أخبرك بذلك.
- أخبرني. لكن اعتقدت أن ذلك كان من ترتيبك.

- ترتيبي كيف؟

- أن ترتبي الأمر كما لو أنه كان باختياره، دون أن يعرف بالأمر.

نظرية المؤامرة لا تحكم العالم فقط حسب نزار. بل تحكم زواج ابنه أيضًا. لكنه هذه المرة يضعها هي في موضع الاتهام بدلًا من الماسونية العالمية. ربما كانت هي شخصيًّا مجرد واجهة للماسونية العالمية.

- لا. لا علاقة لي بالأمر. للأسف. حاولت، ولكن لم أنجح.

- إذن أنتِ لا تعرفين أهل الفتاة.

- لم أسمع بهم ولا بلقب العائلة قبل أن يقوله براء.

- ألا ترين أن الموضوع يسير أسرع مما يجب؟

- أيُّ موضوع تقصد؟ هو مجرد لقاء تعارف. لن تكون هناك خطبة أو قراءة فاتحة. فقط تعارف. يحدث هذا دائمًا.

كادت أن تقول يا نزار، ثم أحجمت. لن تناديه باسمه. ربما في الزوم ستفعل ذلك من أجل صورة العائلة الطبيعية. لكن ليس الآن.

- التعارف لا يحضره الرجال يا آلاء. تحضره أم (الولد) وشقيقاته فقط. مجرد وجود الرجال يجعل الأمر رسميًّا.

كان مصيبًا في هذا. الرجال لا يعرفون الانسحاب. يتورطون ويورطون الجميع ثم يتركون كل شيء ويهربون عندما يروق لهم ذلك. كما فعل هو بالضبط بعد عشرين عامًا.

- صحيح، هذا في العراق. النساء يذهبن للتعارف ثم يرتبن الأمر ويأتي الرجال مجرد شكليات. تحصيل حاصل، الآن اختلف الأمر، التعارف يشمل الرجال.

لم تكن مقتنعة بما تقول، لو كان تعارفًا فقط لكانت جلسة نساء فقط لكن هذا ما طلبه براء. كان الأمر أكثر من مجرد تعارف وأقلَّ من خطبة رسمية.

- أشعر بأن براء يضعنا أمام الأمر الواقع. هناك استعجال كبير في كل شيء.

الأمر الواقع؟ طبعًا الأمر الواقع. كل حياتنا هي أمر واقع نحاول أن نتفاوض معه أو نتأقلم معه. عندما ترك البيت وضع الجميع أمام الأمر الواقع. الآن، نصل إلى الفتاة التي يريد براء أن يتزوجها لنعترض على الأمر الواقع؟

- هل تعرف شيئًا عن الفتاة أو أهلها يجعلك تأخذ هذا الموقف؟

كانت حائرة هي الأخرى، هل تريد أن يكون هناك شيء تتخذه حجةً للرفض، أم أنها تريد أن تغيظ نزار بأن تقبل على الرغم منه؟

- لا أعرف سوى شيء واحد. هذا استعجال لا داعي له. منذ متى يعرفها براء؟ شهرين؟ ثلاثة؟ وعبر الإنترنت؟ عرفنا بعضًا مباشرة لسنوات قبل الخطوبة وانظري إلى حالنا الآن.

هكذا إذن؟

- هذا جيل مختلف. سنواتنا كانت خالية من المعرفة الحقيقية. ابتسامات وكلام ناعم وأقنعة اجتماعية حسب الأصول. هذا الجيل أكثر وعيًا. وأشهر الإنترنت التي تقلل من شأنها بها تجعلهم يعرفون بعضهم بعضًا بشكل أفضل بكثير من سنوات لعبة جرِّ الحبل التي كان جيلنا يمارسها. هذا الجيل أكثر وعيًا ويعرف كيف تزوج أهلهم، يقومون باختبارات أنماط شخصية ويعرضون كل شيء على الطاولة في أثناء مدة تعارفهم على الإنترنت.

- هل تصدقين أن هذا يمكن أن يزيد من احتمالية نجاح العلاقة؟

طبعًا لا. هذه بطيخة لن نحزر ما في داخلها قبل تجربتها، حتى لو أخذنا لها أشعة.

- صدَّقت أو لم أصدِّق. براء يريد ذلك. وهو مستقل ماديًّا. ولم نعرف عنه طيشًا ولا تسرعًا. لا يمكنك أن تعارض خطوة التعارف لمجرد اعتقادك أنه متسرع. في النهاية هذه حياته، وهو حرٌّ فيها.

كرر جملتها. *حياته وهو حرٌّ فيها*. سمعت نبرة سخرية. عليه أن يتوقف عن هذه التلميحات. كانت آلاء تدرك تمامًا ماذا يقصد بهذا. لكنها لن تسمح له بالتمادي.

- القرار لبراء، هو حرٌّ في اختيار زوجته.

قالتها بصعوبة. الجملة بدت غريبة بصوتها. لم تعرف نفسها وهي تقول إن براء حرٌّ.

- منذ متى هذه الحرية؟ لم يكن حرًّا في اختيار جامعته أو تخصصه الدراسي أو الشركات التي يقدِّم فيها. بل في اختيار ملابسه. كيف أصبح فجأة حرًّا في اختيار زوجته؟

سبق أن سألت نفسها هذا السؤال، ولكن بصيغة أقل مباشرةً ووضوحًا. لم تجد جوابًا مباشرًا... لكن الآن، وهو يسألها بهذه البساطة، وجدت الجواب حاضرًا على طرف لسانها.

- كل ما تقول إنه تدخل مني كان من أجل الحفاظ عليه في أفضل وضع ممكن. إن كنت شعرت بأن تدخلاتي ستجعلني أفقده، كنت توقفت. في هذا الأمر شعرت بأن هذا سيحدث. لذا فضَّلت ألا أتدخل عندما وجدته مصمِّمًا على (دعاء). هذا كل شيء. لن أفقد شخصًا آخر.

سكت كما لو أن هذا ما كان يريد سماعه.

- سنترك القرار لبراء. إن لاحظنا في لقاء التعارف هذا شيئًا واضحًا جدًّا ينذر باختلاف بين العائلتين سنقوله لبراء. مجرد رأي. عدا ذلك سنترك الأمور تأخذ مجراها. براء سيسافر إلى الإمارات

ويتعرَّف بشكل شخصي ومباشر الفتاة. بعدها إن كانت الأمور تسير على نحو جيد، سأذهب أنا، أو نحن، معًا.

- لم يخبرني أحد عن هذا من قبل.

- هذا بينك وبين براء. هو لم يخبرك.

- لكنه أخبرك أنتِ!

- أخبرني لأنه يعيش معي، لأني سألته، لأننا تناقشنا في الأمر أنا وهو بوجود يزن ومروة أيضًا. لم يتعمَّد أحد ألا يخبرك. هل سألته أنت ماذا عن الخطوات القادمة ولم يردَّ عليك؟

- لأني لا أعيش معه كان الأولى أن يخبرني.

- لم يكن هو من غادر. أنت غادرت. أنت لم تعُد موجودًا في حياته.

سكت قليلًا ثم قال كما لو أنه كان ينتظر هذه الفرصة: أحيانًا تكون المغادرة مجرد رد فعل.

ها هو يفعل ذلك مجددًا.

- لا تقلب الطاولة عليَّ في هذا اليوم تحديدًا بالله عليك. أنا متوترة بما فيه الكفاية، ولا يزال أمامي يوم طويل وصعب. دع هذا اليوم يمرُّ من أجل براء على الأقل. هذا اليوم لبراء. وفيه ما يكفي من التوتر، دعه يمرُّ دون أن تضيف الدراما الخاصة بك.

- نعم، بالتأكيد، وضعتِ أنتِ ما يكفي من الدراما وليست هناك حاجة إلى المزيد.

- ننتظرك في التاسعة على العشاء. العاشرة موعد الزوم. يجب أن أذهب الآن.

يجب أن أذهب قبل أن أصرخ بأعلى صوتي لاعنة الساعة التي قررت فيها أن أجعلك تحبني.

الساعة 12:20 ظهرًا

شعر الحاج موسى بدقة الباب. وتوقع أنه غسان. لم توقظه الدقة على الباب، كان مستيقظًا. لم يستطِع النوم لكنه استلقى في فراشه وأغمض عينيه. قيلولة ما قبل صلاة الظهر أصبحت جزءًا من روتينه اليومي منذ أن ترك عمله وتقاعد في البيت.

دق الباب مرة أخرى. لن يردَّ. يريد أن يدخل فليدخل.

شعر بالباب يُفتح وأحسَّ بغسان وهو يدخل ويقف أمامه. للحظات شعر بأن من يقف أمامه ليس هذا الغسان. بل غسان الآخر، غسان الذي كان يفزع عندما يراه مستغرقًا في النوم ويعتقد أنه مات فيهزه بشدة ويفتح عينيه ويقول له: بابا بابا أنت متت؟

لكن هذا الغسان لم يفعل ذلك. شعر الحاج به يقترب بهدوء ويقف أمامه. تساءل إن كان قد أصبح عبئًا عليه في عمره هذا. عليه وعلى زوجته وأولاده. اضطروا إلى أن يفرغوا له غرفة كانت لأكبر الأولاد الذي انتقل ليشارك غرفة مع شقيقه الأصغر منه. لا يُظهر أي منهما انزعاجًا أو تذمرًا على الأقل أمامه. لكنه لا يرى أيًّا منهما كثيرًا بكل الأحوال. أمهما حفيدة أخته خديجة. وهي ترعاه بدقة واهتمام. لا يمكنه أن يجد لها غلطة. لكنه لا يزال يشعر بأنه عبء على الجميع. من عاش طوال عمره في بيته آمرًا ناهيًا سيصعب عليه أن يشعر بأنه ضيف ولو كان في بيت ابنه. يحاول أن يذكِّر نفسه دائمًا بأنه هو من قام بمنح غسان المال للدفعة الأولى التي شكَّلت خُمس سعر البيت، والتي على أساسها

استطاع تملُّك البيت مع دفع أقساط شهرية للسنوات العشرين القادمة. فات منها ثمانية. يحاول أن يتذكر ذلك لكي يخفف من إحساسه هذا. لكن مجرد هذا التذكير يشعره بالذنب تجاه ابنه. لم يبدُ منه أو من زوجته أو من أي أولادهما شيء. هو الذي لم يعُد يتحمل أي شيء ويشكُّ في أي شيء.

يا حاج.

قال غسان.

فتح عينيه فورًا: نعم؟

الصلاة يا حاج.

كان قد ضبط المنبه على الساعة الواحدة. الصلاة الساعة الواحدة والنصف. الوقت كافٍ جدًّا.

- كم الساعة الآن؟

- 12 ونصف إلا كم دقيقة.

لماذا يوقظه؟ ولماذا هو في البيت الآن أصلًا؟

اعتدل الحاج في فراشه وساعده غسان.

- أريد أن أتحدث معك يابا.

لا بد أن حمزة اتصل به. فليفعل. كان يجب أن يعلم.

مدَّ يده ووضع نظارته على عينيه واعتدل أكثر مستعدًّا للحوار. لكنه لم يعلِّق بشيء.

- يابا اتصل ابن عمي حمزة وقال إنك اتصلت به.

هزَّ برأسه دون أن ينطق.

- وقال أشياء عجيبة يابا. قال إنك أعطيت محاميًا أمريكيًّا مئة ألف دولار من أجل دار المنشية في يافا.

لم يردَّ الحاج. لكن نظراته الباردة الخالية من أي رد فعل كانت جوابًا.

- هل هذا صحيح يابا؟ هذا المحامي نصب عليك حتمًا. دار المنشية راحت يا أبي. يافا كلها راحت. فلسطين كلها راحت. مئة ألف دولار؟

- ...

نفس النظرات.

- قل لي إن ما قاله حمزة ليس صحيحًا. إنه يكذب. أو إنه سمع الرقم خطأ. مئة ألف؟ مئة ألف يابا؟

- ...

- من أجل بيت راح من ثمانين سنة؟ أخذوه اليهود وصار لهم وضمن حدود 48 يابا. حدود 48. يعني العالم كله واقف معهم فيها. خلاص يابا. خلاص.

نفس النظرة الباردة، مثل جمهور يشعر بالملل أمام ممثل يلقي حوارًا طويلًا مع نفسه.

- هل انتهيت؟

قال الحاج موسى كما لو أنه كان ينتظر ذلك منذ الجملة الأولى.

- يابا، هذه الأموال نحن كنَّا أحقَّ بها. بيتك وأولادك أحقُّ بها من حلم دار المنشية الذي لن يرجع...

- انتهيت؟

- ومن أين جئت بهذه الأموال؟ هذا يعني أنك لم تخسر في دبي في 2009 وقت الأزمة المالية هناك كما أخبرتنا، بل قلت ذلك لكي

تخفي خبر تعرضك لنصبٍ من قِبل محامٍ أمريكي الله أعلم ماذا أخبرك كي يبتزَّك بحلم العودة التي تعرف أنها لن تحدث.

- انتهيت؟

- أنت العاقل الحكيم الحذر يا أبي. دومًا كنت أنظر إليك على أنك المثال للأب الذي يضحي بكل شيء من أجل أولاده. الآن أشعر بأني لم أعرفك. مئة ألف دولار يا أبي. حمزة كان يسألني إن كنتَ بخير. لقد تصوَّر أنك قد خرفت. أنا أيضًا جاء هذا في ذهني في البداية. لكن الأمر منذ عشر سنوات. لا أفهم كيف فعلت هذا!

- انتهيت؟

- نعم، انتهيت.

النظرات الباردة لا تزال في عينَي الحاج موسى لكنها أصبحت أكثر قسوة كما لو أن كل جملة يقولها غسان تزيدها صقيعًا وصلابة. أصبحت نتوءًا جليديًّا حادًّا مثل حافة خنجر.

- أولًا، ليس ثمانين سنة، بل ٧١ فقط.

- ماذا؟

- قلت البيت راح منذ ثمانين سنة، لا. النكبة عمرها ٧١ سنة فقط. أصغر قليلًا مني. كان عمري ٨ سنوات.

- ٧١ سنة نعم، وثانيًا؟

- وثانيًا المبلغ خطأ. ليس مئة ألف دولار. لكن هذا ما قلته بالفعل لابن عمك.

تنفس غسان الصعداء كما لو أن جبلًا قد أُزيح من صدره.

- الحمد لله، قلت في نفسي، أبي عاقل ولن ينفق هذا المبلغ من أجل اللا شيء.

- المبلغ الكلي أكبر من هذا بكثير. مئة وستون إلى مئة وثمانين ألف دولار.

فتح غسان فمه مذعورًا: أبي، قل إنك تمزح الآن!

- وثالثًا، ناولني العصا من عندك.

وأشار إلى العصا التي سقطت من سريره بالقرب من غسان.

ناوله غسان العصا بحركة شبه تلقائية، ومدَّ يده وانحنى ليساعد والده على النهوض.

لكن الحاج رفع العصا بسرعة وضربها على رأس غسان وهو يصرخ: يلعن سنسفيلك يا ناقص، يا عاق، يا عديم الذمة، من أنت حتى تحاسبني على ما أنفق؟ هلكيت[1] أنا مخرف وأنت تحاسبني يا غراب البين؟

لثوانٍ كان غسان يحاول تفادي الضربات فقط، ثم أخذ يحاول تهدئة أبيه فيمسك يده الأخرى ويحاول تقبيلها، ثم ابتعد ثلاث خطوات ليكون بعيدًا عن مرمى ضربات العصا، بينما كان الحاج مستمرًّا في محاولة الضرب في الهواء، وصدره يعلو وينخفض والشتائم تخرج من فمه بصعوبة متزايدة.

- اهدأ يابا. حقك عليَّ. أنا غلطان. لا تغضب مني. لا أعرف كيف قلت هذا. حمزة استفزني جدًّا. آسف يابا.

وضع الحاج يده على صدره وهو مستمرٌّ بالشتائم: قِب من وجهي هلكيت. قِب من وجهي يلعن تميسك.

كانت الشتائم الأخيرة قد خرجت بصعوبة من فم الحاج.

صرخ غسان: يا دلال، آلة الضغط يا دلال.

---

(1) هلكيت: هذا الوقت، الآن.

دخلت دلال مسرعة وهي تشير إلى المنضدة الجانبية قرب السرير: هيها آلة الضغط. فتحت الدرج وأخرجت آلة الضغط ومعها علبة دواء أخرجت منها حبة وقالت: تحت اللسان يا خال، لا تبلعها.

حاول غسان أن يربط آلة الضغط لكن الحاج أشاح له بيده: بعِّد عني.

ربطت دلال الآلة وهي تهدئ الحاج بينما تراجع غسان خطوتين إلى الوراء وهو ينظر إلى قراءة المقياس والقلق بادٍ على وجهه.

قالت دلال: اهدأ يا خال. ضغطك مرتفع قليلًا.

ثم أدارت الجهاز بحيث يرى غسان القراءة بوضوح.

.130/190

قال غسان: علينا أن نأخذه إلى المستشفى.

قال الحاج: هل جننت؟ صلاة الجمعة بعد قليل.

أعطته دلال حبة من دواء آخر على المنضدة وقالت لغسان: علبة الأتيفان من المنضدة قرب جهتي من السرير.

خرج غسان مسرعًا بينما كانت دلال تعين الحاج على تعديل رقدته في فراشه وتطبطب على كتفه وتطمئنه.

سألها بلهجة هادئة، ولكن متوترة: بنتي يا دلال هل كانت ستك خديجة تحكي لكم على دار المنشية؟

- الله يرحمها، في السنوات الأخيرة لم تكن تتحدث عن شيء آخر.
- الله يرحمها، ماذا كانت تقول؟
- كلما شاهدت بيتًا جميلًا في التلفاز كانت تقول حلو بس دار المنشية أحلى بكثير. لو كان البيت جميلًا ممكن تقول حلو بس دار المنشية أحلى.

- ماذا أيضًا؟

- كانت تقول كبير يركض الخيَّال فيه سبعة أيام.

تغيَّر مزاج الحاج وضحك وقال: صح، أشهد، في مرة خيَّال ضاع وما لقيناه. تلاقيه لسا بيركض في الدار، وماذا أيضًا؟

- كانت تقول لأنه كبير كان كل أطفال الحي يلعبون الغماية فيه.

- إي نعم، كنت أتخبى بالمطبخ الصغير، كان لدينا مطبخان، وكان أغلب الأطفال في الحي يجهلون كيفية الدخول إلى المطبخ الصغير لأن مدخله من باب سفلي في أقصى الحوش.

- وكانت تقول إن المدخل كان حجرًا أبيض، وفيه باب خشبي فيه نحاس مزخرف.

- حجر أبيض كلسي، جدي كان يجلبه من مقالع نابلس ورام الله. أسموه أبو حجر، وصار اسم العائلة أبو حجر.

- والحوش كبير وفيه ليمون وبرتقال.

- كل يافا فيها ليمون وبرتقال. رائحتها رائحة برتقال. هل حكت لكم عن ستي فاطمة؟

- لحظة... ستي فاطمة؟ أذكر شيئًا كهذا، هل تقصد شجرة في وسط الدار؟

- نعم، الليمونة المعمِّرة. كانت موجودة قبل بناء البيت، أسمتها المرحومة أمي على اسم فاطمة غزال، قتلها الإنجليز بالـ 36، وهل أخبرَتكم أن أبي مدفون في الهيلتون؟

- الهيلتون؟ لا، لو قالت شيئًا كهذا ما كنت نسيته، كيف في الهيلتون؟

- ربما لم تعرف أو لم تستوعب، نسيتُ متى عرفنا بالموضوع أصلًا. مدفن العائلة في مقبرة عبد النبي على البحر، أخذها اليهود

ونبشوا العظام وأقاموا فندق الهيلتون على المقبرة، مقبرة خمس نجوم يعني، الله يقطع عمرهم ويحرقهم بنار جهنم يا رب، دار المنشية التي كان يرمح فيها الخيَّال أصبحت جزءًا من متنزه عام على البحر. يخرج الكلاب فيها كلابهم ليتغوَّطوا فيها...

دخل غسان وبيده علبة الدواء وقال: لم أجده على المنضدة، بل في صيدلية الحمام.

أكمل الحاج كما لو أنه لم ينتبه لدخول غسان: هل أخبرتكم أن رائحة البحر في يافا مختلفة تمامًا عن رائحة أي بحر؟ آخر مرة شميتها كان لما ركبنا المركب وطلعنا لا نعرف إلى أين... من بحر لبحر، من بيروت للكويت لهذا البحر الذي عليه نيوزيلندا ونسيت اسمه، وهدِّي يا بحر هدِّي، لكن رائحة البحر على يافا لا شيء مثلها...

أعطته دلال حبة أخرى وناولته كأس الماء وقالت: الله يرحم ستي خديجة وينتقم من اليهود يا خال، أنت أحسن الآن الحمد لله، دقائق ونقيس الضغط مجددًا.

ابتلع الحاج الحبة وشرب الماء وأكمل: دار المنشية هذه يستكثر زوجكِ أن أحاول إثبات حقي وحق إخوتي فيها. الكلاب تتغوَّط عليها وزوجكِ هذا يقول إني خرفت لأني أحاول. يتهمني بالتقصير معه ومع إخوته لأني بعد أن كبَّرتهم وعلَّمتهم وزوَّجتهم وحتى اشتريت لهم بيوتهم أردت أن أنفق على حقي من حقي وعرقي وتعب عمري، لكنه يريد ذلك في الإرث...

قال غسان: أبي لم أقصد ذلك، كلنا يمكن أن نتعرض للنصب والاحتيال، وأنت تعرف أن الكلاب لن يرجِّعوا الدار، المحامي نصاب يا حاج.

قال الحاج موجِّهًا كلامه لدلال كما لو أن غسان غير موجود: أنا من تواصلت مع المحامي، حكيت مع أخي أبو حمزة وبقينا سنين نرتب للأمر بعد أن يأسنا من الشعارات التي خدعونا بها، واحد يقول سيرمي اليهود في البحر والآخر يقول سيحرق نصف إسرائيل بالفتيشات[1]، ونحن فقط من وجدنا أنفسنا في البحر ونحن فقط من احترقت الدنيا علينا. شعارات كبيرة صدَّقناها وخُدعنا بها. ثم؟ لم يحدث شيء. نقعد ونسكت؟ على الأقل نفعل شيئًا نحن. هكذا فكَّرنا. الدار لن تعود، نعرف هذا، لسنا مجانين، أريد للدعوى أن تصل إلى المحكمة فقط، تنظر فيها ثم تصدر حكمًا، أي حكم، ولو تعويضًا رمزيًّا، أو حتى لو رفضًا للدعوى، ما يهمُّني أن يُصدر حكمًا عن المحكمة الإسرائيلية، لأنه سيتضمن النظر في وثائقي، ووثائقي حقيقية، ولو كانت مزوَّرة لن نصل إلى المحكمة، ومجرد صدور الحكم فهذا يثبت أن وثائقي حقيقية، وبعدها يمكنني أن أميِّز الحكم أو أطعن فيه أو أستخدم الإعلام أو أرفع دعوى ضد دولة الكيان نفسها. أذهب إلى أي محكمة في العالم لتسمع قضيتي. الدار لن تعود. لكن أريد أن أثبت حقي وحقكم يا دلال.

يوجِّه كلامه لدلال. لكن حديثه لغسان. كان يتحدث مثل مريض على فراش موته يقول وصيَّته الأخيرة بسرعة قبل أن يموت.

- لو كان الأمر كذلك لفعله الجميع دون أن يدفعوا كل هذه الأموال. وكم التعويض المتوقع أصلًا؟ هل يصل لعُشر هذا المبلغ؟

قال وهو لا يزال يتحدث بهدوء:

- زوجكِ لا يعرف شيئًا يا دلال. قانون مصادرة الأراضي الذي أصدرته إسرائيل عام 1950 وأسمته (مصادرة أموال المتغيبين) لا يشملنا ولا يشمل دارنا. القانون أسمى الناس الذين هُجِّروا

(1) الفتيشات: الألعاب النارية.

تحت تهديد السلاح (متغيبين) وصادر أملاكهم على هذا الأساس، تغيَّبتم وأخذناها، لماذا تغيَّبتم؟ لكن هذا القانون فيه ثغرات وجدها المحامي الأمريكي، وهناك ثغرة مناسبة لنا، وكل قضيتي مبنية على هذه الثغرة التي وجدها المحامي الذي يقول زوجكِ إنه نصَّاب.

ربطت دلال آلة الضغط مجددًا، بينما سأل غسان: ثغرة؟

- القانون يتحدث عن أصحاب العقارات والأملاك ممَّن كانوا خارج الأراضي المحتلَّة بعد نوفمبر 1947، لكن والدي كان قد مات قبل ذلك بشهرين، سبتمبر 47، وهكذا عندما صدر القانون كانت الدار تعود لقاصرين لا يمكن الحكم على تغيُّبهم لأنهم حسب كل القوانين والأعراف ليسوا كاملي الأهلية.

قالت دلال: ضغطك أفضل بكثير، الحمد لله. كيف تشعر الآن يا خال؟

- أشعر بالنعاس. ماذا أعطيتِني؟

- مجرد حبة مهدئ. النوم سيريحك يا خال.

دق منبه الهاتف، الساعة الواحدة. صلاة الجمعة تقترب.

قال الحاج: ستفوتني صلاة الجمعة. لم تفُتني منذ أربعين سنة.

قالت دلال: إن الله يحب أن تؤتى رُخصه يا خال.

تقدَّم غسان خطوتين وقال: سأبقى معك يا حاج إن احتجت إلى شيء.

ردَّ الحاج بصوت حاسم: أنت بلا رخصة. اذهب وصلِّ واستغفر ربك.

الساعة 12:50 ظهرًا

دخلت عابدة كعاصفة إلى المحل. قالت فورًا: آسفة تأخرت. لا أعرف ماذا يحدث هذا اليوم. كل شيء مختلف.

كانت تقفل الباب الخلفي للمتجر وتتأكد من إغلاق كل الثلاجات وتتحدث له بنفس الوقت عمَّن صادفت في الميناء وماذا قالوا وكيف أن وجبة السمك هذه المرة تبدو أفضل من سابقتها وإنها تتوقع أن تكون بمستوى وجبة الأسبوع الثاني من شهر ديسمبر، ثمانية من عشرة، ولكنها لن تصل إلى وجبة الأسبوع الثالث من نوفمبر، تلك كانت عشرة من عشرة. لم تسكت لحظة واحدة.

في المعتاد، كان يتفاعل مع حديثها المستمر بابتسامة على وجهه تتحول إلى ضحكة أحيانًا وكلمات تعجُّب واستلطاف مثل: سبحان الله. ما شاء الله.

هذه المرة، لم ينبس بكلمة أو تعليق. لا ابتسامة على وجهه، ولا ضحكة أيضًا.

كان يتأملها بعينٍ جديدة كما لو كان يراها لأول مرة. نعم، كل شيء مختلف هذه الجمعة.

حتى عابدة.

فتحت الباب لكي يدخل السيارة بينما هي تدفع كرسيه المتحرك لكي تضعه في الصندوق وهي مستمرَّة في الحديث دون توقف. قالت إنها ستضع بطارية الكرسي على الشحن، وإنه من الأفضل شراء بطارية

جديدة، ثم أخبرته عن القطة في الميناء التي اعتادت أن تأخذ لها طعامًا كل جمعة واعتادت أيضًا أن تنقل أخبارها إلى عارف. قالت له إنها لم تكن موجودة وإنها تخشى أن يكون فريق إنقاذ القطط قد أسرها ثم كررت الحديث عن أمنيتها بأن تؤسس يومًا ما مركزًا لرعاية القطط. تحدثت عن هذه الأمنية كما تفعل دومًا: تعرف شيئًا يا عارف؟ أمنية حياتي أن أؤسس مركزًا لرعاية القطط. تخيَّل زوجتك ولديها أربعون قطًا لترعاهم. أي سعادة! لكن أعتقد أنك ستطلِّقني عندها. هل ستطلِّقني يا عارف؟ بالتأكيد لن أكون أول امرأة تُطلَّق بسبب القطط. لكن قد أكون أول بنغالية. ماذا تظن؟

في كل مرة كانت تتحدث عن هذه الأمنية كما لو أنها تخبره بها أول مرة. *هل تعرف شيئًا يا عارف؟* وتنطلق بنفس التفاصيل. كان يضحك أحيانًا ويبتسم أحيانًا وأحيانًا يردُّ: هذه أول مرة أعرف أنكِ تحبين القطط.

هذه المرة كان ساكتًا تمامًا. كما لو كان يسمع كل شيء لأول مرة.

انتبهت هي لصمته عندما جلست بجانبه في السيارة وربطت حزام الأمان له ولها: هل أنت بخير يا عارف؟ تبدو مختلفًا اليوم؟ هل حدث شيء في المتجر؟ هل أزعجك أحد الزبائن إيَّاهم؟

قالت الجملة الأخيرة بصوت مختلف كما لو كانت تشير إلى الباكستانيين.

لم يردَّ أيضًا. بقيَ ينظر إليها.

- حسنًا، هل أضعت كلماتك أم أن القطة أكلت لسانك كما يقولون هنا؟

لم يردَّ.

- إذن فلنستمع إلى سورة الكهف، هذا أبرك.

مدَّت يدها إلى مشغِّل الأقراص المُدمجة في السيارة لتشغله لكن عارف مدَّ يده ووضعها على يدها ليوقفها.

نظرت إليه مستغربة بينما أخذ نفسًا عميقًا كما لو أنه يريد أن يستجمع شجاعته ليقول شيئًا مهمًّا.

- عندي سؤال، يا عابدة.

- إذن القطة بريئة من أكل لسانك. تفضل اسأل. عندي جواب إن شاء الله.

سكت عارف ثم أغمض عينيه قليلًا وقال: طيلة هذه السنوات، من كنتِ تكلِّفين أمر استخراج شهادة ميلادك؟

كانت عابدة قد بدأت بقيادة السيارة، رآها عارف وهي تكسب بعض الوقت بالنظر في المرآة الجانبية ومرآة السائق. لم تكن مرتبكة، لكن مجرد سكوتها لبعض ثوانٍ كان يدلُّ على أنها كانت تفكر في شيء ما دون أن تجعله على لسانها، على غير المعتاد.

التفتت له ونظرت، دون أن ترمش عينها: كثيرون. أوَّلهم أخي سعد الله، لكن لماذا؟ ما الفرق؟

- أريد أن أعرف هل هؤلاء الأشخاص جديرون بالثقة؟ هل طلبوا منكِ أموالًا لقاء شهادة الميلاد؟

- منِّي لا طبعًا، كنت سأخبرك، ربما طلبوا من أخي. لكنه لم يطلب شيئًا منِّي. ربما لم يطلبوا منه أيضًا لأنهم لم يحصلوا عليها كما تعلم.

- هل تعتقدين أنهم كانوا سيحصلون عليها لو أنه دفع؟

- كيف؟ لو كان بإمكانهم لطلبوا ذلك صراحةً. تعرف كيف هي الأمور هناك. لكنها غير موجودة. السجلات احترقت وتورطت أنت بزوجة لا دليل على أنها وُلدت أصلًا. كان الله في عونك. تزوجت أنثى الشبح شخصيًّا.

شيءٌ ما في وجهها كان يقول إنها تخفي ارتباكها باقتدار. ما تفعله قد ينطلي على كثيرين. لكن عارف يعرف كل إشارات وجهها وتعبيراتها. حاجبها الأيمن مرتفع قليلًا أكثر من المعتاد. شفتها السفلى متقلصة وتحاول أن تجعلها مسترخية كما لو أنها واعية أن الشفة فاضحة.

- تعرفين أن تأخيرك في الحصول على الجنسية كل هذه السنوات كان بسبب هذه الورقة؟

نظرت إليه كما لو أنها أضحت متأكدة أين سيقود هذا الكلام.

- ماذا نستطيع أن نفعل؟ السجلات في سيلهت احترقت. لست الوحيدة في هذا الأمر. ألم يقُل الموظف أن هناك حلًّا بديلًا؟ لكنك لم تقُل لي ما هو. هل سنرفع دعوى على التاج البريطاني؟ سيكون ذلك أمرًا مثيرًا. تخيَّل. ونكسب الدعوى. عابدة التي هزمت الملكة إليزابيث. ستشمت كنَّتها بها وربما توجِّه لنا دعوة.

تقوم بمحاولة جيدة في تغيير الموضوع. لكن هذا يزيد تأكده من أنها تعرف. عادةً عندما يكون الموضوع جادًّا، تتحول عابدة إلى شخص في منتهى الجدية.

- سجلات المواليد في سيلهت لم تحترق يا عابدة. لم يحدث أي حريق.

اتسعت حدقتا عينيها. تغيَّر لون وجهها بسرعة. وعاد إلى طبيعته بسرعة أيضًا، قالت مستغربة: لم يحدث أي حريق؟ هذا أمر غريب جدًّا. من أخبرك؟

- أحسن، ابن خالتي خديجة.

- لم تخبرني أنك طلبت منه أي شيء بهذا الخصوص!

- لم أرغب في تكليف أخيك مجددًا. الموظف طلب منِّي مجموعة أوراق للتأكد من احتراق السجلات. أوصيت أحسن بذلك. فقال لي إن السجلات لم تحترق.

- غالبًا الموظفون لا يريدون أن يصدروا ورقة تثبت إهمالهم، خاصة لو علموا أنها ستُصدَّق وتُرسل إلى خارج البلاد. تعرف كيف الأمور عندنا.

هزَّ رأسه موافقًا.

- قال إنه سيرسلها خلال أيام بعد أن يكمل التصديقات المطلوبة.

شعر برعشة يدها. هذه المرة لم تستطع إخفاءها.

- يرسل ماذا؟

- شهادة ميلادك، عندها يمكننا المضيُّ في إجراءات الجنسية.

لنصف دقيقة تقريبًا بقيت ساكتة وهي تنقل عينيها بين المرآتين.

- إن شاء الله. غريب لمَ أخبرني أخي بأمر الحريق. لا أفهم الأمر. هل أنت متأكد من أنها لن تكون مزوَّرة؟ تعرف أنهم لا يتساهلون في هذا هنا.

- ليست مزوَّرة.

كان ينتظر منها أن تشرح له كل شيء لكي يطوي الصفحة إلى الأبد ولا يفكر فيها مرة ثانية.

لكن عابدة لم تشرح له، بل هي تمهد الطريق من الآن للقول إن هذه الوثيقة مزوَّرة.

شعر بأنها خذلته. للمرة الأولى في حياته يشعر بأنها خذلته.

وقفت معه في كل شيء. والآن، بمجرد تصوُّرها في أنه سيحاسبها على سنة ميلادها، يشعر بأنها خذلته.

سنة واحدة فقط. سنة واحدة فقط هي التي تختلف فيها سنُّ عابدة في شهادة الميلاد عن سنِّها في كل الوثائق الأخرى. سنة واحدة فقط. لكنها في عرف جيله من البنغاليين، كانت سنة مختلفة جدًّا.

يوم طلب من والديه أن يبحثوا له عن زوجة من قريتهم أو القرى المجاورة، تأتي لتشاركه حياته في نيوزيلندا، كانت مطالبه محدودة للغاية، متعلِّمة على الأقل إلى الابتدائية، ليست نحيلة، تحفظ القليل من القرآن، وابتسامتها جميلة.

لكن والدته أضافت شرطًا آخر قالت إنه أهم من كل ما سبق. ألَّا تكون العروس من مواليد تلك السنة المشؤومة.

كان قد نسيَ كل شيء عن السنة المشؤومة عندما هاجر من بنغلاديش. عندما كان هناك، كان يعرف الأمر ويضعه في اعتباره كما يفعل الجميع، لكن سنوات غربته بعيدًا عن بنغلاديش جعلته ينسى ذلك تمامًا. عندما قالت أمه، وافقها. لا يريد زوجة من مواليد تلك السنة المشؤومة وبكل احتمالات العار فيها. بالتأكيد لا يريد.

مع وضعه الصحي الذي كان قد بدأ بالتدهور آنذاك، لم يكن من الممكن العثور على زوجة صغيرة السن. كانت أمه تريد له عروسًا ابنة السادسة عشر والسابعة عشر، وهي سنٌّ كانت تجعلهن أصلًا بعيدات عن السنة المشؤومة. بالتدريج اقتنعت بأن عليها أن تجد عروسًا أكبر

سنًّا، فاتها سن الزواج لكن دون أن يؤثر في قدرتها على الإنجاب وليس لأسباب متعلقة بسلوكها.

ووجدوا عابدة. متعلمة وحافظة لأربعة أجزاء من القرآن وممتلئة ومبتسمة دومًا، على مشارف الثلاثين، مما يجعلها قريبة جدًّا من السنة المشؤومة، لكن كل أوراقها تقول إنها وُلدت بعد سنة منها. لقد نجت منها. لِمَ لَمْ تتزوج؟ ترعى أباها الكبير وتعمل، لم يأتِ نصيبها. لكن كل قريتها شهدت لها بأن ذلك لم يكن له علاقة بسلوكها. على العكس، كانت تُعد مثالًا كيف أن الفتيات الشريفات يمكن أن يكنَّ سيئات الحظ في الزواج. أمه أحبتها جدًّا، دخلت قلبها، وهذا لم يكن ليحدث مع فتاة سيئة السمعة على الإطلاق.

كان مولدها في السنة التي تلت السنة المشؤومة. وكان هذا كافيًا.

عندما نظر إلى شهادة الميلاد التي أرسلها إليه أحسن، قرأ التاريخ.

7 يناير 1972.

السنة المشؤومة بالتأكيد.

الساعة 1:10 ظهرًا

هذه هي تيمبلتون. عشرة كيلومترات فقط ويدخل كرايستشيرش.

ساعة الصفر تكاد تدخل، ومع هذا الصفر سيبدأ بتنفيذ خطته التي ستغير العالم.

يشعر بالرهبة. يستغرب ذلك. ويستغرب أنه يعترف بأن ما يشعر به هو الرهبة من الخطوة القادمة.

كان يعتقد أنه سيكون أكثر حماسًا وترقبًا وهو على بعد دقائق من تحقيق حلم عمره. الحلم الذي سيصبح واقعًا بعد قليل، سيدفع قطعة الدومينو الأولى التي ستدفع القطعة التي بعدها والتي بعدها والتي بعدها، تتداخل القطع لتغير اللوحة بالكامل. سيتلقف آخرون ما فعله، مثل شعلة يتناقلها من يريدون النجاة، سيشعلون النار ضد الغزاة الذين يحتلون أرضنا. من أستراليا إلى كندا مرورًا بأوروبا، في كل مكان كان للرجل الأبيض سطوة وسيادة ويتعرض اليوم لتسلل الغزاة، سيظهر من يريد أن يكرر ما فعله، سيكون ما فعله نموذجًا سهلًا قابلًا للتطبيق في كل زوايا عالم الرجل الأبيض، خلال فترة قصيرة، سيهرب مئات الآلاف من الغزاة خائفين مذعورين، ستخرج تركيا من الناتو، سيتصاعد الصراع في الولايات المتحدة، ستنشب حرب أهلية فيها تقود إلى أمريكا جديدة، بيضاء نقية، كما كان يجب أن تكون.

بعد قليل، سيكون الرصاصة التي ستخترق صدر الأرشيدوق ليشتعل العالم وتزول عوالم وتتغير الخرائط. سيدفع قطعة الدومينو الأولى التي تغيِّر العالم.

شعر بحاجة إلى جرعة من الطمأنينة. لو كان يؤمن بإله، لتوقف ليصلي له. لكنه لا يؤمن بشيء. المسيحية بالنسبة له هي ثقافة الرجل الأبيض فحسب. لا يؤمن بإله شخصي. عقله لم يستوعبه قط. ولم يكترث بأن يفعل. لم يحاول. في الأرض ما هو أهمُّ مما في السماء. وما يهمه هو هذا. أرضه التي يحتلها الغزاة.

قرر أن يمارس الشيء الوحيد الذي يعرفه ويمكن أن يقترب من شكل الصلاة بالنسبة للآخرين. الشعيرة الوحيدة التي يمكن أن تمده ببعض الطمأنينة والراحة النفسية.

الفورتنايت. لعبة الصراع من أجل البقاء التي يلعبها منذ أن ظهرت في نسختها الأولى منذ عامين. وجد فيها نفسه أكثر من كل الألعاب القتالية التي شكَّلت هويته وبَنت عالمه المنفرد المنعزل منذ بداية مراهقته، ثم جاءت فورتنايت كما لو لتساهم في تغيير رؤيته للعالم وتساعده في التفكير في خطته التي أصبحت المسافة بينه وبينها دقائق لا أكثر. قبل ذلك، كان يشعر بأنه ذئب وحيد على قمة جبل منعزل ونائٍ، ثم جاءت الفورتنايت لتقول له إن هناك ذئابًا وحيدين مثله على قمم جبال أخرى منعزلة، وإنهم يستطيعون العمل معًا لتنفيذ ما صُممت اللعبة من أجله: القتل. القتل الذي يجعل الأدرينالين يتدفق في عروقه. القتل الذي يحفز كل هورمونات السعادة على الإفراز في داخله. القتل على الشاشة الذي أصبح مصدر لذَّته الأكبر. نشوته القصوى التي يحاول أن يُعبر عنها برقصة الموت التي يرقصها على كل جثة قبل أن يتركها ليمضي إلى فريسته التالية. هذه هي قواعد اللعبة. رقصة واحدة من خمس رقصات

متوفرة في إعدادات اللعبة. فيها سخرية من المقتول، من فكرة الموت نفسها، فيها بدائية كما لو كان المنتصر من أشباه البشر وليس من أصلابهم.

أوحت إليه الفورتنايت ببساطتها بخطته. اللعبة قائمة على خطوات بسيطة متسلسلة. حدِّد المكان. ابنِ مخبئك. اجمع أسلحتك. هاجم. اقتل. اهرب. حدِّد مكانًا آخر. ابنِ مخبئًا آخر... وهكذا.

وهذا ما فعله بالضبط. حدَّد مكانًا. بنى مخبأً. جمع أسلحة. والآن سيهاجم.

ولديه ثلاثة أماكن حدَّدها سلفًا. هذا أقصى ما هو متاح هنا.

أوقف سيارته على جانب الطريق. على مد البصر حقول بلون صفرة الخريف الحائرة بين الألوان. سيكون الشتاء القادم أحمرَ بلون الدم. لكن الربيع الدائم سيأتي بعد ذلك. ربيع بلا غزاة أغراب.

يحتاج إلى أن يلعب الفورتنايت. يدرك أنها ربما تكون المرة الأخيرة في حياته التي يلعبها. حتى لو بقيَ حيًّا، من المستبعد أن يُسمح له باللعب في السجن.

أخرج اللوح الإلكتروني بلهفة، مثل مدمن يمسك حقنة الهيروين قبل أن يغرزها في وريده.

ضغط مفتاح الفورتنايت. نسخة معدَّلة لا يحتاج فيها إلى انتظار بقية اللاعبين في الانضمام.

وولج إلى ذلك العالم الافتراضي الذي سينقله إلى العالم الواقعي بعد قليل.

تماهى مع الشخصية الافتراضية التي اختار لها اسم القائد روكويل Commander Rockwell تيمنًا بمؤسس الحزب النازي الأمريكي

جورج لينكولن روكويل. أصبح نسيًا منسيًّا الآن. لكنه قرر أن يخلِّد اسمه باختيار هذا الاسم للَّعب. كل هذا سيُعرف ويُحلَّل ويُدقق ويُشتهر ويُحفظ من قِبل الأجيال القادمة. باختيار بسيط سيحيي الرجل العبقري الذي سبق زمانه واغتيل منذ أكثر من ستين عامًا.

القائد روكويل يترك (حافلة المعركة battle bus) ويهبط بالمظلة على المنطقة التي حددها عند أطراف الجسر، ثمة قرية صغيرة غنية بأشجار الكرز. الأرض لامعة بندى الصباح، والحقول خالية إلا من صدى بعيد لأصوات الطيور. خلف الأفق، بدت التلال من بعيد كما لو كانت علامات على الطريق.

يتجه إلى حظيرة متهالكة، ويعثر بداخلها على بندقية هجومية أرجوانية من طراز «سكار»، وعلبة ذخيرة وقنبلتين. بدأ صباح اللعبة أكثر لطفًا مما هو معتاد.

لم يطُل الهدوء. لمح لاعبًا يتسلل قرب خزان ماء بعيد. لم يتردد. أطلق عليه طلقتين خاطفتين. الأولى كسرت درعه، والثانية طرحته أرضًا.

تم تحييده. تظهر عبارة Eliminated على الشاشة.

بعد دقائق، اقترب صوت دراجة رباعية من الطريق الترابي. اختبأ خلف سور حجري متشقق. اللاعب الآخر نزل من المركبة وبدأ البناء فورًا. استخدم هو قنبلة صدمة، طار في الهواء، وهبط خلف خصمه مباشرة. طلقة واحدة من بندقيته الآلية، وسقط الثاني. **Eliminated.** اثنان في خمس دقائق.

واصل التقدم نحو التلال المجاورة، هذا يساعده في رصد تحركات الأهداف من ارتفاع أفضل. استقلَّ قاربًا صغيرًا عبر النهر، حتى وصل إلى مزرعة محاطة بسياج خشبي على الضفة الأخرى. هناك، شاهد ثلاثة

لاعبين يتقاتلون في الحظيرة. انتظر بصبر حتى تبقَّى أحدهم فقط، ثم أنهى الجريح برصاصة قناصة دقيقة. **Eliminated.**

اقتربت الزوبعة. لم يتبقَّ سواه واثنين آخرَين. الأول بنى برجًا خشبيًّا مرتفعًا. الثاني كان يختبئ بين الصخور. حسم المعركة مع الثاني بسرعة، مستخدمًا فخ القنابل المتسلسلة. بقيَ خصم واحد.

حامت الدائرة الأخيرة فوق تلٍّ مفتوح. اختبأ، ثم أطلق قنبلة ظل، واقترب خلسة من البرج. خصمه كان مشغولًا بإعادة التموضع. هجم فجأة، أطلق، أصاب، تراجع، ثم تقدَّم مرة أخرى. انهار البرج. الخصم سقط. قفز هو نحوه. الطلقة الأخيرة أصابته في الصدر.

صمتٌ مُطبق.

ثم ظهرت على الشاشة **Victory Royale**.

وقف في وسط المرج، يلهث، كأنما خرج من معركة حقيقية. رفع ذراعيه، وبدأ يؤدي رقصة "Floss" جسده يتمايل فوق العشب، الموسيقى تنبعث من الصمت، وخصمه الميت ما يزال مُلقًى تحت قدميه. لم تكن الرقصة رقصة فرح بالنصر فقط. بل رقصة شماتة وحقد متراكم وجد متنفسًا الآن، بعد طول كبت...

حين انتهت الرقصة، أسدل ذراعيه، حدَّق إلى الأفق البعيد، متنفسًا الحماسة والترقب.

أغلق اللعبة وقد زاولته الرهبة.

أنا قادم أيها التاريخ.

سأجلب معي المستقبل.

وشغل سيارته، دقائق فقط ويدخل كرايستشيرش.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الساعة 1:12 ظهرًا

كان محمد إيهاب يحترق مرتين.

مرة في الخارج على وجهه الذي تأكله نوبة الصدفية الحادة التي تتزامن مع قلقه ووضعه النفسي.

ومرة في الداخل، سيخ من النار يخترقه من الوريد إلى الوريد.

أمجد يلتحق بجيش النظام الذي فعل وفعل؟

سيخ يخترقه من كل الجهات.

شعر محمد إيهاب بطعم مرير لم يشعر به من قبل على كثر ما مرَّ به.

لقد خذله أمجد. خانه. غدر به. جيش النظام! وبعد أن اتفق على كل شيء مع المهرِّب (النظامي) ومع غليندا على ترتيب الخطوات التالية لكي يلحق به في نيوزيلندا؟

يعرف أمجد أنه -ليس مخطئًا فقط- بل مجرمًا أيضًا بما يفعل.

لذلك لم يجرؤ على إخباره بشيء مما فعل.

وكذلك تكتموا جميعًا على هذه المؤامرة. خذله الجميع. كلهم شركاء في الجريمة. في الخذلان. في هذا السيخ الذي يكاد يشويه من الداخل.

أم هو من خذل أمجد عندما غادر وتركه هناك؟

هل هو من بدأ بالخذلان؟

لكن، حتى لو كان هو من بدأ؟ جيش النظام؟! كان أمجد في أسفل المنزل عندما حدث ما حدث. كان في الثانية عشرة ورأى ما رآه بعينيه. كيف يلتحق بهم؟

وإذا حدث شيء له في الجيش وقُتل؟ كيف سيلتقي أمه؟ ماذا سيقول لها؟

كانت آخر كلمة لها قالتها له. في آخر مكالمة في ذلك اليوم الذي حدث فيه كل شيء.

قالت له، بصوت ملهوف ضائع بين صوت إطلاق الرصاص والقذائف: أمجد أمانة برقبتك.

تحسس رقبته. الصدفية تنهشها أيضًا.

***

ذلك اليوم.

يوم القدر الذي دخل حياته ليشوهها إلى الأبد.

2012/8/15.

صبيحة يوم 27 من رمضان. الليلة السابقة كانت ليلة القدر. تأخر في الاستيقاظ. حاولت أمه إيقاظه مرة واحدة فقط ثم كفَّت. لكن عمر ثابر في الاتصال ليوقظه. يعملان معًا في سوق الخجا ويذهبان كل يوم معًا. كان يقف أمام البيت كما يفعل كل يوم. أخذ عمر يرمي حصًى صغيرة على شباكه وينادي باسمه. لك إيهاااااابو.

ردَّ على اتصاله. تأخرنا لا داعي للذهاب اليوم. ألحَّ عمر وأصرَّ كما يفعل كل مرة. استسلم له كما كل مرة أيضًا وقام عن فراشه. فتح باب غرفته ووجد أمه وأباه جالسَين في غرفة المعيشة. كلٌّ على كنبته المعتادة. التلفاز على قناة المجد. تلاوة من القرآن. والدته تنظر إلى

الشاشة التي تظهر عليها الآيات. والده كان ساهمًا ينظر في الأرض. كسره المرض وأشلَّه في العامين الأخيرَين. لم يعُد يضربه. وفي مرات قليلة عبَّر له عما فسَّره محمد إيهاب بأنه ربما يكون ندمًا على ما كان منه. قليل جدًّا من الندم، ومتأخر جدًّا. سأل والدته لِمَ لَمْ توقظه. قالت إنها حاولت ثم عرفت أن هناك قذائف سقطت على مقربة من سوق الخجا وتوقعت أن الطريق سيكون مغلقًا فتركته ينام. اتصل بمَعلْمه[1] ليسأله عن الأمر، فقال له إن الطريق أصبح سالكًا الآن. وصل إلى باب البيت، ثم نادى أمه ليتحدث معها. لم يرغب في أن يسمعه والده وهو يطلب منها نقودًا. كل أُجرته كان يعطيها لها مباشرةً عند استلامها، وتعطيه منها ما يلزمه. قال لها أمي أريد نقودًا. كم تريد. كما تشائين. أعطته 200 ليرة. قالت له لا تنفقها كلها. رُد إليَّ مئة عندما ترجع. ولا تشترِ بها دخانًا كالعادة. حاضر، قال لها، كما يقول دومًا. لم يكن يعنيها للأسف.

بعد ساعات كان على استعداد لأن يدفع لها كل عمره كي تستطيع أن تأخذ منه المئة ليرة.

عندما وصل هو وعمر إلى سوق الخجا استقبلهما المَعلِّم -صاحب المحل الذي يعملان فيه- بسؤال: حمامة ولا غراب؟ نتائج التاسع[2] ظهرت.

كان محمد إيهاب واثقًا بسقوطه. الثورة وأشياء أخرى. أو أشياء أخرى والثورة. عمر كان يقول له ربما تحدث معجزة وتنجح. استأذنا المَعلِّم وذهبا إلى الكافيه نت القريب. كان واثقًا بسقوطه لكن لا بأس

(1) المَعلِّم: رب العمل أو الأسطى.

(2) التاسع: الصف التاسع، وتكون امتحانات وطنية عامة ويقابلها في العراق الثالث متوسط وفي مصر الثالث الإعدادي.

من استغلال الفرصة لتصفح الإنترنت. في أثناء ذلك جاءه اتصال من جمال، ثالثهما في كل شيء.

- إيهاب أين أنت؟ سأله وهو يصرخ.

- أنا في سوق الخجا، ماذا حدث؟

- هناك إطلاق نار شديد في الحارة، قرب بيتكم.

أغلق الهاتف واتصل بأمه. لم تردَّ أول مرتين. جاء صوتها مختنقًا في المرة الثالثة. لا تأتِ يا حمودة. إياك أن تأتي. نحن سنموت هنا. برضاي عليك لا تأتِ... أمجد في الدكان تحت البيت. لا أعرف إن كان سينجو. هدى وابنتها معنا. أخبِر زوجها إن استطعت.

كان صوت ضرب النار واضحًا.

- ما الذي يحدث يا أمي؟ لم تردَّ على السؤال لكنها كررت ما قالته وأنهت المكالمة.

حاول أن يفهم ماذا يحدث. اتصل بجمال ليسأله. هل حدث تفتيش تلاه إطلاق نار؟ هل كشف التفتيش علم الثورة هائل الحجم الذي أخفته أمه في سخان الماء؟ أو عشرات الأعلام الصغيرة والأقنعة التي تُستخدم في المظاهرات وأخفاها في أماكن مختلفة في البيت؟ هل إطلاق النار نتيجة هذا التفتيش؟

قال له جمال إن الأمر لا علاقة له بهذا. هناك بيت ملاصق من الخلف اختبأ فيه ثوار مطارَدون، وإطلاق النار يستهدفهم هم، وقد يعاقَب الجميع بتهمة التستر عليهم.

كرر اتصالات بأمه عشرات المرات خلال النصف الساعة التي توقفت فيها الكرة الأرضية عن الدوران.

ردت مرتين. كررت ما قالته. إياك أن تأتي. سنموت هنا. أمجد في الدكانة.

وفي المرة الثانية، وقبل أن يغيب صوتها إلى الأبد، قالت له: أمجد أمانة برقبتك يا حمودة.

ثم لم تعُد ترد.

اتصل بوالده. بعد عدة مرات ردَّ، لم يفهم منه غير كلمة واحدة: راحوا راحوا، ما في شي، راحوا.

كان يقصد حتمًا أن أفراد الجيش راحوا. أن كل شيء أصبح بخير الآن. هكذا تعلَّق محمد إيهاب بهذا التفسير في البداية.

أخذ يتصل بالجيران، ببيوت أصدقائه في الحارة. هل يستطيع أحد أن يخرِج أبي وأمي من البيت؟ قالت له أم عمر إن بيتهم قد (نزل)[1]. كيف نزل يا خالة؟ ماذا تقولين؟ قالت له: أبو عمر شاهد عنصرًا من الجيش يصوِّب قذيفة آر بي جي.

ثم لم يردَّ أحد. اتصل على الخط الأرضي. لم يردَّ أحد أيضًا. ثم انقطع.

ثم خرج هاتف أمه عن التغطية. ثم هاتف والده.

توت توت توت. الرقم الذي تحاول الاتصال به مغلق حاليًّا.

وانقطع الخط الأرضي.

هنا ضرب هاتفه بالأرض وتهشَّم إلى ألف قطعة. حاول عمر تهدئته، فلنذهب إلى الحارة الآن ونعرف ماذا يحدث. في الطريق أعطاه عمر هاتفه وقال له أن يضع بطاقة خطه فيه.

ربما تتصل الوالدة. قال له.

---

(1) نزل: تهدم، سقط.

لا يعرف كيف وصل إلى مدخل الحارة. تركها قبل ساعتين فقط وفي جيبه 200 ليرة قالت له أمه أن يرجع منها مئة. والآن (نزل البيت) وكل الهواتف خارج التغطية وسنموت هنا وأمجد أمانة برقبتك. ساعتان فقط.

عندما وصل كان الضرب قد توقف. على مدخل الحارة هناك حاجز للجيش يمنع الدخول، و أهالي الحارة يخرجون منها بصمتِ مَن نجا من موت محقق ويحاول أن يستوعب ما حدث. كانوا على بعد خطوة من الموت. ثم تبيَّن أن دورهم لم يحِن بعد.

وقف ينتظر أن تظهر أمه. قلبه معلَّق على خيط رفيع من الأمل الآخذ بالتلاشي بالتدريج. كان الخيط يزداد اهتراءً مع كل لحظة.

أخذ يستوقف من يعرفه من الخارجين. هل رأيتم أمي وأبي؟ هل تعرفون ماذا حدث لهما؟

لا جواب. الخارجون بالكاد يستطيعون أن يعرفوا ما حدث لهم. يهزون رؤوسهم بعلامة النفي.

قال له جارهم أبو وديع: ربما بقيا في البيت لأن والدك لم يتمكن من الخروج.

نعم. لا بد أنهما بقيا في البيت لهذا السبب.

تعلَّق بهذا بكل ما يملك ابن السادسة عشر من قدرة على التعلُّق.

انتظر حتى لم يعُد هناك من يخرج. ربما خرجا من مكان آخر... أو بقيا في البيت.

لا بد أن ينتظر في مكان آخر.

بعد ساعة تقريبًا دق الهاتف. رقم غير معرَّف. بالتأكيد لن يكون معرَّفًا. هذا هاتف عمر.

قبل أن يردَّ نظر إلى الأرقام الأخيرة، ليس رقم والدته ولا والده. ولا أي رقم من أرقام شقيقاته.

- محمد إيهاب؟

- نعم. أنا محمد إيهاب.

قلبه يدق مثل مدفع رشاش في اللحظة الأخيرة قبل نفاذ العتاد.

- أمك منى فتالة؟

- نعم.

تنفس الصعداء. إذن تحاول أن تتصل به. إذن هي بخير. كاد أن يسجد على الأرض فرحًا.

قبل أن يفعل جاءه الصوت من الرقم غير المعرَّف:

- العمر إلك.

***

خرج من ذكرياته على صوت منبه سيارة، على مقربة من مسجد النور.

غليندا في سيارتها تبتسم له.

ذكَّرته بأمه. شعر بأنها تسلِّم عليه.

ابتسم وهو يلوِّح بيده لها.

الساعة 1:19 ظهرًا

أوقفت غليندا سيارتها قرب مسجد النور. ليس في موقف سيارات المسجد. بل على الشارع. دينز أفينو. لم تهبط من سيارتها. بقيت مترددة. ثلاث رسائل نصية وصلتها اليوم من نادية. لم تفتح أي رسالة منها. تعرف ما تريده نادية. وما تريده كبير وخطِر. ولا تشعر غليندا بأنها قادرة على مساعدتها حقًّا. ليست مؤهلة لذلك. لماذا تعتقد نادية أنها يمكن أن تساعدها في هذا الذي تسأل عنه.

تعرفت على نادية قبل أن تسلِم، عندما كانت تشارك في الأعمال التطوعية العامة. كانت من أصل عربي وتقيم في نيوزيلندا منذ عقدين تقريبًا. في أواخر الأربعينيات عندما تعرفت عليها. كانت لطيفة ومهذبة وتحب المساعدة. عندما رأتها نادية مرتدية الحجاب، بعد أن أسلمت، بدت متفاجئة ومستغربة، لم ترَها قبل ذلك في دروس المساجد أو فعالياتها، لكن نادية أصبحت تحضر، ومثل كثيرات، كانت تضع غطاءً على شعرها فقط في أثناء وجودها في المسجد، وتزيله عند خروجها، ولم يكن ذلك يُشكل أي مشكلة لأحد. في أثناء لقاءاتهما، كانت نادية تبدو مهتمة جدًّا بأسباب اعتناق غليندا للإسلام، وتسألها دومًا عن (قصتها)، ولم يكن هناك قصة في الحقيقة، لم يكن هناك موقف معين جعلها تسلِم، ولكن هذا لم يجعل نادية تكف عن تكرار السؤال بين فترة وأخرى، كما لو كانت تريد أن تتأكد من أن الجواب لن يتغير. لا قصة.

كانت تغيب فترات ثم تعود. أحيانًا تبدو في منتهى التركيز والانتباه، وفي أحيان أخرى تبدو شاردة، ولكنها كانت دومًا ودودة مع غليندا خاصة، ومع الوقت أدركت غليندا أن نادية قارئة جيدة، وأم ناجحة، وأنها صادقة جدًّا فيما تقوله دومًا.

قبل عامين انقطعت نادية عن الحضور إلى المسجد، لم يكن هذا أول انقطاع، لكنه كان الأطول، وشمل فترة رمضان والعيدَين، وهذا لم يحدث في انقطاعاتها السابقة. لم يكن هناك تواصل هاتفي بينهما سابقًا، بحثت غليندا عن رقمها وتواصلت معها في عيد الأضحى. فرحت نادية جدًّا، وطلبت أن تزور غليندا، وعندما جاءت، قالت لها بصراحة إنها تواجه مشكلات مع إيمانها، وإنها احتاجت إلى فترة تبتعد فيها عن كل شيء له صلة بالدين، كي لا يشوِّش ذلك عليها بأي اتجاه. وقالت لها إنها لا تستطيع أن تفكر حتى في إبلاغ أي أحد بما يحدث معها، لأن ذلك سيقود إلى سماع التوبيخ والمواعظ المعتادة.

«لكني واثقة بأنكِ ستفهمين».

هكذا قالت لها، وكانت غليندا متفهمة بطبيعة الحال. لا يمكن لأحد سبق له أن تنقَّل بين الأديان والأفكار باحثًا عن الحقيقة التي يؤمن بها إلا أن يكون متفهمًا لما قالته نادية.

اختفت نادية بعدها، ثم ظهرت قبل أسبوع على باب غليندا. شاحبة ومضطربة وعلى وشك الانهيار. وكل ما تريده هو أن تتحدث.

استقبلتها غليندا واحتضنتها، وسمعتها. تصورت أن هذا كل ما تريده نادية. أن تجد من يسمعها. حكت لها عن تربيتها المحافِظة التي كان الدين جزءًا أساسيًّا منها. وعن شعورها بالذنب الذي ينغص عليها أفكارها المتمردة ومشاعر فقدان الإيمان. قالت إنها لم تكن مرتاحة في إيمانها، ولكنها لم تجد الراحة في التخلي عنه، بل زاد اضطرابها وقلقها،

كل ما تربَّت عليه يشعرها بأنها على خطأ، وعلى ضلال، وبأن حياتها ستكون موحشة وبأنها ستعاقَب في أبنائها ومستقبلهم.

تفهم غليندا ما قالته نادية. لكنها لم تمرَّ بشيء مماثل. رحلتها كانت داخلية دون قمع من أهل أو أسرة أو مشاعر ذنب كاللتي تعانيها نادية. وضع نادية أصعب بكثير بلا شك.

- أين أنتِ بالضبط في الإيمان بالله؟
- لا أعرف. لا أستطيع أن أحدد.
- على مقياس من 1 إلى عشرة، واحد منتهى الإيمان، وعشرة إلحاد تام، أين تضعين نفسك؟
- لا أستطيع أن أصرِّح بهذا حتى لنفسي، لكن الآن وبما أنكِ سألتِني فعقلي يقول لي 10. لكن قلبي متردد يقول خمسة.
- سمعت ملحدًا شهيرًا مرة يقول إنه لا يوجد هناك إلحاد تام لهذه الدرجة. أعطى روحه ستة من سبعة.
- لا أعرف. هذا ما أشعر به. عقلي يرفض بحسم. قلبي يعاقبني على ما يفكر فيه عقلي.

سألتها غليندا عن الأسباب وراء كل هذا. فقالت أشياء متعلقة بالمرأة. الحجاب. تعدد الزوجات. الميراث. وكلها أشياء لم تعانِ منها نادية بشكل شخصي مباشر، فليس في عائلتها من تزوج على زوجته، وليس كل نساء عائلتها محجبات، والفترة التي ارتدت فيها نادية الحجاب تعترف أنها لم تُجبر عليه بشكل مباشر، بل كانت مقتنعة به، ثم علَّقت «أو بالأحرى، كنت مغسولة الدماغ وأعتقد أني مقتنعة».

«كل سلبيات المجتمع الذي خرجت منه ومشكلاته أصبحت ترجعها إلى الإسلام. نفاق وازدواجية وتخلف وتدخل في الخصوصيات، كل شيء».

كانت غليندا تقف على الضفة الأخرى. لديها فكرة عامة عما يحدث في الضفة التي تتحدث عنها نادية، ولكنها لم ترَها ولم تختبرها بنفسها. تعرف أن مشاعر نادية حقيقية وصادقة، لا يوجد لديها ما يجعلها تعتقد أن نادية تكذب أو تُزيف مشاعرها، لا أحد يختار عذاب الشك والحيرة طوعًا، لكن مشاعر الأشخاص تجاه شيء لا تكفي للحكم على هذا الشيء. هذا ما تعرفه غليندا يقينًا.

ثم ألقت نادية بالكرة في ملعب غليندا. لا. لم تكن كرة. كانت قنبلة.

- منذ أن تعرفت عليكِ، وأنا أقول لنفسي إن غليندا وحدها يمكنها أن تنقذني من هذا.
- أنا؟ أنا أنقذك؟ كيف هذا؟
- منذ أن تعرفت عليكِ وأنا أقول لنفسي، هذه سيدة غربية لم تنشأ على الإسلام، عاشت وتنقلت وجربت، ثم اختارت الإسلام، لا بد أنها رأت فيه ما أنا عاجزة عن رؤيته. ولهذا فهي قادرة على أن تقول لي شيئًا مختلفًا عما سيقوله لي إمام الجامع وكل مواعظه التي حفظتها. غليندا تستطيع أن تقول لي شيئًا يجعلني أحسم أمري.
- نادية، أعتقد أنكِ تبالغين في تصوراتك عني. لا أعتقد أن لديَّ ما يمكنه أن يحسم هذا.

أمسكت نادية بيدَي غليندا: ليس لديَّ سواكِ. ليس لديَّ من يسمعني سواكِ يا غليندا. وأنا الآن بحاجة إلى كلمة منكِ. إلى شيء تقولينه لي فيخرجني من هذا الذي أنا فيه. أنا الآن على وشك أن ألحد. أكفر بكل

شيء. أن أقول بصوتٍ عالٍ إن كل هذا الذي تؤمنون به لا وجود له إلا في أذهانكم التي شُكلت بحيث تؤمن به. وأنا أعرف أني لن أجد راحتي في هذا. لكني لا أستطيع إلا أن أقول ما أشعر به... وحدكِ تستطيعين إنقاذي...

سجلي لي رسالة صوتية أستطيع العودة إليها دومًا. ليس لديَّ سواكِ يا غليندا... يمكنكِ أن تقولي شيئًا يحميني من نفسي...

كان هذا منذ أسبوع.

أرسلت بعدها رسائل تطلب من غليندا ألا تتخلى عنها. ألا تنسى ما طلبته منها.

اليوم ثلاث رسائل. لم تفتح غليندا أيًّا منها. لكنها رأت واحدة منها دون أن تفتحها. إشارة استفهام واحدة فقط لكنها تختصر كل شيء.

لم تكن غليندا تتعمد التهرب. كانت ببساطة لا تعرف ماذا تقول لنادية. نادية علَّقت أمرًا خطِرًا على كلمات ستقولها غليندا. وغليندا تشعر بالمسؤولية تجاه هذا. فكرت في أن تستشير إمام المسجد فيما تقوله لنادية، بل إنها كانت على وشك مفاتحته بالموضوع، لكنها تراجعت. نادية تريد كلماتها هي، تريد تجربتها هي. لا تريد موعظة من شيخ.

قررت غليندا أن تسجل رسالة نصية ثم ترسلها قبل أن تترك سيارتها وتدخل إلى الجامع، حيث ستبدأ الخطبة بعد قليل. أرادت أن تنهي الأمر، وقررت أيضًا أن تقول ما سيخطر في ذهنها دون أن تحضِّر شيئًا. ستسجل رسالة صوتية وتتحدث فيها على سجيتها ثم ترسلها. تتوكل على الله وترسلها. لا يمكنها أن تفعل ما هو فوق طاقتها. هناك آية تقول شيئًا كهذا لكنها نسيتها الآن.

فتحت التسجيل:

السلام عليكم نادية، جمعة مباركة، آمل أنكِ بخير، أعرف أنكِ لست بخير، لكن، تعرفين، هذه جملة تعوَّدنا أن نقولها، آسفة لأني تأخرت في الرد عليكِ، لكني كنت أفكر فيما قلتِه وفيما سألتِني إياه. لن أخفي أنني خفت وارتبكت وترددت في الرد. الإيمان بالله أمر كبير يا نادية، وهو تجربة شخصية غير قابلة للتكرار أو النسخ، على الأقل هذا ما أومن به. إيمان كل شخص مثل بصمة عينه أو إبهامه. لا يتطابق في ذلك مع أحد آخر. هناك تشابهات، بالتأكيد، لكن كل منَّا يحمل رحلته الشخصية الخاصة به.

ما أقصده يا نادية، هو إني أتفهم وأفهم كل ما قلته عن أسباب ما تمرِّين به، أنا واثقة بصدقك، لكني لست واثقة بقدرتي على مساعدتك، ما مررتِ به مختلف جدًّا، وبعض أسباب نفورك من الدين ربما كانت من أسباب انجذابي له، ربما لأني لم أمرَّ بنفس الظروف التي مررتِ بها، بل مررت بالطرف الأقصى المعاكس لها، حرية شخصية مطلقة دون أي قيود من أي نوع، جربت كل شيء، واكتشفت مع الوقت أن هذه الحرية المطلقة تتحول إلى عبودية لنزعات بدائية في داخل الإنسان، الإنسان الذي لم يكن ليتطور لولا أنه تمكن من السيطرة على هذه النزعات وتقنينها. أعرف أن هناك تماديًا عند البعض في فرض قوانين يفترض أن يكون الالتزام بها نابعًا من قرار شخصي وشخصي جدًّا، لكن ماذا أقول، لا يمكن لوم مخترع التلفاز على كل هراء يُعرض على شاشته.

لا أعرف إن كان هذا التشبيه مناسب. أنا مجرد امرأة بسيطة يا نادية. لست من أولئك المفكرين والفنانين الذين أسلموا بحيث تكون قصة إسلامهم وشرحهم لها ملهمة للآخرين. لست كات ستيفنس[1] أو ليوبولد

(1) **كات ستيفنس** (يوسف إسلام): هو مغنٍّ وكاتب أغانٍ بريطاني اشتهر عالميًّا في سبعينيات القرن العشرين، ثم اعتنق الإسلام في أواخر تلك المرحلة، وابتعد فترة عن الساحة الفنية قبل أن يعود لاحقًا بأعمال تجمع بين الفن والبعد الإنساني والروحي.

فايس[1] أو روجيه غارودي[2]، لم أمرَّ حتى بلحظة إلهام شخصية قادتني إلى الإسلام، لم تكن هناك لحظة (الطريق إلى دمشق)[3] في طريقي، أنا مجرد غليندا أخرى، وجدت بالتدريج راحتها في الإسلام فأسلمت، هل كان ذلك على سبيل التجربة في البداية؟ لا. على الأقل لم أكن قد قررت ذلك مع نفسي. لم أقرر أن أجرب الإسلام وأنتظر كيف تسير الأمور بعدها. لا. كان قد جذبني بما فيه الكفاية لأعرف أن هذا هو. هذا هو الذي كنت أبحث عنه منذ البداية. ربما ما كنت سأفهم ذلك وأنا في العشرين من عمري ولا حتى في الثلاثين. ولكن، من كان يعرف ماذا يريد في العشرين، تطلَّب الأمر مني خمسين عامًا، وقد يتطلب أقلَّ من ذلك لكثيرين، لكن هذا ما حدث معي.

طلبتِ نصيحتي يا نادية. ليس لديَّ نصائح لأحد. لكن لديَّ آراء. ورأيي أن قرارك يجب أن يبقى قرارك، الإيمان قرار، وترك الإيمان قرار أيضًا، لكن رأيي، لو كان قرارك الآن أن تتركي الإسلام، فلا داعي لأن تعلني ذلك لأحد، ليكن القرار شخصيًّا وخاصًّا، لا داعي لحروب تشوِّش

---

(1) **ليوبولد فايس:** هو مفكر وصحفي نمساوي يهودي الأصل اعتنق الإسلام وأصبح يُعرف باسم **محمد أسد**، ويُعد من أبرز المفكرين المسلمين في القرن العشرين، عُرف بكتاباته عن الإسلام والحضارة الغربية وبترجمته الشهيرة لمعاني القرآن الكريم إلى الإنجليزية.

(2) **روجيه غارودي:** هو فيلسوف ومفكر فرنسي بدأ مسيرته الفكرية ماركسيًّا ثم اعتنق الإسلام لاحقًا، وكرَّس جزءًا كبيرًا من إنتاجه الفكري لنقد الحضارة الغربية الحديثة والدفاع عن القيم الروحية والعدالة الإنسانية، وأثار جدلًا واسعًا بمواقفه الفكرية والسياسية.

(3) **تجربة الطريق إلى دمشق:** هي الحدث المفصلي الذي غيَّر مسار القديس **بولس** (شاول الطرسوسي سابقًا) فبينما كان في طريقه إلى دمشق لاضطهاد أتباع المسيح، بحسب الرواية المسيحية، تعرَّض لرؤية مفاجئة ونور شديد وصوت خاطبه، ما أدى إلى **تحوُّل جذري في قناعاته**. بعد هذه التجربة اعتنق الإيمان بالمسيح، وأصبح من أبرز المبشرين به، وكان لذلك أثر حاسم في انتشار المسيحية خارج الإطار اليهودي.

عليك راحتك، على فرض أنكِ وجدتِ في قرارك راحة. عرفت أشخاصًا لم يستطيعوا التراجع عما أعلنوه رغم أنهم فقدوا إيمانهم بقرارهم، فقط لأن الأنا في داخلهم لم تحتمل فكرة أن يُقال إنهم تراجعوا. خذي قرارك دون عروض على الملأ. لا فائدة من ذلك غير نشوة الانتصار على طواحين الهواء. وثمة مضار كثيرة، عاجلة وآجلة.

بكل الأحوال، وبمعزل عن قرارك، سأبقى صديقتك، وسأسمع لكِ، سنكون امرأتين، واحدة دخلت في الإسلام، وأخرى خرجت منه، وإن كنت أتمنى غير ذلك. وسيبقى الإسلام في غنًى عنَّا نحن الاثنتين.

سأذهب الآن... كوني بخير يا نادية..

أغلقت التسجيل. انتبهت إلى أنها كانت تبكي. نادرًا ما يحدث هذا.

قبل أن تفتح باب السيارة رأت محمد إيهاب قادمًا من ريكارتون آفينو. كان يبدو عابسًا جدًّا وقد حمل كل أثقال الدنيا على حاجبيه. دقت له منبه السيارة. التفت إليها، فورًا زالت الجبال، وحلَّت محلَّها ابتسامة.

ولوَّح لها بيده مودعًا بينما هو يتجه إلى باب المسجد.

الساعة 1:22 ظهرًا

هاتف براء يدق قبل دقائق من وصوله إلى مسجد النور.

- مرحبًا أبي.
- مرحبًا براء، كيف الحال، أين ستصلي؟
- مرحبًا أبي، أنا بخير، سأصلي في مسجد النور، على وشك أن أصل.
- حسنًا سأراك هناك إذن.
- هل حدث شيء؟
- لا، أردت أن أراك فقط. هل هذا غريب؟

سكت براء قليلًا كما لو أنه يقول: نعم، هذا غريب.

- لا، لكنك ستحضر على العشاء والزوم، أليس كذلك؟
- نعم، نعم بالتأكيد. لكن قلت نتحدث معًا أنا وأنت، بعيدًا عن الرسميات، ربما نأكل شيئًا معًا إن كان وقتك يسمح، ما رأيك؟

سكت براء لثوانٍ استكثرها نزار.

- نعم نعم بالتأكيد. إن شاء الله.

قبل أن يترك سيارته، كتب تغريدة على حسابه في تويتر.

Better late than never

أن تأتي متأخرًا خير من ألا تأتي.

الساعة 1:24 ظهرًا

أوقفت عابدة السيارة في الموقف الخاص للمعاقين. كانت لا تزال تحاول أن تتصرف كما لو أن أمر شهادة الميلاد غير مهم. لم تترك لحظة صمت في الطريق إلى المسجد. تحدثت عن الجو اليوم وعن زفاف حفيد شقيقتها الشهر القادم وعن السمك مرة أخرى.

عندما أوقفت السيارة التفتت إلى عارف كما لو أن لديها فرصة أخيرة في تغيير مزاجه.

- سأخبرك نكتة قبل أن ندخل إلى الصلاة، حتى يغفرها الله لنا إذا كان فيها مخالفة ما...
- هل يجوز هذا أصلًا؟
- يجوز إن شاء الله. أحد معلِّمي التحفيظ سأله طلابه ما هي أصعب سورة للحفظ في القرآن فأجاب: ماذا دهاكم؟ ألم أقل لكم إن ما لا يمكن فهمه يُصعب حفظه؟ قالوا: نعم قلت ذلك. فأجاب: سورة النساء إذن.

برغم أن مزاج عارف لم يكن مناسبًا للضحك فإنه وجد نفسه يضحك بشدة. اتسعت ابتسامة عابدة كما لو أنها شعرت بأن خطتها بتغيير الموضوع نجحت.

نزلت وأخرجت الكرسي المتحرك من الصندوق ثم وضعته أمام باب الراكب حيث يجلس عارف، فتحت الباب ثم ساعدته في الجلوس على الكرسي.

- أريد أن أبقى هنا قليلًا، أستنشق الهواء قبل أن أدخل إلى المسجد.

- حقًّا؟ ستبدأ الخطبة بعد قليل.

- لن أتأخر، دقائق فقط. اذهبي أنتِ.

نظرت إليه كما لو كانت تسأله هل أنت بخير؟

هزَّ برأسه مطمئنًا لها. وقال: دقائق فقط وآتي.

انحنت ووضعت قبلة على جبينه. ثم قالت: أحبك بابو[1].

رآها تبتعد، ثم التفتت، تلفتت يمينًا وشمالًا لترى إن كان هناك من يراها، ثم أرسلت إليه قبلة في الهواء.

بقيَ يتأمل لدقائق. لن يتغير شيء في مشاعره تجاه عابدة، كان واثقًا بذلك. بل في هذه اللحظات شعر بأنه يحبها أكثر. فهم كم كان صعبًا عليها إخفاء ما أخفته طيلة هذه السنوات. كم كان مؤلمًا أن تحتفظ بهذا السر الذي أثَّر في كل تكوينها. فكَّر في الكثير من تفاصيلها الشخصية التي لا بد أن تكون قد نتجت عن هذا السر. لطفها المبالغ فيه مع الجميع، وحرصها على إرضاء ومجاملة الجميع، فيما عدا الباكستانيين.

هبطت دموع عارف دون أن يشعر بها إلا وهي تبلِّل لحيته.

نظر إلى ساعته وقدَّر أن الخطبة ستبدأ بعد قليل. عندما حاول تشغيل الكرسي لم يعمل. تذكر أن عابدة قالت إنها ستضع بطاريته في الشحن. الكرسي الآن مجرد كرسي متحرك عادي بفارق أنه أثقل بكثير من الكرسي العادي. سيتأخر في الوصول لكنه سيصل على الأقل قبل أن يبدأ الإمام الخطبة بالإنجليزية.

---

(1) بابو: كلمة تحبُّب بنغالية.

غير بعيد عنه.... كانت هناك سيارة سوبارو فضية موديل 2005، فيها شاب أبيض يرتدي ملابس عسكرية مموَّهة، وكان يقوم بتجربة خوذة واقية على رأسه.

وهناك كاميرا مثبتة في الخوذة.

الساعة 1:26 ظهرًا

آن أوان الإعلان عن كل شيء.

آن أوان أن يقول للعالم لماذا سيفعل ما سيفعله بعد قليل.

لن يسمح لهم بأن يسرقوا عمله البطولي النبيل ويحوِّلوه إلى عمل فردي ناتج عن اضطراب نفسي.

لن يسمح لهم بأن يقزِّموا فعلته إلى أمر يمكن معالجته في المصح وعبر عقاقير كيميائية.

سيضع بيانه الذي يوضح كل شيء، بل الذي سيقنع الجميع بأن يفعلوا الشيء ذاته. منطقه وطريقة عرضه المتماسكة ستنسف أي ادِّعاء بوجود اضطراب نفسي أو عصبي.

خمس وسبعون صفحة عمل عليها لأشهر. كتب وحذف وأعاد وكتب مجددًا إلى أن وصل إلى الشكل الذي يرضيه. كتيِّب صغير الحجم لكنه سيكون عظيم التأثير. سيكون أهم من آلاف الكتب الضخمة. سيكون أهم من (الماجنا كارتا)[1]، و(العقد الاجتماعي)[2] لروسو، وبيان

(1) **الماجنا كارتا (Magna Carta)**: وثيقة قانونية أُقِرَّت في إنجلترا عام 1215، حدَّت من سلطة الملك لأول مرة، وأرست مبدأ خضوع الحاكم للقانون، وشكَّلت أساسًا مبكرًا لفكرة الحقوق والحريات وسيادة القانون.

(2) **العقد الاجتماعي**: كتاب فلسفي ألَّفه جان جاك روسو عام 1762، يطرح فيه فكرة أن شرعية السلطة السياسية تقوم على اتفاق بين الأفراد يتنازلون فيه عن بعض حرياتهم مقابل حماية الحقوق والمصلحة العامة.

كارل ماركس مجتمعين[1]، بل سيكون أهم من الكتاب المقدس نفسه في الفترة المقبلة. كتابه الصغير هذا سيكون «إنجيل الرجل الأبيض» لأجيال قادمة وقد يحصل بسببه على جائزة نوبل للآداب، إذا كان يمكن الجمع بينها وبين جائزة نوبل للسلام التي يثق تمامًا بأنه سيحصل عليها لاحقًا، عندما تتضح الصورة النهائية لفعلته اليوم.

وضع منشورًا على حسابه الشخصي في الفيسبوك، أرفق فيه رابطًا لكتابه هذا، وقال في المنشور إنه سيقوم ببث مباشر لما سيفعله، ثم وضع رسالة أخيرة في المنتدى الأشهر الذي يتشارك مع أعضائه أغلب آرائهم، ضمَّنها رابطًا لبيانه ورابطًا للبث المباشر وطلب منهم نشر مقطع الهجوم بعد حدوثه.

ضغط على مفتاح الإرسال لبريد إلكتروني كان قد أعده مسبقًا بحيث تصل نسخ منه إلى 34 جهة في آنٍ واحد. من هذه الجهات: مكتب رئيسة الوزراء. المعارضة. البرلمان. وسائل الإعلام وعشرات المواقع والمنتديات. يضم البريد الإلكتروني البيان كاملًا ورابطًا عن البث المباشر.

لن يتمكنوا أبدًا من حجب بيانه. مانفيستو الاسترداد. إنجيل الرجل الأبيض.

سيحاولون منعه، لكن هذا سيعمل ضدهم. كلما كان المنع أقوى سيكون الفضول للمعرفة أكبر.

وستعمل لصالحه أيضًا الطبيعة التنافسية للمؤسسات الرأسمالية. ستتسابق القنوات الفضائية على عرض مقاطع من بيانه. سيسقط الملايين في سحر كلماته التي تجعلهم يرون الحقيقة. سيبحثون عن النسخة الكاملة.

هللولويا. الاستبدال المعاكس الكبير جاء.

---

(1) **بيان كارل ماركس (البيان الشيوعي)**: نص سياسي وفلسفي صدر عام 1848 بقلم كارل ماركس وفريدريك إنجلز، يعرض رؤية نقدية للرأسمالية ويطرح الصراع الطبقي كقوة محركة للتاريخ، ويدعو إلى مجتمع اشتراكي بلا طبقات.

الساعة 1:33 ظهرًا

بدأ البث المباشر.

الكاميرا تتحرك بسرعة في البداية بحيث لا يفهم المشاهد شيئًا.

ثم تتضح اللقطة.

لأن الكاميرا معلَّقة في الخوذة فإن المشاهد يرى للحظات مشهدًا غير مفهومًا. ثم نفهم أن الخوذة كانت ملقاة على أرض السيارة أمام مقعد المسافر، عندما يرفع الخوذة نرى ثلاث بندقيات آلية مكتوب عليها بالإنجليزية عبارات وأرقام لا يمكن تبينها.

عندما يرتدي الخوذة، يظهر أمامنا الجزء العلوي من السيارة، جزء من السقف، المظلة الشمسية مقابل السائق. زجاجة السيارة الأمامي. مرآة السائق وخلفها جهاز تحديد المواقع. ويتدلى منها معطر السيارة أصفر اللون، يتأرجح مع حركة السيارة.

يدير السائق رأسه فنرى مرة أخرى على المقعد المجاور البنادق الآلية الثلاث.

على مقعده، بين فخذيه، نرى ثلاثة مخازن للرصاص مكتوب عليها بنفس الطريقة.

صوت السيارة يعطي إشارة تنبيه ربط الحزام.

يوجه كلامه إلى المتابعين:

آن أوان أن نبدأ.

ثم قال: تذكروا يا شباب، **Subscribe to PewDiePie** [1].

السيارة تتحرك بعد هذه الجملة، بعد 38 ثانية من بدء المباشر، نرى أنه كان واقفًا في موقف خلفي للسيارات. يداه على مقود السيارة، يرتدي قفازين مفتوحَي الأصابع، صوت جهاز تحديد المواقع يعطي إرشادات. انعطِف يمينًا. بعد 200 متر. انعطِف شمالًا.

في الخلفية تدور الأغنية الصربية التي أصبحت رمزًا لكراهية المسلمين.

ينتبه لأن المظلة الشمسية تحجب الرؤية على المتابعين فيقوم بتعديلها.

الشوارع شبه خالية إلا من بعض السيارات التي يتجاوزها كلها دون أن يبدو أنه كان مسرعًا جدًّا.

نرى مساحات خضراء وأبنية متفرقة وسيارات مصفوفة على جانب الطريق.

بعد 3 دقائق وعشر ثوانٍ من بدء البث المباشر، يتوقف على جانب الشارع، يقلع الخوذة، ويوجه الكاميرا نحوه بحيث نرى وجهه لأول مرة، لا نرى ماذا يفعل، ولكن في نهاية وقوفه نراه يجرب الضوء المصاحب

---

(1) عبارة **"Subscribe to PewDiePie"**: كانت شعارًا ساخرًا انتشر على الإنترنت بين عامَي 2018-2019 ضمن ما عُرف بـ حرب *الاشتراكات* بين صانع المحتوى السويدي **PewDiePie** وشركة الإنتاج الهندية **T-Series**.

في ظاهرها كانت دعوة فكاهية للاشتراك بقناة فرد في مواجهة **شركة هندية ضخمة** تمثل صعود الجنوب العالمي وهيمنة المحتوى التجاري، لكنها اكتسبت معاني عصرية أعمق عند توظيفها سياسيًّا أو عدائيًّا: صارت أداة ترميز لدى تيارات متطرفة لإيصال رسائل كراهية أو تفوق ثقافي تحت غطاء "نكتة" أو "ميم"، ما حوَّل الشعار من دعابة رقمية إلى دلالة ملتبسة حسب السياق والاستخدام.

للبندقية. تمرُّ سيدة ترتدي معطفًا أحمر اللون. ثم يتحرك مجددًا بعد دقيقة وعشر ثوانٍ من الوقوف.

في الدقيقة 4 و32 ثانية يتحدث مع المتابعين: تجربة. لقد نشرت هذا للتو.

غالبًا يريد التأكد من التعليقات أن الصورة والصوت واضحان.

لا يزال يقود السيارة.

خلال ذلك تنتهي الأغنية وتُعاد مرة ثانية.

بعد نصف دقيقة من القيادة يقول: وصلنا بسرعة. نكاد نصل إلى المكان اللعين.

يترك الشارع الرئيسي وينعطف يسارًا إلى ممر جانبي ضيق بين جدارين، بالكاد يتسع لسيارة واحدة، ثم يحاول صف السيارة في فسحة جانبية، لكنه يغير رأيه ويعود إلى الممر الضيق، يصل إلى نهايته المطلة على شارع عام ويقف في الدقيقة 5 و53 ثانية من البث المباشر. نرى رجلًا كان يريد أن يمرَّ فيتوقف مشيرًا له بالعبور قبله. ثم يكمل طريقه عندما يراه قد أوقف السيارة. شخصان آخران يسيران معًا يمران من أمامه.

يهبط من السيارة، معه بندقيته. يذهب إلى الصندوق، يحمل بندقية أخرى، لا يغلق الصندوق. نرى بندقيتين غير اللتين حملهما، وصفيحتين من الصفائح الحمراء من التي تُستخدم عادة لخزن الوقود. يحمل بندقيتين ويسير بضع خطوات إلى الشارع ثم ينعطف يمينًا.

عندما ينعطف، نرى أنه قد وصل المسجد، نرى المنارة بوضوح، السياج الخارجي مبنيٌّ بناءً منخفضًا، لكنه مزوَّد بشبكة معدنية للعزل، بحيث نرى بوضوح موقف السيارات المحيط بالمسجد، بينما يتقدم نرى

دراجة هوائية مسندة على الحائط، ورجل يقف مقابل بوابة المسجد الخارجية، كما لو أنه ينتظر أحدًا لكي يدخل معه إلى المسجد. ندخل من بوابة المسجد الخارجية التي تقع مباشرة أمام بوابة داخلية للمسجد. هناك سيارات تقف على جانبَي البوابة، وهناك أشخاص يدخلون من خلال بوابة المسجد الداخلية.

يتقدم خمس عشرة خطوة إلى الأمام، بحيث يكون على بعد أمتار فقط من البوابة الداخلية، ثم نرى البندقية ترتفع وهو يصوِّبها نحو الأشخاص الذين كانوا يخلعون أحذيتهم ويضعونها في الأماكن المخصصة لها على جانبَي المدخل قبل دخول المسجد.

في نفس اللحظة التي ارتفعت فيها البندقية هناك شخص يقف في المدخل ويقول للمهاجم: Hello brother.

في الدقيقة السادسة و38 ثانية من البث المباشر، أي الساعة 1:40 دقيقة ظهرًا، يبدأ القتل.

أي قبل دقائق فقط من انتهاء الخطبة باللغة العربية وبدء الخطبة بالإنجليزية.

وكان أول من قُتل هو الذي قال Hello brother.

يطلق عشر رصاصات على الأشخاص الذين كانوا يهمُّون بدخول المسجد. يحدث ذلك خلال ست ثوانٍ فقط.

يتقدم بخطوات سريعة، يرمي بندقيته أرضًا ويخرج أخرى. هناك جثة ملقاة على المدخل قرب مكان الأحذية، غالبًا لنفس الشخص الذي قال Hello Brother، أصوات صراخ وآهات من المصابين.

هناك شخص يزحف نحو الأمام ويصرخ من الألم يرميه بطلقتين. ويستمر بالدخول في رواق يؤدي إلى ما يبدو أنه قاعة كبيرة هي حرم المسجد.

في الرواق غرفة جانبية على مدخلها شخص مصاب وفي طرفها المقابل سيدة تحاول الهروب من النافذة. يطلق عليهما الرصاص بينما يستمر بالسير في الرواق المؤدي إلى حرم المسجد.

يستمر بإطلاق النار بينما هو على وشك دخول الحرم. ثلاث رصاصات. هناك شخصان مصابان أمام مدخل الحرم. يرميهما أيضًا.

يلتفت إلى الجهة اليمنى من الحرم، حيث تجمَّع أشخاص يحاولون الهروب من مخرج أو نافذة. يرميهم بوابلٍ من الرصاص، ثم يلتفت إلى الجهة اليسرى حيث يوجد أشخاص يحاولون الهروب أيضًا من مخرج أو نافذة، يرميهم أيضًا بوابلٍ من الرصاص. ثم يلتفت مرة أخرى إلى الجهة اليمنى ليرمي عليها الرصاص.

يهاجمه شخص من الجهة اليسرى من الخلف بينما هو ملتفت إلى اليمين. لكنه يتمكن من إطلاق النار عليه، يسقط على مدخل الحرم.

مجموع الرصاصات التي أُطلقت في الحرم على الجهتين 34 رصاصة تقريبًا.

كل هذا حدث خلال 27 ثانية فقط. منذ Hello brother إلى أن قتل الشخص الذي حاول مهاجمته.

يخرج من الحرم، يفرغ جعبته في الشخص الذي حاول مهاجمته.

يأخذ مخزنًا آخر للسلاح كان قد تركه في حقيبة في الرواق، يضعه داخل البندقية ثم يعود إلى الحرم.

أصوات الآهات تدل على وجود أحياء بين الجثث المكوَّمة في الجهتين.

يطلق النار على الجثث الملقاة في الجهة اليسرى، ثم الجهة اليمنى. يفرغ مخزن الرصاص.

يحدث ذلك خلال تسع ثوانٍ فقط.

يعاني صعوبة في وضع المخزن الآخر، يتأخر لثوانٍ. ثم يضعه.

يعود إلى إطلاق الرصاص على الجهة اليسرى، ثم على مدخل الحرم، ثم على الجهة اليمنى. يطلق النار ليتأكد من موت الجميع. لا توجد أصوات الآن غير صوت الرصاص.

يفرغ المخزن، يركض ليضع مخزنًا آخر من الحقيبة في الرواق.

يركض إلى خارج المسجد ليلاحق الهاربين، لا يرى أحدًا في موقف السيارات، يركض باتجاه الشارع، نسمعه وهو يلهث، يطلق النار تجاه أشخاص لا نراهم يمين المدخل الخارجي. حوالي عشرين رصاصة. ثم يلتفت الى اليسار ويطلق النار، لا نرى المستهدفين. يفرغ المخزن.

كل هذا خلال دقيقتين وخمس وثلاثين ثانية من بدء إطلاق النار.

يركض نحو سيارته المتوقفة خلف سياج المسجد.

يصل السيارة، يرمي بندقيته أرضًا. صندوق السيارة تركه مفتوحًا للسرعة. يأخذ بندقية أخرى. يحمل صفيحة الوقود الحمراء بتردد. ثم يرجعها مكانها.

يركض نحو المسجد مجددًا. يصوب بندقيته على يسار الشارع ولكن لا يجد أحدًا. يركض هذه المرة باتجاه الطرف الآخر من المسجد، يجتاز البوابة الرئيسية نحو السياج الآخر للمسجد، حيث يوجد مدخل آخر لموقف السيارات يتوقع أن يكون هناك من يهرب من خلاله. يلهث. يقف أمام المدخل الجانبي للموقف. يطلق النار لكن لا نرى الأشخاص الذين يصوب تجاههم. يلتفت يمينًا وشمالًا.

ثم يقول للمتابعين، وهي أول جملة يقولها منذ أن بدأ إطلاق النار: يبدو أننا قد نحصل على الجائزة يا شباب[1].

يطلق النار مرة أخرى نحو نفس الجهة، ثم يدخل الموقف راكضًا نحو الباب الداخلي للمسجد.

يدخل، يمرُّ على الجثث. يصل إلى الحرم، هناك شخص كان يبدو أنه يحاول الوقوف، من المجموعة في يمين المسجد، يطلق عليه النار عدة مرات. لا يزال هناك أنين مسموع. يقترب من جهة اليمين ويطلق النار على الجميع فردًا فردًا ليتأكد من موتهم. تتحرك الأجساد بفعل الرصاص. هناك ما لا يقل عن عشرين جثة. نرى بينهم طفلًا صغيرًا، ثلاث سنوات أو أقل. وهناك شيخ كان قد جلس على كرسي لأنه لا يستطيع السجود. ثمة رجل قُتل وهو يضع يمينه على شماله كما لو أنه كان يصلي وقُتل وهو في نفس الوضع.

نلاحظ حركة بين الأجساد لم ينتبه لها فلم يصوب نحوها النار مجددًا.

هناك طفل ميت وبقيَ كما لو كان جالسًا مستندًا على الجدار. بجانبه رجل في نفس الوضع. غالبًا والده.

يضع مخزنًا جديدًا للرصاص وهو يتجه إلى الجهة الأخرى، يطلق النار في أثناء ذلك على الجثث التي في الوسط. يكرر نفس ما فعله. يطلق النار من مسافة قريبة على الجميع فردًا فردًا ليتأكد من موتهم. هناك شيخ يبدو أنه كان لا يزال على قيد الحياة. وطفل آخر ضمن هذه المجموعة.

---

(1) Looks like we might get the badge boys.

يخرج من المسجد إلى موقف السيارات. يرى سيدة تهرب من طرف الموقف على مقربة من حيث أوقف سيارته. يطلق النار عليها وتسقط. يخرج من الموقف إلى الشارع، السيدة سقطت أرضًا لكنها لا تزال حية وتصرخ. يطلق النار عليها مجددًا. يلتفت إلى اليمين ليرى إن كان هناك أحد آخر يحاول الهروب. يواصل طريقه إلى سيارته. السيدة سقطت على حافة الرصيف المقابل لسيارته بالضبط. عندما يقترب نسمع صوتها بوضوح: help me help me. بلكنة آسيوية. حذاؤها بجانبها كما لو كانت لا تريد أن تهرب حافية.

يطلق عليها رصاصتين. واحدة في رأسها. تتناثر أجزاء منه في الشارع.

يغلق صندوق سيارته ويفتح الباب ويدخل السيارة. من السيارة هناك صوت واضح لأغنية تقول كلماتها: أنا إله جهنم.

I am the god of hellfire[1].

يقود السيارة، يدهس السيدة في أثناء خروجه من الممر الضيق إلى الشارع الرئيسي. ينعطف إلى اليسار.

نحن الآن في الدقيقة 12 و30 ثانية من البث المباشر.

خمس دقائق و52 ثانية فقط هو الوقت الذي استغرقه في قتل كل من قتلهم في مسجد النور.

من Hello brother إلى Help me.

الساعة الآن 1:45 دقيقة ظهرًا.

نسمع كلمات الأغنية وهو يقود السيارة: نار، سأعطيك النار.

Fire I will give you fire.

---

(1) Fire by Arthur Brown.

يدخل معلومات في جهاز تحديد المواقع. ينوي الذهاب إلى مسجد لينوود على بعد ست كيلومترات.

يتحدث مع المتابعين: الأمر لم يسِر حسب الخطة. تبًّا.

يرى أشخاصًا يعتقد أنهم هربوا من المسجد أو أنهم مسلمين، يحمل البندقية وهو لا يزال يقود السيارة ويطلق عليهم النار من خلال الزجاج الأمامي الذي يتشقق، ولكن يبقى متماسكًا، ثم يرى شخصًا يرتدي ملابس باكستانية يقف بهدوء فيبطئ السيارة ويطلق عليه النار. لا نرى إن كان الرجل قد قُتل على الفور أم تمكَّن من الهرب.

الأغنية مستمرة. قيادته هذه المرة أسرع.

يضغط منبه السيارة بقوة ليستعجل مارة كانوا يعبرون أمامه. يقود بسرعة بينما كلمات الأغنية تقول: احترق احترق احترق.

يتحدث مع المتابعين: العوائق سقطت فورًا[1]... بمعزلٍ عن نوايا البشر، الشيء المهم هو سهولة الوصول (إلى الهدف)، عندما تصل إلى الهدف، لا يمكنك التوقف.

تمرُّ ثوانٍ من الصمت وهو يقود السيارة بنفس السرعة.

ثم يقول: أعتقد أني كان يجب أن أبقى أكثر. كان هناك وقت لاستخدام الوقود. كان عليَّ أن أحرق هذا المسجد اللعين تمامًا حتى الأرض...

ثم بنبرة تذمر: الأشياء السيئة تحدث[2].

يكمل: أعتقد أني تركت مخزن سلاح كامل واحد على الأقل هناك. ربما أكثر. لكن لم يكن من السهل الركض لحملها في أثناء إطلاق النار. كان هناك الكثير من الأهداف بحيث إني لم أضطر إلى التصويب. كان

---

(1) Lags dropped dead instantly تعبير معروف في ثقافة الألعاب

(2) Sh** happens. يوج

هناك الكثير من الأشخاص لدرجة أن موقف السيارات كان ممتلئًا. لم تكن هناك فرصة لحمل مخزن السلاح.

صوت سيارات إسعاف متداخل مع أغنية Gas Gas Gas.

يزيد من السرعة بوضوح كما لو أن صوت الإسعاف نبهه إلى ضرورة السرعة بتنفيذ مهمته التالية.

يقول شيئًا يبدو أنه عن ضرورة الإسراع قبل اكتشاف الحكومة للأمر. الجملة ليست واضحة مع ارتفاع صوت الأغنية.

يزيد من سرعته ويتجاوز كل السيارات بالعبور بينها، نسمع صوت المزيد من سيارات الإسعاف.

يوجه حديثه للمتابعين: الأمور كانت سهلة، كنت محظوظًا. ركضوا بسرعة. كانوا خائفين. النساء لم يكنَّ قد جئن بعد. لذا قتلت الرجال أولًا.

تقول كلمات الأغنية التي نسمعها بوضوح عندما يصمت هو:

سأضغط دواسة الوقود

هذه الليلة سأحلِّق

وأكون حبيبك

نعم، نعم، نعم

سأكون خاطفًا كوميض البرق

وسأكون بطلك

غاز، غاز، غاز

سأنطلق كلمحة برق

هذه الليلة سأقاتل

لأكون الفائز

نعم، نعم، نعم

سأضغط دواسة الوقود

وسترى العرض الكبير

يقف بسبب وجود سيارات متوقفة في جهتَي الطريق.

يقول مستعجلًا: هيَّا.

ثم يعاود الانطلاق ويتجاوز السيارات بسرعة.

في الدقيقة 16 و55 ثانية من البث المباشر، ينقطع البث.

لكنه يواصل رحلته إلى مسجد لينوود.

وقائع خارج البث المباشر

الساعة 1:41 دقيقة ظهرًا

أول اتصال طوارئ على الرقم 111 يَرِد من داخل المسجد.

الساعة 1:46 ظهرًا

تصل أولى وحدات الشرطة المسلحة إلى المسجد. يساعد أحد العناصر مصابًا حرجًا عند المدخل. كانت سيارة المهاجم تمرُّ قريبًا لكن لم يروها لوجود حافلة تحجب الرؤية.

الساعة 1:51 ظهرًا

تصل الشرطة وسيارات الإسعاف بأعداد كبيرة ويبدأ إسعاف الجرحى في الشارع والحديقة المقابلة.

في نفس الوقت يتوقف البث المباشر على الفيسبوك غالبًا بسبب بلاغات المستخدمين.

الساعة 1:52 ظهرًا

يصل المهاجم إلى مسجد لينووود بعد 6-7 دقائق من القيادة. لم تصل تحذيرات إلى المصلين في المسجد ولم يكونوا يعرفون ما حدث في مسجد النور. يركن سيارته أمام المخرج ليمنع فرار المصلين ويفتح النار فورًا على أشخاص في الخارج. ثم يطلق النار عبر نافذة جانبية في المسجد.

قُتل في هذا المسجد سبعة أشخاص.

الساعة 1:53 ظهرًا

تنفذ ذخيرته. يعود إلى السيارة ليجلب المزيد. هنا يتدخل أحد المصلين، عبد العزيز وهَّاب زاده، فيلاحق المهاجم ويصرخ عليه ليشتت انتباهه، ثم يرمي عليه جهاز دفعٍ إلكتروني[1] كان موجودًا في مدخل المسجد، فيصيبه بها، المهاجم يطلق النار على عبد العزيز فيصيبه ويحتمي الأخير خلف السيارات. هذا التشتيت يؤخر دخول المهاجم إلى المسجد مرة أخرى.

الساعة 1:54 ظهرًا

المهاجم يعود إلى المسجد ويواصل إطلاق النار داخل الردهات والباحات، حين تنفذ ذخيرته يهرع إلى السيارة، يرفع عبد العزيز بندقية فارغة كان المهاجم تركها على الأرض، يرميها على سيارة المهاجم فيكسر نافذتها الخلفية، الأمر الذي يربكه ويدفعه للفرار.

لاحقًا قال عبد العزيز إنه كان يريد فقط تشتيت انتباه المهاجم عن أطفاله الأربعة المختبئين في مدخل المسجد.

الساعة 1:55 ظهرًا

---

(1) جهاز EFTPOS: وهو جهاز يشبه جهاز الدفع بالبطاقة منتشر في نيوزيلندا ويوجد في المسجد لجمع التبرعات.

يغادر المهاجم المكان بسرعة تزيد على 100 كيلومتر في الساعة متجهًا نحو الجنوب. كان يخطط لهجوم ثالث على مسجد في مدينة آشبرتون على بعد 90 كيلومترًا كما أثبتت التحقيقات عند العثور على عنوان المسجد مسجلًا في جهاز تحديد المواقع.

الساعة 1:56 ظهرًا

تصل أولى البلاغات الرسمية عن إطلاق النار في لينوود إلى الشرطة.

الساعة 1:57 ظهرًا

الشرطة تتمكن من تعقب سيارة المهاجم وتسعى لإيقافه، بينما يقود هو بطريقة متهورة وأحيانًا باتجاه معاكس، لوحظ أنه كان يضحك ويتحدث مع الكاميرا في أثناء المطاردة. غالبًا كان يعتقد أن البث المباشر لا يزال فعالًا.

الساعة 1:59 ظهرًا

تتمكن الشرطة من إيقاف المهاجم عبر صدم سيارته على الطريق السريع رقم واحد، جنوب كرايستشيرش، وتُخرِج المهاجم من المركبة دون مقاومة تُذكر.

تسعة عشر دقيقة فقط، تفصل بين بدء المجزرة والقبض على المهاجم. بما فيها مدة الانتقال بين المسجدين.

لكنها تسعة عشر دقيقة كانت كافية لإنهاء حياة 51 شخصًا.

44 منهم في مسجد النور.

وسبعة في مسجد لينوود.

و89 مصابًا.

قبل ذلك وفي الساعة 1:42 ظهرًا

اختلطت على محمد إيهاب الأزمنة والأبعاد. لم يفهم ماذا يحدث بالضبط.

عندما وصل قبل 20 دقيقة تقريبًا، كان يريد أن يهرب من التفكير بما فعله أمجد. كان منهكًا ومرهقًا ومتوترًا من كل شيء. أسند ظهره على الحائط قرب النافذة في حرم المسجد فور وصوله. أغمض عينيه دون أن ينوي النوم. يريد أن يسترخي قليلًا فقط. أن يهرب من كل شيء. سرقته الغفوة دون أن يشعر. يسمع صوت الإمام وهو يلقي الخطبة بالعربية. يحاول أن يركز ويفتح عينيه. النوم يفسد الوضوء. لكنه سرعان ما يستسلم. كان جزءٌ منه لا يزال يشعر بما حوله في المسجد، يشعر بالأرض تحته. بالجدار خلفه. بصوت الإمام. لكن أغلب وعيه كان يتسرب بعيدًا. إلى دمشق التي أصبحت بعيدة جدًّا كما لو أنها غير موجودة. يرى نفسه أمام حاجز أمني. هذا حاجز الرازي. الحاجز الأسوأ في منطقتهم. شبيحة[1] يوقفون السرفيس الذي يركبه. عمر معه. أخوه أمجد أيضًا. يعرف أشخاصًا آخرين لكنه لا يذكر أسماءهم. الشبيح القبيح يطلب منه هويته. ينظر إليها باحتقار. ثم يكسرها. ويقول لمن

(1) **الشبيح (في اللهجة السورية)** :الشبيح هو شخص **مرتبط بالنظام أو أجهزته الأمنية**، يستخدم العنف والتهديد خارج إطار القانون، ويُعرف بالتشبيح: أي فرض القوة، الابتزاز، والاعتداء على الناس مستندًا إلى حماية أمنية أو نفوذ سياسي. الكلمة تحمل دلالة سلبية شديدة، وترتبط بالبلطجة المنظمة لا بالموقف السياسي فقط.

معه اشحطوه[1] على الفرع. لا بد أنه يقصد الفرع 215. يحاول الهرب لكنه يفشل. يصرخ بأمجد أن يهرب. عمر يحاول أن يدافع عنه. كما فعل دائمًا. يصرخ بهم. يشحطوه أيضًا. الفرع 215. كابوس كل السوريين. إن لم يكن الفرع 215 كابوسك فأنت شبيح. يغطون عينه بقطعة قماش رائحتها كريهة. لا يرى أي شيء. لكنه يسمع أصوات رصاص. صراخ. آهات. هل هناك حفلة إعدام جماعي بالفرع؟ شعر بشيء ساخن يمرُّ فيه. فتح عينه. الفرع غريب. غريب ومألوف في الوقت ذاته. يشبه حرم مسجد. سجاد أخضر. آخر ما كان يتخيله في الفرع 215. هناك شخص يرتدي ملابس عسكرية وخوذة على رأسه ويطلق النار. ها هو عمر يتقدم نحوه ويهاجمه من الخلف. هذا ما هو متوقع من عمر. الشجاع القبضاي مفتول العضلات. لا يخاف. كان يفعل الأفاعيل في المظاهرات. يغني فجأة بصوتٍ عالٍ متحدٍّ. يلعن روحك يا حافظ يلعن روحك. فيردد الجميع معه اللعن مع النغمة. ويجن جنون الشبيحة. يلعن روحك يا حافظ يلعن روحك. أجمل ما طُرب عليه السوريون منذ 2011. ماذا يحدث معه. هذا ليس عمر. هذا حسين العراقي. ابن الخطاطة زبونة المسلخ. حسين يشبه عمر بالفعل. سبق له وأن لاحظ أنه يشبه أحد ما ولم يعرف من. يشبه عمر. لكنه يبدو خجولًا. وجسمه رياضي أكثر من عمر. حسين يسقط أرضًا بعد أن يطلق الرجل عليه النار. هل مات؟ يشعر بشخص يسقط عليه بكل ثقله. لا يرى شيئًا. لكنه لا يزال مختلطًا بين عمر وحسين. عمر وهو يهتف في المظاهرات. عمر الذي كان يراعيه مثل أخٍ كبير تمنى لو كان موجودًا في حياته. يحميه من التنمر عندما كان بدينًا وبأربع عيون. عمر القبضاي الزغرت الشهم الذي تلاحقه عيون كل بنات الحارة. بقيَ وسيمًا حتى في صور قيصر.

(1) اشحطوه: اسحبوه سحلًا.

الله يرحمك يا عمر. ويرحمني. وحسين أيضًا.

لكن ماذا جاء بحسين العراقي في الفرع 215؟ هل مات حسين؟ هل هذا منام؟ ماذا يحدث؟

فجأة يراها قادمة من ناحية المحراب. يحيطها نور مهيب. ترتدي إسدال الصلاة الأبيض. يشم رائحتها. رائحتها التي بقيت في ملابس الصلاة حتى بعد أن ذهبت هي. أخذ إسدالها معه عندما غادر سوريا لتلطمه الدنيا في المنفى البعيد. تتقدم نحوه مبتسمة. منى فتالة. أمه. هل مات وذهب إلى الجنة؟ هل تستقبله أمه في الجنة؟ لا بد أن هذه هي الجنة. أي مكان فيه أمه هو الجنة. وأي مكان ليست فيه خلاء موحش. مثل الكرة الأرضية منذ أن رحلت. 15/8/ 2012.

أراد أن يمد يده نحوها ليلمسها ويتأكد أنها موجودة فعلًا. لكنها رفعت إصبعها إلى فمها كما لو أنها تقول له ألا يتحرك ولا يصدر أي صوت.

يهمس لها حاضر. كما قال لها آخر مرة رأته فيها. عندما طلبت منه ألا ينفق كل الـ 200 ليرة. لا يشتري السجائر. ويرجع لها 100 ليرة.

لكن هذه المرة سيسمع كلامها. لن يُصدر صوتًا ولن يتحرك، يبدو أن الأمر خطِر.

***

كان في بيت خالته عندما جاء الاتصال. توقع أنها إن خرجت من البيت فلن تأتي إلا إلى بيت خالته هذه. فذهب ينتظرها هناك.

أمك منى فتالة؟ العمر إلك.

قال له المتصل أن يأتي إلى مشفى الأسد الجامعي ليتعرف عليها.

لك شو عم تقول؟ صرخ به. ربما سبَّه وسبَّ الأسد أيضًا. ليس متأكدًا مما قال.

قال له المتصل إنه مجرد موظف. تعال إلى المشفى لتتأكد أنها هي فعلًا.

صرخ عليه مجددًا. أنت تكذب. لماذا تفعل هذا؟ من أنت؟

جاءت خالته على صوت صراخه. ماذا يحدث. قال لها بذهول ما قاله له المتصل الكذاب.

وجهها يدل على أنها صدقت الأمر فورًا. لا. كان يكذب بالتأكيد. أو ليس بالتأكيد. ربما كان يكذب. أو مجرد خطأ. فزع إلى الباب. الحل أن يذهب إلى المشفى ليتأكد وينهي الأمر. قالت له خالته أن ينتظر خاله ليأتي معه. مستحيل. أن يحرق نفسه الآن أسهل من انتظار خاله. خرج راكضًا إلى الشارع. تلفَّت يبحث عن أحد يأتي معه. أين أنت يا عمر. جمال. زياد. لا يريد أن يذهب بمفرده. لم يرَ أحدًا. انطلق يركض ويركض، عبر الشارع دون أن يلتفت ليرى إن كانت هناك سيارة قادمة. سمع صوت فرامل ومنبهات وشتائم. لم يلتفت. لن يركب المواصلات. لن يحتمل أن ينتظر أي سرفيس قادم. سيركض إلى المشفى. ذهب إلى طريق مختصر يمر بحديقة عامة مفتوحة. يركض ويركض. قال بصوت مرتفع. مستحيل. أمي لا يمكن أن تموت. هذا لن يحدث لي. ويركض. يلهث كما لو أن الأكسجين ينفد مع كل خطوة.

سمع صوتًا يناديه. إيهاب.

التفت. أبو ذياب بائع الفلافل في حارتهم. يجلس على الأرض ساندًا ظهره على شجرة، ويدخن. في رمضان. رغم كل ما يمر به لاحظ ذلك.

اقترب منه بينما قام أبو ذياب وقد أدرك أن الأمر جلل.

إيهاب، لماذا تركض؟

عصيُّ الدمع، ابن السادسة عشر الذي لُقِّن أن البكاء لا يليق بالرجال، قال بثبات: جاء اتصال أن أمي ماتت. وأنها في مشفى الجحش الجامعي.

نظر إليه أبو ذياب مصدومًا وسأله: أنت وحدك؟

لم يردَّ عليه. الجواب واضح. قال في نفسه: أرجوك تعال معي.

سأله: تريد أن آتي معك؟

داس على كرامته التي لا تقبل مساعدة من أحد وقال: نعم.

انطلق يركض مجددًا وأبو ذياب يحاول أن يجاريه. وصلا إلى مشفى الأسد الجامعي.

من السياج رأى جارتهم هدى. تقضي الصبحيات كل يوم مع أمه. وكان يعرف أنها كانت عندهم في البيت عندما حدث ما حدث. كانت بلا حجاب وعباءتها ملطخة بالدماء.

صاح بها، من خلف السياج: هدى، أين أمي؟

التفتت له. بدا عليها الرعب عندما شاهدته، ثم وضعت يديها على رأسها وأخذت تصرخ صراخًا لم يسمع مثله من قبل. كان أقرب إلى الصراخ البهيمي. التفَّ ودخل واقترب منها. بجانبها زوجها وأمها. لم يسلِّم ولم يقُل شيئًا. سألها مجددًا: هدى، أين أمي؟

كانت لا تزال تصرخ وقد وضعت يديها على رأسها. زادت وتيرة الصراخ عندما كرر السؤال كما لو أنها تردُّ عليه بلغة لا يفهمها.

سحبته أمها. كانت تبكي. قالت له: ابنتها شذى ماتت.

ثم سكتت قليلًا: وأمك أيضًا يا ابني.

جفل وابتعد عنها خطوة إلى الوراء كما لو أنه يخاف أن تصيبه عدوى تصديق ما قالته.

تركها راكضًا نحو استعلامات المشفى. سيتأكد الآن أن كل ذلك لم يحدث ويخرج ليطمئنهم. لحقه أبو ذياب.

سأل في الاستعلامات. لم يقُل إنه جاءه اتصال من المشفى عن موتها. سألهم أين يجد منى فتالة. ابحث في الطوارئ.

ذهب إلى الطوارئ. زحام وجرحى وفوضى. أراد أن يسألهم لكنه وجد نفسه يدخل ليبحث بنفسه.

لم يجدها. ثم سألهم.

بحثوا في الأسماء ثم قالوا: انزل تحت.

نزل إلى تحت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

وفي تحت قالوا له أن ينزل تحت.

في التحت الثاني الأمور أهدأ.

كانت المشرحة.

كان هناك موظف واحد قصير جدًّا، ويبدو كما لو أنه كان يعمل سابقًا في فرع أمني. نفس السحنة والنظرات العدائية. سأله عن منى فتالة. لم يسأله حقيقة. فقط قال منى فتالة.

هز الموظف برأسه إشارةً لم يفهم منها شيء. ثم سأله: ما هي قرابتك لها؟

قال ابنها.

طلب هويته. نظر إليها كما لو كان يريد أن يتأكد أنه ليس مطلوبًا.

تعال قال. تبعه أبو ذياب. سأله من أنت. قال جارهم. أشار إليه أن يبقى حيث هو.

دخل محمد إيهاب معه. صف طويل من الثلاجات. بضع خطوات ووقف الموظف. رأى ورقة ملصقة على باب الثلاجة. منى فتالة. 49 سنة. وعلى الثلاجة الأخرى كتب شذى سلامة. 9 سنوات.

الأخطاء تحدث. سمع بأشياء كثيرة مثل هذا. يظنون بأنها جثة لشخص ما ثم عند الاستلام يعرفون أنه ليس هو. ربما تشابه أسماء. ربما مجرد خطأ. لم يكن هناك أي أمثلة في ذهنه لما يقوله. فقط كان يتمنى أن يكون كل هذا مجرد خطأ سيصحح الآن. كابوس سيستيقظ منه على صوتها وهي تخبره أنه تأخر.

لا يزال عنده أمل. خيط رفيع. لكن لا يزال عنده أمل.

ثم فتح الموظف باب الثلاجة. في حركة واحدة، وقبل أن يرى محمد إيهاب ما في داخل الثلاجة، عرف أنها هي.

الموظف، أثنى ركبتيه قليلًا، وخفض كتفيه، كما سيحاول شخص يوشك على سحب شيء أثقل منه بكثير.

أمه ممتلئة.

قبل أن يسحب النقالة من داخل الثلاجة كان محمد إيهاب قد قطع خيط الأمل. إنها هي.

ثم سحبها. ترتدي نفس الثوب الذي كانت ترتديه عندما غادرها قبل ساعات. ثوب زهري بورود بيضاء. نصف كم. التفت إلى الموظف وقال له بحسم: لا يحق لك أن تنظر إليها وهي هكذا. لو سمحت ابتعد.

ابتعد بالفعل.

بقيَ محمد إيهاب لوحده للمرة الأخيرة مع منى فتالة. عدل شعرها. لمسها. كانت لا تزال ساخنة. عدل ثيابها. لم يعرف ماذا يفعل بعد. لم

يطلع له البكاء. بل طلع له الذهول. طلع له الفراغ المروِّع. ماذا سيفعل الآن وقد ماتت.

جاء الموظف وقال: تأكدت أنها هي؟ هز برأسه.

قال الموظف: إذن اخرج.

رد عليه: أريد أن أبقى معها قليلًا.

دفع الموظف النقالة دون أن ينطق ثم أغلق باب الثلاجة. بقيَ محمد إيهاب صامتًا يتأمل في باب الثلاجة والورقة التي كُتب عليها: منى فتالة. 49 سنة. الحضن الحنون في حياته في هذه الثلاجة الآن. وقد أغلقت بابها. يريد أن يسألها سؤالًا أخيرًا: ماذا سأفعل الآن من دونك؟ كيف سأعيش من دونك؟ لكن باب الثلاجة موصد. حياته لم تكن سعيدة. بل كانت تعيسة وبائسة. لكنها كانت الشيء الوحيد الذي يُخفف من هذا البؤس وهذه التعاسة. والآن رحلت.

أشار الموظف إلى الباب وقال: تفضل.

أشار إلى الثلاجة الأخرى وسأله: هذه بنت جارتنا، هل يمكنني أن أراها؟

لا يعرف إن كان يريد أن يراها فعلًا أم يريد أي حجة لكي يبقى أكثر بالقرب من أمه.

دفعه الموظف دفعًا إلى الخارج.

كان أبو ذياب ينتظره خارج غرفة الثلاجات. لم يسأله إن كانت هي. لكن كان جسد محمد إيهاب يقول كل شيء. وجهه ثابت مثل تمثال شمعي. لكن قدميه غير قادرتين لا على حمله ولا على الحركة، سنده أبو ذياب، وسار به كمن يساعد شخصًا كسيح الرجلين.

لا يزال مذهولًا لا يعرف ماذا يفعل. قبل ساعات فقط كان في عالم آخر وطلب منها 200 ليرة. الآن، هي في الثلاجة ولا تردُّ عليه.

قبل أن يخرجا من المشفى قال محمد إيهاب: ليست هي. لا يمكن أن تكون هي. أمي في البيت تعدُّ طعام الإفطار.

رأى الشفقة في عينَي أبي ذياب. طبع قبلة على جبينه واحتضنه وقال له مما يُقال في هذه الحالات. نظرة الشفقة أعادت له صوابه. إنها هي. للأسف هي.

على باب المشفى الخارجي كان لا يزال يتكئ على أبي ذياب. جاء أشخاص وعزوه. يعرفهم ولا يعرفهم. لكنه لا ينتبه لما يقولون ولا ينتبه لما كان يردُّ عليهم. كان يرد. لكن لا يعرف ماذا وكيف.

سأله أبو ذياب: أين الآن؟

قال: لا أعرف. ابن السادسة عشر لم يمر بموقف مماثل من قبل. لذا، لا يعرف.

عاد يسأله: هل لديك أقارب يسكنون بالقرب من هنا؟

نعم، بيت أختي في الشيخ سعد. لكني لن أستطيع الذهاب وأنا هكذا.

داس على كرامته وطلب منه أن يأخذ سيارة أجرة ويوصله إلى بيت شقيقته.

تكرم عينك. أكيد. ركب معه في سيارة الأجرة. كان هناك محلل سياسي في المذياع يقول إن أمريكا سلَّمت الملف السوري إلى روسيا وإن روسيا أعطت الضوء الأخضر لنظام الأسد كي يفعل ما يشاء للقضاء على المتمردين.

بدأ محمد إيهاب يحاول الاتصال بشقيقاته لإخبارهن. يحاول تذكر الأرقام لأن الهاتف الذي معه ليس له. اتصل بالشقيقة الأكبر. سألها أين

أنتِ. من معك. ثم قال لها بمنتهى الثبات إن أمها قد ماتت وإنه رآها للتو في المشفى. استدار سائق الأجرة فزعًا من الخبر الذي يُقال بهذا الثبات. أما شقيقته فقد صاحت وصرخت وأغلقت الهاتف في وجهه. ثم عادت واتصلت به وقالت له إنه كذاب وإنه أحول وإنه بأربع عيون وإنه لا يرى جيدًا أصلًا وأكيد لم تكن هي. كرر الاتصال ببقية الشقيقات. نفس الأسئلة ونفس الطريقة. هديل حامل في الشهر السابع. كانت بمفردها فطلب منها أن تذهب إلى جارتها وتتصل به من هناك. وعندما فعلت تحدث مع جارتها أولًا. نفس الثبات ونفس رد الفعل. وحدها شيماء كانت مثله. رد فعلها كان الثبات. كانت تتحدث مع نفسها كما لو أنها تتحدث مع أمها. رحتِ يا حبيبة قلبي؟ استشهدت العروس؟

اتصل به صهره زوج هديل وهو يصرخ به. مجنون أنت أم غبي أم لئيم. هل هناك أحد يفعل ما فعلت؟

سأله ماذا يريد منه؟ قال له كان يجب أن يقول إنها أُصيبت وفي العناية المشددة. وبعد ذلك يقول. تمهد يعني الخبر.

ربما كان على حق. ولكن لم يعلِّمه أحد ذلك. هذه أول مرة تموت أمه.

أراد أن يقول له: إن شاء الله عندما يأتي خبرك سأفعل ذلك.

لكنه قال له: حِل عني.

قبل أن يصل إلى بيت شقيقته عرف أن أخاه أمجد الذي كان في الدكان أسفل البيت قد خرج من الحارة. أمسكه الجنود واعتقلوا كل من بقيَ حيًّا ثم وضعوهم أمام الجدار وأخذوا يضربونهم ضربًا دمويًّا بكعوب أسلحتهم وبكل ما يمكن أن يُستخدم في الضرب حتى فتحوا رأس أمجد، ثم أركبوهم الحافلات لتأخذهم إلى مراكز الاعتقال، لكن كان هناك ضابط واحد بقيت لديه ذرة من الإنسانية. أو نسبة واحد بالمليون من ذرة من الإنسانية. رأى أمجد في الحافلة مُدمًّى ويبكي ويريد أمه.

قال إن هذا طفل ولا يجب أن يُعتقل، أخرجه من الحافلة وأوقف سيارة أجرة وأخبره أن يوصله إلى حيث يريد دون أن يأخذ أجرة.

ربما سيقف له هذا الموقف يومًا ما. دنيا أو آخرة.

عندما وصل إلى بيت شقيقته أخرج من جيبه ما ينقد به سائق الأجرة، لكن أبو ذياب أمسك بيده وأصرَّ أن يدفع هو. كرامته أبت ذلك. تحول الأمر بسرعة إلى مشاجرة كمناقرة بين ديكَين. حسم السائق الأمر وقال إنه لن يأخذ من أيٍّ منهما. وحلف أيمانًا مغلَّظة.

على الباب تقف شيماء وترحب بأبي ذياب كما لو كان ضيفًا قد جاء يبارك في مناسبة. تصر عليه أن يدخل ليأخذ ضيافته. ينظر إليها أبو ذياب وهو مشفق عليها أيضًا. يقول كلمات العزاء ويهرب.

تجمع الكل في بيت شقيقته شيماء. ليس بيتها تمامًا. بيت أهل زوجها. وحدها شيماء لا تزال مثله، متماسكة، أو مصدومة لم تستوعب ما حدث بحيث يبدو أنها متماسكة. بقية الشقيقات يبكين أمهن بصوتٍ عالٍ. أمجد كان الأعلى بكاءً. من فتحة في الدكان حيث كان مختبئًا رأى أمه تنزف والجنود يجرونها. ساقها معلَّقة ببقية جسدها بقطعة من اللحم. في الثانية عشرة، لا يزال مسموحًا له أن يبكي. ربما تمنى محمد إيهاب لو كان مكانه كي يبكي مثله بصوتٍ عالٍ.

بقيَ محمد إيهاب عصيَّ الدمع إلى أن تحدثت معه جدته. أم أمه.

طلبت أن تتحدث معه، قالت له: متأكد أنك شاهدت منى؟

هذا هو السؤال الذي يسأله الجميع. يتمنون أن يكون الجواب: لست متأكدًا. تشبهها. ربما ليست هي... شيء كهذا.

لكنه قال بحسم:

نعم. شاهدتها.

سمع صوت جدته، الذي يشبه صوت أمه كثيرًا: وِلي عليكِ يا منى. عشتِ مظلومة ومتِّ مظلومة.

هنا انفجر باكيًا كما لو أنه أخذ الإذن منها أن يزيح قناع الثبات.

كل هذا حدث قبل الثالثة ظهرًا.

بعد ساعة تقريبًا قال أمجد: أين أبي؟

في خضم مصيبة أمهم نسي الجميع أن يبحثوا عن الأب.

تفرَّق الأعمام والأصهار يبحثون في المشافي ومراكز الشرطة.

قرابة السابعة، اتصل به عمر.

قال له: صلِّ على النبي.

اللهم صلِّ عليه.

قال: زيد النبي صلاة.

عليه أفضل الصلاة والسلام.

قال له عمر: البقاء لله. وجدنا أباك ميتًا على درج بيتكم.

رصاصة واحدة في منتصف الجبهة. ربما للتسلية. ثم أحرقوا البيت واحترق جزء من ساق والده.

سلبوه فرصة أن يعتذر أبوه إليه على كل ما فعله فيه، حتى يستطيع أن يسامحه.

أن يغفر له. أن يفهم لماذا فعل ما كان يفعل. أن يقتنع أنه ربما كان يحبه.

قتلوه وهم يتسلون، وتركوا علاقته مع أبيه مفتوحة بأصعب الأسئلة.

في نفس اليوم فقد والده الذي تسبب بأكبر آلام حياته.

وفقد أمه التي كانت الشيء الوحيد الذي يخفف هذا الأذى.

بعد شهر واحد اعتقلوا عمر. ولم يخرج أبدًا.

أصبح وحيدًا.

في الشهر الفاصل بين مقتل أبويه واعتقال عمر ظهرت عليه الأعراض الأولى للصدفية.

شرحت له الطبيبة ما يحدث. جهازك المناعي أُصيب بصدمة ولم يعُد يفرق بين الجسم الغريب وخلايا الجسم وأخذ يتعامل مع خلايا جلده كما لو كانت جسمًا غريبًا.

فهم هو أن جهازه المناعي يرسل إليه رسالة تقول له إنه لن ينسى ما حدث أبدًا.

كما لو أنه كان بحاجة إلى تذكير.

الساعة 2:16 ظهرًا

كانت آلاء تشرف على تغليف الوجبة الأولى من الطلبات التي يجب أن يبدأ توصيلها بعد قليل. تدقق كثيرًا على المحافظة على حرارة هذه الوجبة أكثر من بقية هذه الوجبات. الزبائن عادة يطلبون وصول الطعام في وقت محدد، لكن ضيوفهم سيتأخرون حتمًا -خاصة يوم الجمعة لأنه يوم عمل- وعندما يأتون ويُقدم الطعام سيقولون أكل أم براء بارد. لا تسمح بهذا. تضاعِف من عدد رقائق الألمونيوم المستخدم وتضع كل شيء في حافظات حرارة خاصة يصطحبها سائق التوصيل معه، بل إنها كثيرًا ما كانت تعرض أن تبقى الحافظات الأساسية مع الزبائن على أن يرجعوها لاحقًا. كل شيء من أجل جودة الطعام وبقائه ساخنًا قدر الإمكان عند التقديم.

دخلت مساعدتها نسرين وقالت إن غلام -سائق التوصيل الأفغاني- كان يجب أن يكون هنا قبل دقائق وإنها تحاول أن تتصل به لكنه لا يرد.

نظرت إلى ساعتها. ربما كان لا يزال في الصلاة. ولكن بهذا الوقت تكون الصلاة قد انتهت. غلام ملتزم جدًّا في المواعيد. لم يكن سيبقى معها لو لم يكن كذلك. الالتزام بالوقت خط أحمر. إضافة إلى عشرين خط آخر، على الأقل.

نظرت إلى ساعتها. لا يزال هناك متسع من الوقت.

قالت: اتصلي بحميد الله. احتياطًا فقط. نستطيع أن نغير وجبة توصيله إلى غلام إن كان متاحًا.

ردت نسرين فورًا: اتصلت به. لم يردَّ أيضًا.

قالت آلاء وهي تضع حاويات الطعام المغلَّف في الحافظة الحرارية: حميد الله أيضًا؟ هل يصليان في نفس المسجد؟ لا بد أن الإمام أطال في الخطبة. لا يزال هناك وقت على أي حال. سننتظر قليلًا ونرى من منهما سيظهر أولًا.

وضعت نسرين وجه عدم الرضا وانسحبت دون أن تقول شيئًا وهي تحمل حافظات الحرارة. وجه تستخدمه عندما تشعر بوجود تقصير في العمل وتلاحظ أن آلاء تتساهل تجاهه. وجه مزعج ويُشعِر آلاء بالتقصير، هذا المطبخ مطبخها ومهنتها وباب رزقها هي، وهي من دربت نسرين واعتمدت عليها. إن كانت تتساهل بين الحين والآخر وتشعر بأن الأمر لا يستحق العصبية، فهذا حقها تمامًا، وهذا الوجه يبدو مزايدة مستفزة لها. ربما في يوم آخر كانت ستهدد وتتوعد غلام بالفصل. لكن ليس اليوم. لديها ما يكفي ولا يجب أن تستهلك أعصابها في معارك جانبية. سيأتي غلام أو حميد الله أو أي شخص آخر ويوصل الطلبيات على وقتها وكل شيء سيكون على ما يرام.

دخلت مكتبها الصغير الملحق بالمطبخ وقررت أن تراجع بعض الحسابات. أعدت كوبًا من القهوة السريعة التي بقيت ترفض الاعتراف بفاعليتها لسنوات أول قدومها إلى نيوزيلندا، ثم أدمنتها وأصبحت لا تتخيل الحياة دونها. فتحت هاتفها ووجدت رسالة من أسيل: هل يتيح الزوم أن تشدي شعر العروس لتتأكدي من أنه طبيعي وليس باروكة؟

قالت في نفسها: لو تُرك الأمر لي لسحلتها من شعرها. هي وأمها.

أرسلت إلى أسيل وجهًا ضاحكًا.

قالت أسيل: كيف الأمور عندكِ أم العريس؟

- ثماني ساعات على المواجهة. الله كريم.

- حاولي تسجيل الزوم، اقنعي براء بأنه من أجل الذكرى وهذا الكلام، ثم أرسليه إلينا.

لم تكن آلاء تعرف أن هذا ممكن. ولكن من المستبعد أن يقبل براء بذلك أصلًا. قد يبدو لطيفًا منها أن تسجل الأمر للذكرى، لكن هل سيصدق هذا؟

سمعت صوت جلبة وصراخ في الخارج.

دخلت نسرين راكضة وقالت: يقولون إن هناك إطلاق نار في مسجد النور.

لم تفهم آلاء الجملة. إطلاق نار في مسجد النور؟ بدت الجملة كما لو أنها قادمة من عالم آخر لا علاقة له بنيوزيلندا.

سألتها: ما معنى ذلك، وما معنى يقولون، من يقول؟

كانت نسرين على غير عادتها. متوترة وقلقة.

- على تويتر، فريق الكريكت البنغلاديشي.

مدت يدها إلى هاتفها واتصلت ببراء وهي تسأل: ما علاقة فريق الكريكت البنغلاديشي بالأمر؟

- هم في زيارة إلى كرايستشرش. وهربوا من المسجد.

براء هاتفه مغلق. يفعل ذلك عندما يدخل إلى المسجد عادة. لكن الآن؟ يجب أن تكون الصلاة قد انتهت الآن.

تتصل بيزن. لا يرد.

تعاود الاتصال ببراء. هاتفه مغلق أيضًا.

تقرب نسرين هاتفها وتُري آلاء التغريدة.

هربنا للتو من إطلاق نار حي في مسجد النور. القلوب تدق بشدة والرعب في كل مكان.

تنتبه آلاء لوقت التغريدة. 1:50 دقيقة. قبل أكثر من نصف ساعة.

تعاود الاتصال ببراء. هاتفه لا يزال مغلقًا.

ربما كانت مجرد مشاجرة تطورت إلى إطلاق نار. تقول لنفسها. لا يمكن أن يكون أكثر من هذا. هذه نيوزيلندا. بل حتى هذا لا يحدث فيها.

تتصل بيزن. لا يرد. تترك له رسالة صوتية. رد الآن. الآن.

تعيد الاتصال ببراء. الهاتف لا يزال مغلقًا. ربما الشرطة اعتقلت الجميع بعد حدوث إطلاق النار. لكن أن يُعتقل في يوم كهذا. هذا فأل سيء.

تطرد الفكرة من ذهنها. تتصل بمروة. لا ترد. طبعًا لا ترد. ومتى ردت أصلًا حتى ترد الآن.

تصلها رسالة من أيمن، صديق براء: خالة، سمعت أن هناك حادثًا في مسجد النور، أين براء؟

تسمع صراخًا من المطبخ، صوت نفيسة المميز، دراما على أقل الأشياء. هذه فرصتها لكي توتر الجميع وتنقل لهم العدوى. خرجت وقد قررت أن تطلب من الجميع الالتزام بالهدوء. ليس هذا وقت الانفعال. كانت تريد أن تقول لنفسها هذا، فقررت أن تقول لهم ذلك بصوتٍ عالٍ. عندما خرجت وجدت الأمر أكبر من مجرد صراخ نفيسة. كان الجميع في حالة هلع.

قالت: لا تقلقوا. غالبًا هو أمر محدود. سنعلم الآن.

كانت تأمل ذلك بالتأكيد. ظلَّت تكرر لنفسها: هذه نيوزيلندا. ليست بغداد ولا حلب. هذا لا يحدث هنا. لا يحدث هنا.

ترسل رسائل على الواتس آب على المجموعة. أين أنتم؟ ردوا عليَّ.

قالت لها نفيسة إن شقيقها أرسل رسالة صوتية وهو يلهث، كان قد وصل إلى المسجد وسمع صوت إطلاق النار فهرب وكان هناك من هرب مثله، ولكن هناك من خرج من المسجد وأخذ يطلق النار في الشارع على الهاربين.

لا. هذا كاذب بالتأكيد. الناس تحب المبالغة. يحبون لفت الانتباه فيبالغون فيما حدث لهم. شقيق نفيسة كذاب بالتأكيد. هي أيضًا كذابة. دراما وكذابة. ولا تطبخ بشكل متقَن. ستتخلص منها عندما ينتهي هذا الشيء كله.

تعاود الاتصال بالجميع. براء. يزن. مروة.

لم يتغير شيء في هواتفهم. هاتف براء مغلق. ويزن ومروة لا يردان.

ترسل إشارات استفهام على المجموعة. ردوا عليَّ.

شقيق نفيسة يكذب بالتأكيد. هذا لا يحدث في نيوزيلندا.

ترسل رسالة إلى أيمن: هل أنت متأكد؟

نسرين تتحدث بالهاتف.

تلتفت إلى آلاء وتقول لها كما لو كانت روبوتًا دُرِّب على الكلام: هذا حميد الله. يقول إنه وصل بالقرب من المسجد وشاهد جثة في الشارع وسمع صوت إطلاق نار وهرب.

جثة في الشارع؟ إذن إطلاق النار ليس في المسجد. هكذا تتغير الأخبار. ربما كانت هناك حادثة سرقة أو شيء كهذا بالقرب من المسجد، ولكن الناس تبالغ. هذا يحدث حتى في نيوزيلندا.

لم تقُل أي شيء من ذلك بصوت مرتفع. ما يهمها هو أن تقنع نفسها الآن بما تقوله لنفسها. لأنها ليست مقتنعة بما تقول.

عقلها يقول إن هذه نيوزيلندا وهذا لا يحدث فيها. وقلبها يقول لا علاقة لنيوزيلندا بالأمر. هذا حظكِ أيتها الغبية المكرودة[1].

تعاود الاتصال بالأرقام الثلاثة. لا شيء مختلف.

لو عرف الأبناء ما يفعلونه بنا بهواتفهم المغلقة وعدم ردهم على الاتصالات لعاشوا حياتهم وهم يستغفرون عن هذا الذنب. لكن الدنيا دوارة. سيرزقهم الله بأبناء يفعلون هذا بهم. عندها فقط سيعرفون.

صافية تصرخ من طرف المطبخ، الشرطة نشرت تغريدة على تويتر.

يتراكض الجميع نحوها ويتزاحمون على هاتفها.

الشرطة تتعامل حاليًّا مع بلاغات عن إطلاق نار في وسط مدينة كرايستشيرش حوالي الساعة 1:40 ظهرًا.

تم نشر شرطة مسلحة.

تحثُّ الشرطة أي شخص موجود في وسط كرايستشيرش على البقاء داخل الأماكن المغلقة، والإبلاغ فورًا عن أي سلوك مريب على الرقم 111.

التغريدة نُشرت توًّا. 2:35، والبلاغ عن إطلاق النار كان في 1:40. الأمر حدث منذ ساعة.

تفتح الواتس آب لتبحث عن آخر ظهور لبراء. 1:33. قبل إطلاق النار.

رسائلها لم تصل إليه.

يزن آخر ظهور له في 1:59. بعد إطلاق النار.

الرسائل وصلت إليه، ولكنها أرسلتها بعد آخر ظهور.

---

(1) مكرودة: سيئة الحظ باللهجة البغدادية.

مروة الحقيرة. آخر ظهور لها قبل دقائق فقط. ترى الرسائل ولا ترد. الحقيرة. أحقر حتى من عماتها. والله أحقر من عماتها.

قالت: لكنه لم يقُل مسجد النور. قال وسط المدينة. قد يكون أي مكان.

كانت تحاول أي شيء. أي شيء لكي تقنع نفسها بأن الأمر بعيد.

نظر إليها الجميع نظرة تعني بوضوح: لم تنفع المحاولة.

وماذا الآن؟ ننتظر الأخبار على تويتر؟ كنا نصعد إلى السطح لنتفرج على الغارات في بغداد. والآن أنتظر على تويتر؟

قالت صافية: هناك تحديث. أغلقوا كل المدارس الآن.

قررت أن تذهب فورًا إلى مسجد النور، ركضت إلى المكتب لتأخذ حقيبتها ومفتاح السيارة، ثم مرَّت بالجميع وهي تركض نحو الباب الخارجي حيث تقف السيارة. كانت لا تزال بالمئزر الخاص بالمطابخ وعلى رأسها غطاء الشعر الصحي، والكروكس لا يزال في قدميها.

سألتها نسرين وهي تسير خلفها: أين تذهبين؟

ردت وقد وصلت السيارة دون أن تلتفت: مسجد النور. أين تظنين؟

- لكن الشرطة طلبت أن نبقى في أماكننا ولا نخرج.

كانت قد جلست في مقعد السائق، أنزلت النافذة وقالت: لهذا بالذات يجب أن نخرج.

- والطلبات؟

رمقتها آلاء بنظرة معينة ثم قالت: إذا اتصل أصحابها، قولي لهم الشرطة طلبت منَّا ألا نخرج.

ثم انطلقت بالسيارة.

كانت تدعي بكل ما تتذكره من أدعية وهي تقود. أدعية الكرب والشدة وكل ما أسعفتها بها ذاكرتها. كل هذا سيمر. اليوم كله سيمر. في العاشرة سنلتقي بأهل دعاء. هذا كله سيمر.

ثم فكَّرت مع نفسها: إن كان براء بخير، سأقبل بزواجه من هذه الفتاة ولن أضع أي عراقيل... حتى لو كانت خالتها قد هربت مع نادل يوناني.

أعادت الاتصال بينما هي تقود السيارة بسرعة ستعرِّضها حتمًا لغرامة مرورية.

هاتف براء مغلق.

لكن هاتف يزن توقف عن الرنين بعد دقتين. هناك صوت حديث غير واضح.

- أمي، ماذا هناك، أنا في اجتماع مهم، سأتصل بكِ بعد أن أخرج.

قالها بصوت منخفض وبطريقة كما لو كان قد انحنى تحت الطاولة.

قالت له بسرعة: يزن. حدث إطلاق نار في مسجد النور. وأخوك هاتفه مغلق.

سكت لحظة. ثم سألها: ماذا تعنين؟ هل هذا مؤكد أم مجرد شائعات؟

- الشرطة أكدت الخبر قبل قليل، وأغلقت المدارس. أنا في الطريق إلى هناك.

- حسنًا، سأخرج الآن وألقاكِ هناك. اتصلي بي إن ردَّ عليك.

إشعار من مروة. تردُّ على الواتس. ماذا هناك؟ لمَ كل هذه الاتصالات. تتصل بها.

- أمي لا أستطيـ...

تقاطعها: هناك إطلاق نار في مسجد النور، براء هاتفه مغلق. اتصلي بـ (أبوكم) وأخبريه. يجب أن يعرف.

الساعة 3:00 ظهرًا

دلال تتصرف بغرابة. دخلت عليَّ مرتين وهي مرتبكة. وجهها ممتقع.

قالت أريد أن أطمئن عليك يا خالي.

أنا بخير.

لماذا لا تنام؟

لا أريد أن أنام.

طيب، أصبُّ لك تأكل وتنام بعدها؟

يأتي الأولاد من المدرسة وأتغدى معهم.

ارتبكت وقالت إن الأولاد سيتأخرون.

لماذا سيتأخرون؟

ارتبكت أكثر وقالت هناك عيد ميلاد سيحضرونه.

عيد ميلاد؟ دون أي حديث عنه سابقًا؟

متى يأتي غسان؟

قالت بصوت مختنق: إن شاء الله لا يتأخر.

صوتها مقلق. تحاول أن تمثل، ولكنها فاشلة. مثل جدتها. سبحان الله. حتى الفشل يمكن أن يورث.

كنت أريد أن أكلمه وأراضيه. قسوت عليه جدًّا في كلامي معه. رغم أنه محق في صدمته. أي شخص سيُصدم. ما كان يجب أن أقسو عليه.

هل اتصل غسان؟

لا. لم يتصل يا خال. لمَ لا تنام؟

اتصلي به وأخبريه: أبوك يريد أن يتحدث معك.

حسنًا قالت دون أن تتصل.

يا بنتي أقول لكِ اتصلي به.

تتصل وتضع الاتصال على الحاكية. لا يرد.

لا بد أنه مشغول في عمله. تأخر اليوم بسببي. أريد أن أطيِّب خاطره. كنت قاسيًا عليه. تعرفيننا نحن بيت أبو حجر، عندما نغضب، دمنا يفور ولا نعرف ماذا نقول.

هزَّت رأسها وكانت تريد أن تقول شيئًا لكن صوتها اختنق.

وضعها مقلق. هل تعرض غسان لحادث؟

شو مالك يا بنتي؟ شو صاير؟

هزت رأسها نافية وقالت لا شيء يا خال. لمَ لا تنام؟

تريده أن ينام إذن. لا بد أن هناك شيء تخفيه عنه.

قال لها إنه سينام. وتظاهر فعلًا بالنوم. سمعها تدخل الغرفة وتتأكد من نومه. ثم أسرعت بالخروج وسمع صوت محرك السيارة.

نهض من سريره وذهب إلى غرفة المعيشة. يشم رائحة شيء مقلق. لا. بل يشم رائحة كارثة. التجارب التي عاشها أورثته هذه الحاسة. يستطيع توقع أن ثمة كارثة قادمة. حتى لو لم تكن حاسته هذه صائبة، فسيكون هناك كارثة قادمة بكل الأحوال.

تفقَّد المطبخ. دلال لم تحضِّر طعام الغداء للأولاد. سخنت شيئًا على ما يبدو له فقط. لكنها لم تحضِّر شيئًا للأولاد. هذا ليس طبعها أبدًا. هناك شيء ما يجهله. شيء يشم رائحته.

فتح التلفاز. الشريط الأحمر الخاص بالأخبار العاجلة على كل القنوات. لا يستطيع أن يقرأ شيئًا. لعن الله الزمن. ذهب إلى غرفته وجلب نظارته وركز في الشريط الأحمر. إنجليزيته على (قده). لكن حتى القدر القليل كافٍ لمعرفة ما هو مكتوب في الشريط الأحمر. حدث إطلاق نار في مسجد في كرايستشيرش، كان هناك شيء عن المدارس والمستشفيات، ولكنه لم يفهمه. لوكداون. لا يعرف هذه الكلمة. بحث عن الزفت الجزيرة. طلع ونزل وأغلق التلفاز عدة مرات وكاد أن يحطم جهاز التحكم ثم وجدها. الجزيرة لا تزال نائمة. لكن هذا لا يعني أن إطلاق النار لم يحدث. كان يجب أن يكون مع غسان في المسجد. لكن ما حدث معه منعه. هو من قال له أن يذهب ويستغفر ربه.

اتصل بدلال. سألها ما معنى لوكداون.

جفلت من السؤال ولم ترد.

أعاد السؤال.

قالت له لقد أغلقوا المدارس والمستشفيات، كي لا يتعرض الأطفال إلى الخطر عند خروجهم.

هل تعرفين أي شيء عن غسان؟

ردت عليه: لا. لا أعرف أي شيء. لكنه لا يرد على الهاتف.

أين أنت الآن؟

قالت له إنها تحاول الوصول إلى مسجد النور لكن الشوارع حوله مغلقة.

سألها: لكن غسان لا يذهب في العادة إلى مسجد النور.

ردت: قال إنه سيذهب إلى هناك لأنه سيكون أقرب إلى الموقع الذي عليه أن يذهب إليه بعد الصلاة.

قال لها بحسم: تعالي الآن. أريد أن أكون معك. يجب أن أكون معك.

في أثناء ذلك ظهر الشريط الأحمر على الجزيرة.

أنباء مؤكدة عن حدوث إطلاق نار في مسجدَين في مدينة كرايستيرش في نيوزيلندا ووقوع عدد كبير من الإصابات.

الساعة 3:27 ظهرًا

بعد أن تم التأكد من أن عارف لم يُصَب بأي أذى، طُلب منه أن ينتظر جانبًا مع العوائل التي بدأت تتدفق على المنطقة المحيطة بالمسجد، بينما تم إغلاق المسجد ومحيطه بالكامل أمام الجميع باستثناء الشرطة وفِرق الإسعاف. وكالات الأنباء أحاطت بالمسجد وكان المراسلون يبثون تقاريرهم مباشرة من أمام المسجد. لكن الشرطة لم تكن تردُّ على أي سؤال يتعلَّق بعدد الضحايا أو المصابين. صمت مطبق.

حاول عارف أن يتسلل عبر كرسيه المتحرك معتمدًا على خصوصية وضعه. أوقفه الشرطي على بعد أمتار من المدخل الجانبي لموقف سيارات المسجد. لا يمكنك العبور.

- زوجتي هنا، في المسجد، أريد أن أتحدث معها لو سمحت سيدي.

قال عارف بلهجة مستعطفة أولًا.

رد عليه الشرطي بحزم: لا يمكن هذا يا سيدي. عُد إلى الخلف لو سمحت.

- جملة واحدة فقط. لا أكثر من هذا. نادِها لو سمحت. اسمها عابدة. A.B.I.D.A.

A for Apple. B for Ball. I for India. D for door. And A for Abida.

بنفس اللهجة المستعطفة.

- سيدي، هذا موقع جريمة. لا يمكنك أن تتواجد فيه. عد إلى الخلف لو سمحت.
- كل ما أريده هو أن أتحدث مع زوجتي. أعتقد لا يوجد شيء مخالف للقانون في هذا. هي ليست متهمة حتى تُعامل هكذا.

هذه المرة اللهجة مختلفة. آمرة، حاسمة، فيها غضب.

- سيدي، لا يمكنني أن أساعدك الآن، ربما لاحقًا يمكنك التحدث مع زوجتك، وهي بالتأكيد ليست متهمة. لكن لا يمكنني مساعدتك الآن. لا أريد أن أدفعك بعيدًا، لا تضطرني إلى ذلك.

لكن عارف لم يكترث له، عاد إلى الخلف بكرسيه قليلًا ثم قاده إلى الأمام متجاوزًا الشرطي وهو يصيح بصوت مرتفع: عابدة، عابدة، هل تسمعينني؟

لم تكن السيطرة عليه من قبل الشرطي صعبة، لكن عارف ضل يصرخ باسم عابدة مما جعل أفراد الشرطة يتجمعون حوله ويحاولون السيطرة عليه وتهدئته.

بالتدريج، تحول صوت عارف المرتفع إلى صوت نشيج وهو يقول: عابدة. عابدة. جانو[1] عابدة. جملة واحدة فقط يا جانو عابدة.

(1) جانو: كلمة تحبُّب بالبنغالية.

الساعة 3:30 ظهرًا

عندما انتشر خبر إطلاق النار في مسجد لينوود، تمنت لو أن الخبر الأول عن مسجد النور كان خاطئًا وأن المقصود هو لينوود. حاولت أن تقنع نفسها بذلك. لكن أصوات سيارات الإسعاف مع اقترابها من مسجد النور بدَّدت هذا الاحتمال.

اضطرت آلاء إلى أن تركن سيارتها بعيدًا وتكمل الطريق إلى مسجد النور سيرًا على الأقدام. كذلك فعل كثيرون. خلال ذلك كانت تفعل عدة أشياء في وقت واحد. تقرأ الأدعية في سرِّها. تتابع الأخبار. تتصل ببراء. تقول لنفسها إن هذا لا يحدث حقًّا.

في منتصف الطريق تقريبًا انتبهت لأنها لا تزال بمئزر العمل فخلعته ووضعته في حقيبتها كيفما اتفق. كان صوت سيارات الإسعاف مستمرًّا دون انقطاع، ومرت بها أكثر من سيارة إسعاف مسرعة، وكانت تقول مع نفسها: ربما كان براء فيها. كانت تدعو للجميع بالنجاة بقلب صادق.

عندما وصلت كانت الشرطة واضحة في عدم وجود فائدة من البقاء حول المسجد، (الجميع) نُقلوا إلى مستشفى كرايستشيرش، لا جواب عن عدد قتلى أو مصابين، لا جواب عن أي شيء تقريبًا ما دام الأمر (قيد التحقيق). حاولت أن تنظر من خلال السياج لترى إن كانت سيارة براء في موقف الجامع. لم تنجح بتمييزها. كل السيارات متشابهة بالنسبة لها. تميزها باللون فقط. وسيارته بيضاء. أكثر من نصف السيارات في الموقف كانت بيضاء. يزن يستطيع أن يميزها. اتصلت بيزن وأخبرته

أن يتجه إلى المستشفى لأن لا فائدة من مجيئه الآن. لقد نقلوا (الجميع) إلى المشفى.

قال لها يزن: يبدو أن الأمر أكبر بكثير مما تصورنا.

- ماذا تقصد؟

- يُقال إن الشرطة عثرت على عبوات متفجرة أو شيء كهذا. لكنها أبطلت مفعولها. يبدو أن هناك حملة ضد المساجد.

شعرت بأنها شاهدت هذا الفيلم من قبل. ثم تذكرت أن السياج يشبه سياجًا آخر في بغداد، وأن انتظار الخبر في المستشفيات يشبه انتظارًا آخر مرت به وحاولت أن تهرب بأولادها منه، ولكن يبدو أنه طاردها حتى أقصى جنوب الكرة الأرضية.

تذكرت حِكمًا وقصصًا عن الموت الذي يأتي في موعده بلا تأخير. لا. لا. طردت الفكرة من ذهنها. لا تريد أن تتذكر هذا أصلًا. عادت إلى الأدعية وإقناع نفسها بأن هذا لا يحدث. وأنه لا يمكن أن يحدث.

لكن هاتف براء لا يزال مغلقًا.

عادت إلى سيارتها وهي تحمل كل ذلك في وفوق رأسها. كانت رغم كل شيء لا تزال متماسكة على الأقل من الخارج. فتحت المذياع فورًا، وكان هناك أول تصريح من رئيسة الوزراء جاسيندا آرديرن عما حدث في كرايستشيرش.

كان هذا عملًا من العنف الاستثنائي وغير المسبوق. ولا مكان له في نيوزيلندا.

إنه أحد أكثر الأيام ظلامًا في تاريخ نيوزيلندا.

أغلب ضحايا هذا العمل العنيف المتطرف هم من اللاجئين والمهاجرين الذي جاؤوا إلى بلدنا.

نيوزيلندا هي وطنهم. هم نحن. They are us.

أما الشخص أو الأشخاص الذين نفَّذوا هذا العمل غير المسبوق من العنف فليسوا منَّا. *مكتبة سُر مَن قرأ*

ولا مكان لهم في وطننا.

انهمرت دموع آلاء وهي تسمع تصريح رئيسة الوزراء. التصريح داعم وسريع وجيد وكل شيء حسب الأصول. لكن جملة (أحد أكثر الأيام ظلامًا في تاريخ نيوزيلندا) أرعبتها حد البكاء.

كانت تعتقد أن أكثر الأيام ظلامًا في تاريخها الشخصي قد أصبحت وراءها. مرت به وعانت منه وانتهى الأمر. نالت نصيبها من الظلام الدامس وكل الأيام التالية، مهما كانت صعبة أو مظلمة فلن تكون الأكثر ظلامًا.

الآن يبدو أن هناك ما هو أكثر ظلامًا. لو حصل مكروه لبراء.

هذا يجعل كل خطتها للهروب من العراق بلا معنى. كل ما فعلته بلا هدف. لم يكن هذا اتفاقنا يا نيوزيلندا. لم يكن هذا الاحتمال مدرَجًا في استمارة اللجوء. أستغفر الله. لا. هذا لا يحدث. لا يحدث.

اتصل بها يزن: سمعتِ تصريح آرديرن؟ الأمر يبدو كبيرًا كما تصورت.

كبير أو صغير. لا يهم. تريد أن يكون براء بخير. لكن واضح أن يزن لديه شيء آخر يريد أن يقوله. لم يتصل ليعلِّق على تصريح رئيسة الوزراء.

- أمي، أريد أن أحذركِ من رابط منتشر على المواقع يقوم بتعطيل الأجهزة. لا تفتحي أي رابط. لا نريد للتواصل بيننا أن ينقطع.

- يزن، هل جننت؟ أي رابط هذا الذي سأفتحه الآن؟ بأي حالٍ أنا كي أفتح روابط؟

- اسمعي مني يا أمي. الرابط منتشر حتى على بعض المواقع الإخبارية بطريقة توحي أنه مرتبط بالأمر.

رابط يعطل الأجهزة؟ هل يمكن أن يكون براء قد فتح الرابط وتعطل جهازه وهو بخير عدا ذلك. عاد الأمل فجأة. يحطم المنطق ويتعلَّق بالاحتمالات.

- متى انتشر الرابط؟ قبل أم بعد الحادث؟ هل يمكن أن يكون هاتف براء معطل بسببه؟

سكت قليلًا ثم قال: الرابط انتشر بعد الحادث يا أمي.

صوته كان غريبًا هذه المرة.

سمعت صوت بكاء بالقرب منه.

- أين أنت؟

- في البيت، سآخذ مروة ونأتي إلى المستشفى.

هذا صوت بكاء مروة؟ لا تزال قادرة على البكاء إذن.

- أين أبوكم؟ لمَ لمْ يتصل أو يظهر حتى الآن؟

سكت براء ولم يرد.

- أخبِره أن يأتي إلى المشفى. ليس من المعقول أن أكون وحدي في شيء كهذا.

- حسنًا إن شاء الله. سنلتقي هناك.

في هذه الأثناء كان الخبر قد انتشر في كل العالم. اتصلت شقيقتاها بفزع. أجابتهما إن براء كان في المسجد ولا أعرف شيئًا بعد.

ثم طلبت منهما الدعاء.

الساعة 4:21 ظهرًا

دلال تحاول أن تجد طرقًا غير مغلقة إلى المشفى. اضطرت إلى العودة لأخذ خالها بعد أن اتصل بها. كانت قلقة على بقائه وحيدًا في المنزل، وقلقة على بقاء الأولاد في المدرسة بعد أن أُغلقت، وقلقة على غسان الذي لا يرد. لاحظت أن الخال موسى يبدو أكثر هدوءًا منها ثم تذكرت أنه قد تناول حبة آتيفان قبل ساعات ويبدو أن أثرها لا يزال فاعلًا فيه. تمنت لو أنها أخذت العلبة معها عندما رجعت إلى البيت لتأخذ الحاج موسى. تحتاج إلى مهدئ أكثر منه. حاولت أن تشغل نفسها بأي شيء يبعدها عن التفكير في احتمالية أن يكون قد حدث مكروه لغسان. لا تستطيع أن تتخيل ماذا ستفعل في حياتها من دونه. منذ أن تزوجت في الثامنة عشر وجاءت نيوزيلندا وغسان والأولاد حرفيًّا كل عالمها. عدا الإنجليزية وتعلُّم قيادة السيارة، لم تتعلم شيئًا. لا تتقن شيئًا في هذه الدنيا غير رعاية البيت والأولاد. أن تتخيل نفسها مشلولة صماء بكماء أهون عليها من أن تتخيل حدوث مكروه لغسان. حدوث مكروه. حتى مع نفسها لا تقول الكلمة الأكبر التي تقصدها بالمكروه الذي تعنيه.

تغيِّر محطات الإذاعة وهي تقود السيارة لعلَّها تسمع خبرًا فيه بعض الضوء في الظلمة الدامسة. الأخبار تبدو مرعبة، هناك تخوُّف من استهداف أكبر للمساجد، عبوات ناسفة، اعتقال أربعة أشخاص يُشتبه في تورطهم، هناك فيديو فيه اعتقال لشخص يُقال إنه المجرم الذي ارتكب المجزرة. وهناك دعوات الحكومة إلى عدم التجول والبقاء في البيت.

لا أحد يقول أي شيء عن أرقام الضحايا. قتلى أو مصابين. لكن المكتوب واضح من عنوانه، بالعقل، هل يمكن أن تقول جاسيندا إن هذا يوم من أسوأ أيام نيوزيلندا إن لم يكن هناك عدد كبير من الضحايا؟

الحاج يبدو ساهمًا متأملًا في عالم آخر.

سألها: هل تعرفين لماذا اختار لكِ والدك اسم دلال؟

هنيئًا لك أثر الآتيفان يا خال.

- الشهيدة دلال المغربي.

قالت ذلك بحذر. لا تعرف أين سيقود الحديث.

- نعم، دلال المغربي، والدها من يافا أيضًا، من حيِّنا، حي المنشية، قادت مجموعة اختطفت حافلة وتجوَّلت بين يافا وتل أبيب وهي تحمل العلم الفلسطيني.

سكتت دلال. تعرف القصة مع زياداتها أيضًا.

- وتعرفين على من أسميت غسان؟

قالت بتردد: غسان كنفاني؟

- لا. أخوه، غسان الأول، أسميته على غسان كنفاني، أما هو فقد أسميته على اسم أخيه، غسان أبو حجر.

سكتت دلال قليلًا لتستوعب ما قاله الحاج. تعرف أن الحاج كان له أبناء ماتوا من زواج سابق، لكن لا يتحدث أحد عن ذلك. عندما وُلدت هي كان ذلك قد أصبح جزءًا من ماضٍ لا يريد أحد الحديث عنه. لكنها لم تعرف أن ابن الحاج كان اسمه غسان أيضًا.

أكمل الحاج: وُلد بعد شهرين من استشهاد غسان كنفاني، واستُشهد في نفس الشهر الذي أتمَّ فيه العاشرة، في ال 82. تعرفين طبعًا أن غسان كنفاني كان من بلدياتنا أيضًا، ودارهم كانت جنب دارنا. أخوه

عدنان كان معي في المدرسة. كان أطول واحد في الفصل. وكنا نتنافس أنا وهو على بنت واحدة، اسمها سعاد... لكن خالكِ انتصر في النهاية.

قالها ضاحكًا مع فخر.

الآتيفان وسنينه يا خال.

ثم أكمل: نسمي أولادنا على أسماء الشهداء، فيُستشهدون، فننجب غيرهم، ونسميهم على اسم من يُستشهد، فيُستشهدون أيضًا. وهكذا...

كانت متأكدة منذ السؤال الأول أنه سيصل إلى هنا، لكنها لم تستطِع منعه.

أمسكت بيده: لا تكمل يا خال، لا تكمل أرجوك، صلِّ على النبي ولا تكمل.

قال كما لو كان يتحدث مع نفسه: كان يجب أن أكون معه. على الأقل. أو أن أكون بدلًا منه. يصلي في مسجد آخر قريب من عمله...

عضت دلال على شفتيها وقالت: صلِّ على النبي يا خال.

قال الحاج: اللهم صلِّ وسلِّم عليه وأنتِ أيضًا صلِّ عليه.

صلَّت على النبي، ليس مرة واحدة، بقيت تتمتم بالصلاة عليه. كانت تحتاج إلى ذلك أكثر من أي مهدئ. أكثر من علبة آتيفان كاملة. كانت تحتاج إلى ذلك لكي يمر هذا اليوم بكل ما سيحمله إلى حياتها.

قبل أن تصل إلى المستشفى، وصلت رسالة على الواتس من شقيقتها وصال في عمَّان.

استيقظ الناس في الشرق الأوسط. أخيرًا. كانت تنتظر ذلك. تشعر بحاجة إلى مشاركة مخاوفها مع شقيقاتها هناك. لم ترسل أي شيء إلى أحد أو إلى مجموعة العائلة. كانت تأمل أن تنتهي القصة قبل أن يحين

موعد استيقاظهم، غالبًا على صلاة الفجر للبعض، وبعدها بساعات للبعض الآخر.

كانت دلال قد وضعت الهاتف على الحامل الملصَق بالزجاج الأمامي لكي تستطيع متابعة تعليمات جهاز تحديد الموقع، رأت الرسالة وضغطت عليها.

كانت وصال تقول: ماذا يحدث عندكم؟ طمنونا عنكم.

ثم رسالة لاحقة فورًا: هل شاهدتِ هذا؟

وكان هناك رابط مرفق.

الساعة 4:32 بعد الظهر

خُيِّل لآلاء أن كل مسلمي كرايستشيرش قد تجمعوا في المشفى. لم ترَ هذا العدد لا في عيد ولا في أي مناسبة أخرى. كان هناك زحام شديد، ولكن دون فوضى. ثمة كراسي كافية، ومناضد جلس إليها موظفون يقومون باستلام أسماء من يعتقد ذووهم أنهم كانوا في المسجدَين في أثناء إطلاق النار، ولم ينجحوا في التواصل معهم بعد ذلك. لم يستغرق الأمر طويلًا. طلبوا ذكر الاسم كاملًا وأخذوا نسخة من صورة كانت معها على الجوال، الطول والوزن والعلامات الفارقة. أعطت كل المعلومات بهدوء ورسمية، ولكن قلبها كان مثل طائر جريح، مع كل معلومة. لسانها يقول 182 سم. وقلبها يقول أروح فدوة[1] لطوله. لسانها يقول وزنه 77 كيلوغرام. وقلبها يريد أن يبوح بمحاولاتها المستميتة لكي يُضيف بضعة كيلوغرامات على هذا الطول. العلامات الفارقة. لسانها يقول شامة تحت أذنه اليمنى وبقعة جلدية مختلفة اللون في ساقه اليسار. لكن قلبها يريد أن يقول كم كانت فرِحةً بالشامة لأنها نسخة طبق الأصل مما كان تحت الأذن اليمنى لوالدها. أما البقعة الجلدية فكانت جرحًا في قلبها، انسكب الماء المغلي على ساق براء عندما كان في السابعة، وترك أثرًا حتى كبر، وبقيت تشعر بالذنب كلما رأته أو تذكرت ما حدث.

جلست تنتظر ما سيحدث. الناس حولها في ثلاثة أحوال: ذهول دون أن يظهر رد فعل واضح. حزن مكتوم واضح على الوجه أو مُعلَن

(1) فدوة: فداء باللهجة العراقية.

عبر البكاء والنحيب. أو غضب. غضب يريد أن يفهم لماذا. يريد أن يجد المنطق فيما حدث.

كانت في الذهول، ولكن على حافة الغضب. لا تزال بعيدة عن الحزن. يحتاج الحزن إلى استيعاب للموقف وفهم للنتائج، وهي بعيدة عن ذلك. لا يزال لديها أمل أن يخرج براء الآن من الباب وفي يده ضمادة صغيرة ويقول أمي آسف انتهى شحن هاتفي.

كانت تسمع حديثًا بين الناس حولها عن (فيديو البث المباشر) ولكنها لم تفهم عما يتحدثون وتوقعت أن يكون المقصود هو بث مباشر لمؤتمر صحفي يُفترض أن يحدث بعد قليل. فتحت الهاتف على تطبيق القرآن وأخذت تقرأ في انتظار يزن ومروة. لكن أين نزار؟ لعلَّه معهم. كان يُفترض أن يتصل بها.

بعد قليل جاء يزن ومروة. جلس يزن جانبها ولم تجد مروة كرسيًّا فارغًا فجلست خلفهما. كانت عيناها متورمتين من البكاء. يزن كان متوترًا ومن الواضح أنه بكى أيضًا.

- اتصلت بأبيك؟

- أمي، أبي كان في المسجد مع براء.

لم يخطر هذا ببالها. على أيامها لم يكن يصلي الجمعة.

- كيف عرفت؟

- من براء. كتب تغريدة على تويتر وسألته عنها فقال لي إن أبي سيكون في الصلاة.

- تغريدة على تويتر؟ عمَّ تتحدث؟

فتح يزن هاتفه على تغريدة براء. Better late than never.

- سألته ماذا يقصد، فكتب لي أبوك يريد أن يراني وسيلتقيني في المسجد وقد نتغدى معًا، وأبي هاتفه مغلق أيضًا منذ ذلك الحين.

سكتت قليلًا وهي لا تعرف كيف تحدد موقفها تجاه هذا. قالت مع نفسها: أم حسين، كنتِ بواحد، صرتِ باثنين[1].

قالت ليزن: إذن عليك أن تعطي اسمه ومواصفاته هناك. لِمَ لَمْ تخبرني قبل ذلك؟ منذ ساعات أقول لك اتصل بأبيك.

- لم أنتبه لرد براء. سألته على تويتر وردَّ على تويتر.

- ومنذ متى وأبوك يذهب إلى الصلاة؟

كانت تريد أن تقول شيئًا أكثر لؤمًا. مثل: منذ متى نزل عليه الإيمان، لكنها أحجمت.

رغم التخفيف ضربت جملتها وترًا عند مروة: كفى يا أمي كفى. كفى سخرية ولومًا ولؤمًا. ألا ترين ما أوصلتِنا إليه؟

قالتها وهي تكز على أسنانها. لم يكن الأمر معارضةً لها على أي شيء كما في كل مرة. هذه المرة كانت تقصد شيئًا أكبر.

- من تحدث معك أنتِ؟ ماذا تقصدين ما أوصلتكم إليه؟

- أنتِ من أوصلتِنا إلى هنا. أنتِ شجعت براء على التديُّن كي تسيطري عليه ببرِّ الوالدين والخوف من العقوق. وانظري إلى أين وصلنا. ما حدث لبراء كان بسببك أنتِ. لولاكِ ربما لم يكن ذهب إلى الصلاة.

فكرت في أن تصفعها صفعة تفقدها السمع. أو تقوم لها فتجعلها قملة مفروكة.

---

(1) مثل عراقي عن توالي المصائب.

بدلًا عن ذلك قالت بصوت منخفض، أقرب إلى همس الأفاعي والشرر يتطاير من عينيها: اسمعي يا مروة، سأعتبر أنكِ لم تقولي وأني لم أسمع، ولكن لو أعدتِ ما قلتِ، فقسمًا بالله العلي العظيم، وبغلاوة ومعزَّة براء الذي لا نعرف مصيره، سأجعلكِ تندمين ليس على الساعة التي قلتِ هذا فيها، بل على الساعة التي ولُدتِ فيها. تعرفين شرِّي، فاتقيه.

الكلمات أخافت مروة فعلًا، لكنها لم تستطِع أن تمرر الموقف دون رد: نعم أعرف شرَّكِ، لا أعرف غيره.

- إذن اتقيه يا غبية.

تدخَّل يزن: كفى يا مروة. لو سمحتِ. هذا ليس وقته.

ساد صمت قصير متوتر. طلب يزن من مروة أن تجلب قهوة من الماكينة. قامت وهي تتأفف.

- أمي، هناك شيء يجب أن تعرفيه.

التفتت له ووجهها لا يزال متأثرًا بما قالته مروة. ليس سهلًا تناسي ذلك.

- أمي، المجرم الذي نفذ العملية، كان يقوم ببث مباشر على الفيسبوك في أثناء ذلك.

إذن هذا هو الرابط الذي حذرها من فتحه كي لا يعطل هاتفها.

وهذا هو الفيديو الذي يتحدث عنه من حولها.

- هل شاهدته؟

هز رأسه.

- ... و؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

قلبها يدق في الفراغ، منتظرًا جواب يزن. العالم يتوقف عن الدوران. لا صوت في القاعة تستطيع تمييزه. ذهب سمعها ولم تعُد تسمع غير دقات قلبها.

وهبطت دمعتان من عين يزن.

ثم احتضنها وهو يجهش بالبكاء.

الساعة 5:00 عصرًا

من المقر الوطني للشرطة في ويلنغتون، عقد مأمور الشرطة مايك بوش مؤتمرًا صحفيًّا متلفزًا، في أول تفصيل رسمي قدمته السلطات منذ وقوع الهجومين. قال إن هناك عددًا (كبيرًا) من الضحايا، ولكنه لم يُحدد رقمًا دقيقًا. قال أيضًا إن هناك أربعة مشتبه فيهم تم اعتقالهم، ثلاثة رجال وامرأة، وإنه تم ضبط بعض معدات التفجير في سيارة أحد المشتبه فيهم كما أكَّد أن العمل جاري للتحقيق في وجود المزيد من المشتبه فيهم ممن يمكن أن يكونوا قد ساهموا في العملية.

شدد خلال المؤتمر على وضع كل الجهود والموارد الممكنة لمساعدة أهالي الضحايا وأحبتهم في هذا الظرف الذي لم تعرفه نيوزيلندا من قبل.

عندما سأله الصحفيون عن معرفته بفيديو يصور العملية، أكَّد معرفته بذلك وقال: نعمل على إزالته.

وفي جوابه عن سؤال إذا كان يمكن تصنيف هذا العمل كعمل إرهابي، قال: لسنا بصدد هذا الآن، لكن هذا الذي حدث هو أخطر ما يمكن أن يحدث في نيوزيلندا.

في ذات الوقت كانت وسائل الإعلام تتداول رقمًا للضحايا الذين قضوا في الهجومين: 40 قتيلًا.

الساعة 5:27 عصرًا

عندما وصل عارف إلى المشفى قدَّم أوصاف عابدة ومعلوماتها، ثم أخذ يكرر وبإصرار رغبته في أن يراها ويتحدث معها ولو بجملة واحدة فقط.

كانت فرق الدعم النفسي قد وصلت لمساعدة ذوي الضحايا الذين يمكن أن يكونوا بحاجة إلى إرشاد نفسي في هذه الساعات العصيبة من الشك وعدم اليقين بمصير أحبابهم. وكان عارف -في الوضعية التي كان عليها- يبدو كما لو كان بحاجة ماسة إلى الدعم النفسي.

جاءته متطوعة شابة وقدمت نفسها، كريستين، من فريق الدعم النفسي، ثم سألته إن كان يفضِّل أن يتحدث رجل معه، لأسباب دينية.

فقال إنه على العكس يفضِّل أن تكون امرأة كي توصل لعابدة ما يريد قوله لها إن تعذَّر دخوله إلى حيث هي.

جارته كريستين فيما أراده وطلبت منه أن يحاول وصف مشاعره في هذه اللحظة.

استغرب السؤال، أنا بخير، لم أُصَب بشيء، فقط أريد أن أتحدث مع زوجتي. أطمئنها أولًا على ابنتنا سامية، لا تزال في المدرسة لأنهم أغلقوا المدارس على الطلاب حفاظًا على سلامتهم، وأريد أن أخبرها إني فهمت الآن كل شيء، وإن سنة مواليدها غير مهمة عندي لا الآن ولا في أي وقت، وإني كنت سأقبل بها زوجة، حتى لو كنت أعرف سنة مواليدها الحقيقية.

بدا على كريستين أنها تصورت أن عارف تحت تأثير الصدمة لدرجة أنه فقد قدرته على التفكير السليم وتكوين جمل منطقية.

سألَته إن كان يتناول أدوية بشكل منتظم، فأخبرها أنه يفضِّل الأعشاب الطبية إذا أُصيب بالزكام أو شيء كهذا، وقال إنه شُخِّص فترة ما بأنه في مرحلة قريبة من مرض السكري لكنه سيطر على ذلك بالحمية والحمد لله.

أعادت كريستين سؤاله عما يريد إخبار زوجته به، فأعاد نفس الكلام الذي بدا لها غريبًا.

قال لها: دعيني أشرح لكِ منذ البداية، اسمي عارف وأنا من بنغلاديش، زوجتي عابدة جاءت من مدينة سيلهت في بنغلاديش، لم أكن أعرفها قبل أن تأتي، كان زواجًا مرتبًا كما تسمونه هنا، عابدة لطيفة جدًّا، تساعد الجميع، تحاول إرضاء الجميع وإسعادهم، لا تهدأ أبدًا، تذهب هنا وتذهب هناك، لطيفة مع الجميع، لو جاءت الآن ستكون لطيفة جدًّا معك وتقول لكِ أشياء جميلة وستحبينها بالتأكيد. هي هكذا مع الكل، لطيفة مع الكل، إلا الباكستانيين. تكرههم. لا تحتملهم ولا تحتمل طعامهم ولا شكلهم ولا رائحتهم. أعرف أن هذا الكلام مرفوض لأنه عنصرية وهذه الأشياء، لكنها لا تقول أي شيء سيء عنهم، لم أسمعها مرة تقول شيئًا عن ذلك، لكني كنت أعرف، الزوج يعرف زوجته عندما لا تكون راضية، تعرفين أنتِ أيضًا، الرجال يسألون زوجاتهم: ماذا هناك، فترد الزوجة: لا شيء. لكن وجهها يقرأ كل شيء. كذلك عابدة. يمكنني أن أعرف عندما تكون متضايقة، وعندما أرى ذلك، أعرف أن هناك باكستانيًّا في الجوار.

لم أكن أعرف السبب، مادام سألت نفسي كيف يمكن لها أن تكون لطيفة مع الجميع، إلا شعب كامل. لم أعرف السبب. اليوم فهمت كل شيء. لم أقصد ذلك. لكنه حدث. وأريد أن أخبرها إني فهمت كل شيء،

وإني لا أهتم بسنة ميلادها. هذا كل شيء. هل يمكنكِ أن تقولي لها ذلك؟ ستفهم هي بمجرد أن تخبريها بما قلته.

قالت له كريستين: لكن عليَّ أن أفهم ما علاقة سنة الولادة بالباكستانيين بمسامحتك لها؟

- حسنًا، سأخبرك، ولكن عديني أن يبقى الأمر سرًّا بيننا، هذا شأن يخص عابدة، حتى هي يجب ألا تعرف أنكِ تعرفين. عديني.
- أعدك.
- حسنًا. كل أوراق عابدة، جواز السفر وما إلى ذلك، كلها تقول إن سنة ولادتها هي1973. لكن اليوم استلمت شهادة ولادتها من أحسن ابن خالتي خديجة، لديه معارف في الحكومة ويستطيع تسيير المعاملات، وشهادة ولادتها تقول إنها وُلدت في يناير 1972. وليس 1973.

سكتت كريستين ثم سألته: وما علاقة هذا بالباكستانيين؟

- نعم، سؤال جيد. هذه سنة الشؤم والعار، وعندما في مناطقنا يتحققون ألا تكون الفتاة التي تتزوج من مواليد هذه السنة أو فلنقل فترة معينة من هذه السنة، منذ نهاية 1971 إلى أواخر سبتمبر من 1972.
- هل هذا الأمر مرتبط بمعتقد ديني عن مواليد هذه الفترة؟
- لا لا، ليس هذا الأمر على الإطلاق. لكن في سنة 1971 حصلت حرب الاستقلال وتحررت بنغلاديش من باكستان، استمرت الحرب تسعة شهور، تلك الفترة كانوا يسمونها فترة الحرب الباردة، عندما قررت أمريكا والاتحاد السوفيتي ألا يدخلا في حرب مباشرة، ويجعلان الدول الصغيرة تتحارب بالنيابة عنهما،

النتيجة حرب بين بنغلاديش برعاية الاتحاد السوفيتي وباكستان برعاية أمريكا، وفي تلك الفترة، كان لدى الباكستانيين سلاح اسمه سلاح الاغتصاب، اغتصبوا مئات الآلاف من النسوة البنغاليات، لا أبالغ، مئات الآلاف، الأمر موثَّق، وكان اغتصابًا متكررًا أحيانًا لغرض حصول حمل. الحرب استمرت تسعة شهور، والحمل يستمر تسعة شهور أيضًا، وهكذا فإن هناك فترة معينة، كل من يُولد فيها، يكون مشكوكًا في أنه نتج عن اغتصاب الجنود الباكستانيين. وآلاف النسوة انتحرن، وآلاف النسوة قُتلن، وآلاف أجهضن وبعضهن متن في أثناء ذلك، وآلاف الأطفال قُتلوا فور ولادتهم، أو عُرضوا للشراء والتبني في الغرب... والد عابدة كان رجلًا طيبًا بلا شك، لم يقتلها ولم يعرضها للتبني، أمها ماتت في أثناء الولادة، أو هذا ما أعلمه أنا، لكن والد عابدة اعتنى بها ولم يفعل ما فعله غيره. عابدة حتمًا كانت تعرف، الجيران كانوا يعرفون، لا أشكُّ لحظة واحدة في أنها تعرضت للكثير من الكلمات القاسية، لا بد أن زوجة أبيها كانت تعايرها بذلك، أعرف مجتمعاتنا جيدًا، قاسية جدًّا على الشخص الذي لا ذنب له، من المؤكد أنهم قالوا لها إنها ابنة حرام، وإنها ابنة باكستاني اغتصب أمها، أعرف كيف يتحدثون عندنا، ولهذا تأخر زواجها، قالوا لأنها كانت تراعي والدها، لكني أفهم الآن أن هذا ليس هو السبب، ثم زوَّرت تاريخ ولادتها وانتقلت إلى مدينة أخرى، كي تحصل على فرصة للزواج، وفعلًا تزوجتُ منها على هذا الأساس، أذكر أن أبي وأمي قالا لي إنها ليست بذرة من تلك السنة. لكنها زوجة صالحة جدًّا. زوجة رائعة. أفضل امرأة في العالم. وأفهم الآن لماذا تكره الباكستانيين. اليوم فقط عرفت كل شيء، وأريد أن أقول لها هذا.

أريد أن أقول لها إني سأتزوجها مرة أخرى إن شاءت وأنا أعرف سنة ميلادها الحقيقية. لو كانت هناك فرصة يمكنني أن أقول لها هذا بنفسي، أو قولي لها فقط إن سنة ميلادها لا تهمني. هل يمكنك ذلك؟

كانت كريستين تبكي. ثم هزت رأسها وقالت: سأحاول.

الساعة 6:12 مساءً

لو لم يبكِ يزن وهو يحتضنها لبكت هي وملأت الدنيا بكاءً. لكن دموع يزن ألزمتها أن تكون المتماسكة القوية. السند. الكتف. الظهر والعكاز. الحياة أخذ وعطاء. هناك من يبكي وهناك من يطبطب عليه ويكفكف دمعه ويواسيه. لا يمكن أن يبكي الجميع. هذا ضد طبيعة الأشياء. شيء ما فيها جعلها تأخذ دور المواساة والطبطبة دومًا. تتمنى لو حدث نوع من تبادل الأدوار. أن تبكي أحيانًا وأن تطبطب أحيانًا أخرى. لكن لا، تصل الأمور إليها، فلا تجد أن ثمة خيارًا. لم تختَر هذا الدور. لا يختار أحد هذا الدور. بل يجد نفسه مجبرًا عليه. ستغرق السفينة إن لم يفعل. وإن غرقت السفينة يغرق الجميع. على أحد ما أن يكون القبطان الذي يثبِّت الجميع، حتى لو عاد كل ليلة ليبكي تحت وسادته.

لم تطلب من يزن أن يكون قويًّا أو أن يسترجل. ليس هذا وقت المواعظ. تركته يبكي كما يريد. ربتت على كتفيه واحتضنته. أم تواسي ابنها على ابنها الثاني. لم تعتقد أن هناك أصعب مما مرت به سابقًا. لكن الحياة مليئة بالمفاجآت. غير السارَّة.

جاءت مروة واحتضنتهما معًا وهي تبكي. نست فورًا ما قالته لها قبل قليل واحتوتها أيضًا. قلب الأم أوسع من هذا العالم الغبي القاسي الظالم المظلم. هذه حقيقة تهوِّن من ظلمة هذا العالم. المشكلة أن الأم لا تجد أحيانًا من يُربِّت عليها.

أمسكت وجه يزن بين يديها وحدثته، وضعت عينيها في عينيه الباكيتين. اسمعني يا يزن. قل لي. هل رأيت براء في هذا الفيديو؟

هزَّ رأسه بنعم وأراد أن يعود إلى حضنها. أوقفته. اسمعني. هل أنت متأكد؟

هزَّ برأسه مجددًا.

التفتت إلى مروة. وأنتِ؟ متأكدة؟

هزَّت مروة برأسها وانفجرت بنوبة بكاء.

عادت آلاء إلى يزن. أرني الفيديو. أريد أن أراه.

لا يا أمي. يجب ألا تريه.

بل يجب أن أراه. فكرت مع نفسها. لن تتأكد أم من ذلك ما لم ترَ بعينها. وربما لن تتأكد، حتى لو رأت.

يجب أن أرى يا يزن. دعني أراه، أنت تعرف أنك إن لم تفعل فسأطلب الفيديو من أي أحد هنا.

لا أريد أن تتأذي يا أمي.

لا عليك، عليَّ أن أراه. قالت مع نفسها: فات الأوان.

أخرج هاتفه وفتح الفيديو وهو يكفكف دمعه. وضعت آلاء نظارتها لتركز. وضع يزن الفيديو على المقطع الذي يقول إن براء يظهر فيه. الدقيقة السابعة وست ثوان. المقطع مشوَّش. المجرم يحرك رأسه كثيرًا.

أين براء؟

سألت آلاء.

أعاد يزن الفيديو بضع ثوانٍ إلى الوراء ثم أوقفه. وأشار إلى أرض المسجد. هناك مجموعة من الأشخاص على الأرض. حدد واحدًا منهم بإصبعه. هذا براء.

ركزت آلاء في الصورة المتوقفة مثل قلبها الذي يريد أن يتوقف. ثم نظرت من فوق نظارتها. ثم أزالت نظارتها وركزت، طلبت إعادة الفيديو إلى الوراء قليلًا.

ثم قالت: هذا ليس براء.

تبادل يزن ومروة النظرات.

- كيف؟ هذه لحيته. هذه كنزته البنية. هذا براء يا أمي.

لا. ليس هو. هذا ليس براء.

نظر يزن إلى الصورة مجددًا ثم إلى مروة: حقًّا يا أمي؟ هل أنتِ متأكدة؟

سحبت مروة الهاتف من يده ونظرت مجددًا.

أصبح لديهما أمل.

- براء ابن بطني. لا يعرفه أحد أكثر مني. لن يقول لي أحد هذا هو أو هذا ليس هو.

- ابن بطنك لكنه شقيقنا. نعتقد أنه هو يا أمي. إن شاء الله لا يكون هو.

كان متأكدًا قبل دقيقة. الآن هو يعتقد.

- براء حدد لحيته وخففها أمس. هل ترى هذه اللحية مخففة ومحددة؟

نظر يزن إلى الصورة وقال: لا يمكن معرفة إن كانت هذه اللحية محددة أو مخففة. الصورة غير واضحة.

بالضبط. الصورة ليست واضحة، فكرت آلاء. لماذا إذن يعتقدان أنها لبراء.

- وكنزته البنية في الغسالة. وضعتها بيدي قبل أن أخرج.

فتحت مروة فمها مدهوشة وتحول ذلك إلى ابتسامة بسرعة. وقالت: متأكدة؟

حوَّل يزن نظره بينهما وهو أقرب إلى عدم التصديق. ثم نظر إلى الصورة في هاتفه مجددًا. رفع رأسه وقال: متأكدة من الكنزة؟

قالت بثقة: بالتأكيد. ليس هو يا يزن.

وضع يزن على وجهه وهو يغمغم: الحمد لله. الحمد لله. عاد يبكي، ولكن هذه المرة كانت دموع أمل. لا يزال الخطر قائمًا، حتى لو لم يكن هذا براء.

احتضنتها مروة وهمست في أذنها: آسفة. ربتت آلاء ظهرها وهي تحاول أن تنسى ما قالته قبل قليل. لكن هذا صعب.

الحقيقة المرة أفضل من الكذبة المريحة؟ هراء. هذا هراء. على الأقل في ظروف كهذه. الكذبة المريحة أفضل مرة. لم تكن متأكدة إلا من شيء واحد. قلبها. قلبها يقول ليس هو. الكلام عن اللحية كان محض هراء اخترعته. ذهب إلى الحلاق فعلًا أمس. لكن لا يمكن رؤية اللحية بوضوح. لم تضع الكنزة البنية في الغسالة. لكنه ارتداها أمس. وبراء لا يرتدي كنزته أكثر من يوم واحد. هوسه بالنظافة يجعله يحرص على تغيير ثيابه كلها كل يوم، حتى لو لم تكن متسخة. يبقي بنطلون الجينز ثلاثة أيام. لكن الكنزات والقمصان والملابس الداخلية، يغيرها كل يوم.

ليس هو. قلبها يقول ليس هو. لكن من يصدق قلب الأم سواها. لذا لم تقُل روايتها نقلًا عن قلبها. بل بالأدلة والبراهين. جرعة أمل في وقت

الأزمات وعدم اليقين تسهِّل تقبل الحقيقة بالتدريج. أو هذا على الأقل ما تعتقد أنه الجرعة الأفضل الآن.

ليتها فعلت ذلك مع أمها. يوم كان ما كان. ليتها منعتها أن تفتح الكيس الأسود وترى ما فيه.

***

اختفى والدها.

خرج كعادته إلى صلاة الفجر ولكنه لم يعُد. كانت فترة مليئة بالخطف والجثث مجهولة الهوية في بغداد. توسلت إليه أمها ألا يخرج، أن يصلي في البيت كما يفعل الناس. قال لها المكتوب على الجبين تراه العين. وقد رأت المكتوب بالفعل بعد يومين. رأته حرفيًّا في كيس النفايات الأسود. ولكن كان يجب ألا تراه.

اتصلت بها في السابعة صباحًا تلطم وتنوح. أبوكِ لم يعُد من صلاة الفجر حتى الآن.

أجرت في بالها حسابات رياضية سريعة وقالت: أمي، الأذان في الخامسة وربع تقريبًا، والصلاة بعد نصف ساعة من الأذان. والصلاة قد تستغرق ربع ساعة. ربما كان يتساير مع أصحابه والآن سيعود.

- هل جننت؟ يتساير مع أصحابه في هذه الظروف؟ بالتأكيد لا. يرجع كل يوم بعد انتهاء الصلاة فورًا.

حتى هي عندما قالت لها ربما كان يتساير كانت تعرف أن هذا أقرب إلى المستحيل، أرادت أن تهدئها ريثما تصل إليها.

تركت الأولاد عند جدتهم أم نزار. المدارس مغلقة منذ يومين. قادت سيارتها مسرعة إلى بيت أهلها مارة بمختلف الحواجز. قبل أن تصل أوقفت سيارتها عند الجامع. نزلت تتلفت يمينًا ويسارًا. باب المسجد

مغلق طبعًا. نظرت من خلال السياج. نادت السلام عليكم عدة مرات. خرج مؤذن المسجد مرتعبًا. قالت له أنا بنت أبو أسعد. لم يعُد إلى البيت حتى الآن. هل رأيته؟ هل كان بخير.

زاد الرعب في نظرته. أبو أسعد لم يأتِ اليوم أختي.

هل تعرفه؟ هل متأكد أنك تعرفه؟

اعتبرها إهانة. أنا في هذا المسجد منذ أكثر من عشر سنوات. أعرف كل المصلين واحدًا واحدًا. وأعرف أبو أسعد طبعًا.

العفو من جنابك قالت مع نفسها. هل أنت متأكد أنه لم يحضر اليوم، ربما حضر ولم تره؟

هز رأسه آسفًا. لم يحضر. حضر أربعة أشخاص فقط فجر اليوم. تعرفين الظروف. أبو أسعد لم يكن من ضمنهم. أمس حضر كل الأوقات عدا المغرب. اليوم لم يحضر.

قالها كما لو كان مسؤول الحضور والانصراف وليس المؤذن.

أربعة فقط؟ أمها كانت محقة في منعه من القدوم إلى المسجد. والرجل يبدو واثقًا للغاية.

قادت سيارتها إلى البيت في كل الطرق التي يمكن أن يسلكها والدها في طريقه إلى المسجد. ربما يكون قد سقط أرضًا أو دهسته سيارة. وقفت عند دكان صغير ملحق ببيت. صاحبه رجل متقاعد وهو والد فتاة كانت معها في المدرسة. دخلت عليه وذكَّرته بنفسها. أنا آلاء بنت أبو أسعد كنت مع رشا في الثانوية. هش وبش وسأل عن أبيها. قالت له كنت أريد أن أسألك عنه. هل رأيته اليوم؟ استغرب السؤال. قالت له لم يعُد من صلاة الفجر حتى الآن. قال لها فورًا: لا حول ولا قوة إلا بالله، كما لو

أنه قد قُضي الأمر. ثم تراجع وقال ربما يكون لا يزال في الجامع يقرأ القرآن. أي شيء ليغطي على حوقلته.

عندما عادت إلى البيت كان أمها قد نصبت العزاء. اضطرت إلى أن تهدئها وتقويها. هذه المرة كانت خيارات التهدئة مرعبة. أهونها أنه سقط مريضًا ونقلوه إلى المستشفى. وأصعبها أنهم خطفوه وسيطلبون فدية.

بحثت هي ونزار في كل المستشفيات ومراكز الشرطة. المئات يبحثون مثلهم. بحثوا حتى في المشرحة والطب العدلي. لا أثر.

ولا اتصال من رقم غريب بصوت أجش يطلب فدية.

بقيت مع أمها في تلك الأيام. كل الباقين كانوا خارج العراق. أسعد كان على وشك المجيء. لكن أمها أقسمت عليه ألا يأتي.

في الصباح الباكر لليوم الثالث سمعت ضربة على باب البيت الخارجي. باب الكراج. مثل صوت حجر كبير أُلقيَ على الباب بشدة.

خرجت متلفعة بالروب الشتوي. فتحت الباب قليلًا ومدت رأسها. كانت هناك مدرعة أمريكية في رأس الشارع. يظهر منها رأس مجند أمريكي وهو يدخن. ثم رأت الكيس. كيس نفايات كبير أسود اللون. من الذي تجمع فيه النفايات في المنازل قبل أن توضع في الحاويات خارجها. كان الكيس ممتلئًا على ما يبدو.

لم تفكر في أي شيء. خرجت ومدت يدها لتفتح الكيس. لأجزاء من الثانية اعتقدت أنها بقايا خروف ذبيح. ثم أدركت أنها أمام بقايا ذبيحة بشرية. وكان هناك ساطور. مدت يدها لترى أكثر. ورأت رأسًا مقطوعًا. رأته من قحفه. ورأت الشامة تحت الأذن.

رفعت رأسها ورأت المجند الأمريكي ينظر إليها ببرود. تعالت على كل شيء وكتمت فزعها. أوقفت صرختها على باب حنجرتها وأرجعتها إلى أعماقها.

سحبت الكيس إلى الكراج وأسندته إلى الحائط ووقفت دون حراك.

انتبهت لصوت أمها تخرج من باب المطبخ. مسحت يدها بالروب لكي تزيل آثار الدم. سألتها أمها عن الكيس. قالت: لا شيء. ارجعي يا أمي. الجو بارد.

لكن أمها لم تكترث. سارت بسرعة إلى الكيس وفتحته.

ثم صرخت صرخة رعب وفزع وغضب كما لو كانت صادرة عن آلاف النسوة اللواتي مررن بشيء مشابه.

بعد هذا بأيام بدأت الصدفية، وبعدها بدأ الآلزهايمر. أو شيء يشبهه.

بقيت آلاء تلوم نفسها. كان عليها أن تمنع أمها من فتح الكيس الأسود.

الساعة 7:30 مساءً

رئيسة الوزراء النيوزيلندية جاسيندا آرديرن تظهر في مؤتمر صحفي.

قالت إن عدد الضحايا وصل حتى الساعة السابعة إلى أربعين ضحية. ثلاثون منهم في مسجد النور، وعشرة في مسجد لينوود. والعدد مرشح للزيادة بسبب حراجة بعض الإصابات. وصفت جاسيندا الهجوم في هذا المؤتمر بأنه هجوم إرهابي دون أدنى شك. وقالت إن أحد المشتبه فيه الرئيسيين قد صرح علنًا أنه أسترالي الجنسية، وأنه يحمل أفكارًا متطرفة لا مكان لها في نيوزيلندا.

ثم وجهت رسالة إلى المتأثرين مباشرة، قالت إنها تنقلها نيابة عن كل نيوزيلندا.

قلوبنا وصلواتنا مع كل من تضرر. كانت كرايستشيرش وطن هؤلاء الضحايا. ربما لكثيرين منهم لم تكن المدينة التي وُلدوا فيها، لكنها كانت خيارهم الواعي، المكان الذين جاؤوا إليه والتزموا به حيث ربوا عائلاتهم وكانوا جزءًا من مجتمعات أحبوها وأحبتهم. جاؤوا إلى هنا بحثًا عن الأمان عن مكان يستطيعون فيه ممارسة ثقافتهم ودينهم بحرية، نيوزيلندا لم تُستهدف لأنها ملاذ آمن للكراهية، ولم تُختر لهذا العمل العنيف لأنها تبرر العنصرية أو لأنها حاضنة للتطرف، لقد تم اختيارنا لأننا نقيض ذلك تمامًا، لأننا نمثل التنوع، اللطف والتعاطف. لأننا

نمثل وطنًا لمن يشاركون قيمنا وملجأً لمن يحتاج إليه. وأؤكد لكم إن هذه القيم لن تهتز ولن تنكسر بهذا الهجوم، نحن أمة تضم أكثر من 200 عرق و160 لغة، ورغم هذا التنوع، فإننا نتشارك قيمًا مشتركة، وأهم ما نضع له قيمة اليوم هو تعاطفنا ودعمنا للمجتمع المتأثر بهذه المأساة وإدانتنا المطلقة لأيديولوجية مَن ارتكبوا هذا الفعل.

قد يكون هؤلاء الإرهابيون قد اختارونا، لكننا نرفضهم وندينهم تمامًا.

الساعة 8:10 مساءً

أخذ عارف يبحث عن كريستين ليعرف إن كانت قد أخبرت عابدة بما طلب أن تبلغها إياه.

جاءت كريستين وقالت لعارف إنها لم تخبرها بعد وإنها بصدد ذلك.

ثار عارف وأخذ يصرخ مجددًا باسم عابدة، حدثت جلبة وأثار منظره على الكرسي المتحرك تعاطف أغلب الأهالي ممن كانوا متوترين أصلًا.

علت الأصوات وخاف الموظفون في المشفى أن يتطور الأمر.

جاء شرطي من أصول بنغالية، يعرف عارف باعتباره صاحب متجر (بنغال باسكت)، وتحدث معه بالبنغالية.

قال له إن الحظر قد رُفع عن المدارس، وإنه من الأفضل أن يذهب إلى البيت ليكون مع ابنته. وعرض عليه أن توصله سيارة شرطة إلى البيت.

نظر إليه عارف مستنكرًا: وأترك عابدة؟

قال له الشرطي بعد صمت قصير: عابدة لن تأتي يا عارف.

ماذا تقصد لن تأتي؟

هزَّ الشرطي رأسه بأسى وربَّت كتف عارف: كن قويًّا يا عارف. عابدة ليست هنا. عليك أن تكون قويًّا من أجل ابنتك.

التفت عارف يمينًا ويسارًا كأنه لم يفهم، كأن هذا الاحتمال لم يرِد في ذهنه.

كرر: ليست هنا؟ هل تعني...؟

هزَّ الشرطي رأسه بالإيجاب، ولكنه لم يقُل شيئًا سوى: كن قويًّا.

سكت عارف وابتلع ريقه ثم قال: هل أخبرتموها ما كنت أريد قوله؟

أدار الشرطي رأسه ليرى إن كان أحد يسمعه، لم يكن مسموحًا له بتسريب أي معلومة، ثم قال بصوت هامس: لم تكن هنا يا عارف عندما طلبت ذلك.

هدأ عارف فجأة. بقيَ ساكتًا وساكنًا. وقف الشرطي بجانبه قليلًا وجلب إليه قنينة ماء. أخذها عارف ووضعها في حضنه دون أن يقول أي شيء أو يشرب منها.

بقيَ ساكتًا مطرقًا دون أي حركة. كما لو كان يحاول أن يتخيل حياته دونها.

بقيَ كذلك لمدة نصف ساعة تقريبًا. ثم صلَّى على كرسيه. وقرر أن يعود إلى البيت من أجل ابنته. بحث عن الشرطي وطلب توصيله.

الساعة 8:20

دق هاتف آلاء على رقم غريب. مفتاح الرقم يعود إلى الإمارات. ميَّزته لأن شقيقها أسعد هناك.

- مرحبًا خالة. كيف الحال؟

كان الصوت غريبًا، لم تميزه.

- أنا دعاء.

دعاء من؟ لم تقُل ذلك لكن واضح أنها لم تعرف من تكون دعاء.

- أنا دعاء، خطيبة براء.

كانت قد نست الموضوع تمامًا. اليوم كان يُفترض أن ينصبَّ حول هذا الأمر. زوم التعارف مع أهل دعاء.

وجدت نفسها تقول تلقائيًّا: يا حبيبتي يا دعاء...

- خالة، أحاول الاتصال ببراء وهاتفه مغلق، وسمعت قبل قليل بما حدث، هل أنتم بخير؟

حاولت أن ترد لكن صوتها لم يخرج. وجدت نفسها تبكي للمرة الأولى في هذا اليوم الصعب.

انتبهت دعاء لصوت بكاء آلاء.

- خالة، ماذا حدث؟ هل براء بخير؟

بين دموعها وحشرجة صوتها، استطاعت آلاء أن تقول: آآه يا حبيبتي، براء وأبوه كانا في المسجد، لا نعرف ماذا حدث لهما، نحن في المشفى

ولم يخبرونا بأي شيء، لم يخبروا أحدًا بأي شيء يا حبيبتي، لا نعرف إن كانا (عايشين أو ميتين).

سمعت صوت بكاء على الطرف الآخر. وساهم ذلك في إزالة قناع التجلد ونسف كوابح البكاء.

ساد صمت إلا من بكاء على طرفَي الهاتف. بكاء على مصير مجهول لحبيب واحد. آلاء على ابنها. ودعاء على من يبدو أنه حبيبها.

- ادعِ له حبيبتي. ادعِ له. ليس أمامنا سوى ذلك.

- إن شاء الله... أكيد خالة. هل يمكنني أن أتصل بكِ لاحقًا؟ لا يزعجك هذا الشيء؟

- على العكس يا حبيبتي. على العكس... ادعِ له يا دعاء.

أحبتها فورًا. قالت، لو نجا براء من هذا، لسعت إلى زواجه منها مهما كانت العقبات.

وتفاءلت باسمها. تحتاج إلى دعاء.

الساعة 9:10 مساءً

كانت آلاء قد أُنهكت من كثرة الاتصالات، أرسلت رسالة إلى أسيل وأسماء تخبرهما فيها أنها ستطلعهما على أي جديد فور معرفتها به. وكان ذلك يعني: لا تتصلا ولا تسألا. أنا سأخبركما. ردت على أسعد، وأحمد، وبعض المقربات والمقربين. وتجاهلت كل الرسائل والاتصالات الأخرى. ثم انتبهت لأن لا أحد من شقيقات وأشقاء نزار قد اتصل أو أرسل رسالة. فسألت مروة إن كانت عماتها قد أرسلن يسألن، فأجابت بنعم، أزعج ذلك آلاء. صحيح أن العلاقات معهن ليست في أفضل حالاتها ومنذ سنوات طويلة، ولكن، رغم ذلك، هي الزوجة، يجب أن يكون الاتصال عبرها.

كل هذه التفاصيل لم تمنعها من محاولة مشاهدة الفيديو مجددًا. على الأقل اللقطات داخل المسجد، كانت أكثر من مؤلمة، كانت مرعبة، لكنها كانت مضطرة إلى أن ترى. حسنًا. ربما هذا ليس براء. لكن إذا لم يكن براء، فأين براء؟ وأين نزار؟ حاولت أن تعيد اللقطات عدة مرات بسرعة بطيئة، لعلَّها تعثر على أي دليل. لكن عبثًا. المجرم كان يحرك رأسه كثيرًا بكل الاتجاهات، والكاميرا ملصقة على رأسه، لم يكن من اليسير الوصول إلى شيء. كانت تقول: ربما تمكنا من الهرب، ولكنهما أُصيبا، وهما بين الجرحى، ولكن هناك أكوام من الأجساد في المسجد، ربما كانا بينها. كانت تتأرجح باستسلام بين الأمل واليأس. تحاول أن تهدئ نفسها بأنه القدر الذي لا مفرَّ منه، وتدعو الله أن يصبرها على ما يصعب عليها، ويجعلها تشكر ما تنعم به منه.

جاء يزن ومعه قطع من المعجنات لأمه وشقيقته. لم يأكل أي أحد أي شيء منذ الصباح. أعطى قطعة لدلال وللحاج موسى اللذين تصادف جلوسهما على الكراسي المجاورة. كانت آلاء تقرأ من مصحف في يدها، بينما جلس الحاج موسى يُسبح بمسبحته بهدوء. أخذت دلال القطعة بينما رفض الحاج موسى، قالت له: لازم تاكل يا خال، لم تأكل شيئًا منذ الصباح.

جلس يزن بجانب أمه وقال لها: هذا الأسترالي، أرسل بيانًا إنه سينفذ العملية قبل دقائق من التنفيذ. بيان من 75 صفحة.

لم تكن آلاء مهتمة جدًّا بمرتكب الجريمة. مجرم آخر بدوافع عنصرية مثله مثل آخرين يرتكبون جرائم مماثلة بدوافع مختلفة، دينية أو سياسية أو بلا دوافع. لا يوجد عراقي يصدق أن الدافع المعلَن هو الدافع الحقيقي. هذه المرة أصاب هذا العبث ابنها وزوجها، وسابقًا أصاب ابن أخرى وزوجها. لكن إصدار بيان من 75 صفحة، مع فيديو بث مباشر. هذا جديد.

- بيان؟ هل ينتمي إلى مجموعة إرهابية؟
- يبدو أن طموحاته أكبر بكثير. يقول إن هذه العملية ستقود إلى المزيد من العمليات المماثلة ضد المسلمين في كل مكان يتواجدون فيه في أوروبا وأمريكا وكندا وأستراليا، وإن هذا سيشعل حربًا عرقيًّا يسترد فيها الرجل الأبيض أراضيه التي حصل عليها الغزاة عبر الهجرة. يسمي المهاجرين المسلمين، الغزاة. غزوا واحتلوا بلاد الرجل الأبيض.
- يبدو كلام مجانين. هل سيكون هذا سببًا في تخفيف العقوبة عليه؟ ما دام أبيض يكون مضطربًا نفسيًّا، وما دام مسلمًا يكون إرهابيًّا.
- وارد، لكن حتى الآن، موقف جاسيندا لا يشير إلى ذلك، الضربة ضد نيوزيلندا ككل وليس ضد المسلمين فقط.

فكرت آلاء، ماذا سيقول نزار عن موقف جاسيندا، وهو الذي يتهم كل الحكومات بأنهم دُمًى للماسونية العالمية؟ غالبًا سيقول إن هذه تمثيلية لإبعاد التهمة. كل التفسيرات جاهزة مع نظريات المؤامرة، لا أحد سيدقق ويطالب بوثائق، لا أحد يتآمر ويترك على مؤامرته دليلًا. لذا، لا أدلة.

كان يزن يقرأ من هاتفه: يقول إنه واثق بأنه سيحصل على جائزة نوبل للسلام، مثل نيلسون مانديلا.

كانت آلاء تأكل، وعندما سمعت ما قاله يزن، انتابتها نوبة من الضحك، نوبة محرجة بسبب المكان والوضع، حاولت إخفاء الضحكة فاختنقت بالطعام وزاد ضحكها. وأخذ يزن يضحك، ولكن من أمه وليس من نوبل للسلام.

استمر يزن في القراءة: يقول إن الرجل الأبيض يتعرض للإبادة الممنهجة عبر الهجرة واللاجئين ومعدلات ولاداتهم العالية.

تدخَّل الحاج موسى: عفوًا على المقاطعة... من وين ابن العم؟

اعتدل يزن في جلسته وقال: من العراق يا حاج.

هزَّ الحاج موسى رأسه وقال: إي والنعم والسبع تنعام.

مالت آلاء على يزن وقالت له: قل والنعم منك.

- والنعم منك يا حاج.
- محسوبك موسى أبو حجر، من حي المنشية في يافا فلسطين.
- أنا يزن إحسان. الأصل من بغداد العراق.
- ماذا قلت للتو عن الرجل الأبيض يا يزن؟
- ليس أنا. كنت أقرأ ما كتبه المجرم، الأسترالي الذي أطلق النار، قبل تنفيذ العملية.
- إي، شو مالو الرجل الأبيض؟

- يقول إن الرجل الأبيض سُلبت أرضه عبر غزو المهاجرين لها، وإنه يتعرض إلى الإبادة بسبب زيادة نسبة الولادات عند المهاجرين واللاجئين.

ضحك الحاج موسى وهز رأسه بأسف متصنَّع، سأل دلال جانبه: سمعتِ يا دلال؟ الرجل الأبيض يتعرض للإبادة.

هزت دلال رأسها دون أن تركز فيما قاله الحاج.

- مسكين والله هالرجل الأبيض. ألف سلامة عليه. ألف سلامة عليه من الإبادة.

ابتسم يزن محرجًا وعاد إلى الهاتف وهو يعتقد أن حديث الحاج انتهى.

- أحكي لك عن الرجل الأبيض يا ابن عمي، الرجل الأبيض بسلامته، جاء لبلادنا، وعد أنه يعطيها لرجل آخر، لا هو أبيض ولا هو أسود ولا هو أي لون محدد، لا الأرض أرض الرجل الأبيض ولا البلاد بلاده، ولكن وعده فيها، كرم منه، وبعدين نفذ الوعد، وعد الحر دين تعرف طبعًا، وطردنا من أرضنا وبيوتنا، واستولوا عليها ناس (جاؤوا من البرية وأخذوا الأولية)[1]، تشردنا في العالم، مخيمات ولجوء وذل وفقر وكل شر وُجد في الأرض شفناه وعاشرناه. وحكومات تبيع وتشتري فينا، وشعارات طالعة ونازلة، قومية وعروبة، واشتراكية وإسلام وكفر. كل شيء. لكن ليس هذا ما أريد أن أقوله يا يزن. هذا كله معروف وكلكم تعرفونه.

- تفضل يا حاج، أسمعك.

---

(1) مثل منتشر في بلاد الشام للتعبير عن **أشخاص وافدين أو طارئين** ظهروا فجأة، **فاستولوا على الصدارة أو الامتيازات** التي يُفترض أن تكون لأهل المكان أو لأصحاب الأحقية السابقة.

- ابني غسان، الذي لا نعرف مصيره الآن، هو أكبر أولادي من زواجي الثاني. قبل هذا الزواج كان عندي عائلة أخرى، خمسة أطفال، غسان وعدنان ومروان وفائزة، وكان هناك خامس أو خامسة في الطريق. كلهم ماتوا. مع أمهم. من يسمع بهذا قد يتوقع حادث سيارة مثلًا. لكن لا ليس حادث سيارة. بل قُتلوا. كلهم. كنت أعمل في الكويت، وعائلتي في بيروت، أضع القرش على القرش من أجل مستقبلهم، حصلت الحرب. حرب ال 82. ودخلت إسرائيل وحدث الاجتياح ووصلت بيروت. جاء الرجل الأبيض، وهو من تسبب بأساس المشكلة أصلًا، وأشرف على المفاوضات، واتفقوا أن المقاومة تخرج من بيروت، مع ضمان سلامة المدنيين. ريغان، كان وقتها رئيس أمريكا، ربما والدتك تذكره، كان يكرر ليل نهار إن سلامة المدنيين مضمونة، وكانت هناك قوات أيضًا، كلها تابعة للرجل الأبيض، فرنسيون وبريطانيون وألمان، القوات المشتركة يسمونها، انسحبوا قبل موعدهم، جاءت الميلشيات ودخلت المخيمات، والإسرائيليون حاصروا المخيمات حتى لا يهرب أحد، 43 ساعة قتل متواصل، 3000 قتيل، نساء وأطفال وشيوخ، كل شيء يتحرك قتلوه. تعرف كيف قتلوا أولادي؟ ضربوا رؤوسهم بالحائط حتى الموت. وجدنا أدمغتهم ملتصقة بالحائط. ومروان بلا أي أثر. لا دماغ على حائط ولا شيء. زوجتي ربطوها بسيارتين وسارت كل واحدة باتجاه. وكانت حاملًا في شهرها السابع. هذا كله، منذ الـ 48 حتى اليوم، والرجل الأبيض هو الذي يتعرض إلى الإبادة والمسلمون هم من يسلبونه أراضيه؟... واليوم، غسان الثاني، كان يصلي الجمعة فقط، والآن لا نعرف مصيره. يريدون منَّا أن نخرج من بلاد الرجل الأبيض؟ لكن هل كنَّا سنأتي إلى

بلاد الرجل الأبيض لو لم يفعل الرجل الأبيض ما فعله في بلادنا؟ نخرج والله. لكن من يرجع لي دارنا في المنشية؟ ابن خالي الذي ضاع في التهجير؟ قبر أبي الذي بُني عليه الهيلتون؟ أولادي الذين قتلوهم ضربًا بالحائط؟ مروان الذي لا نعرف ماذا حدث له؟ الجنين الذي مات ولا نعرف جنسه حتى؟ زوجتي التي لم نجد نصفها؟ من يرجع لي عمري الذي ضاع وأنا أحلم بأن أشم رائحة البحر على يافا؟ نخرج أكيد، لو أرادوا، لكنهم تسببوا بكل شيء أصلًا، ثم أرادوا أن يحصلوا على مهاجرين لأن رجالهم بطلوا رجال ونساءهم بطلوا نساء وانخفضت مواليدهم. ملأنا استمارات وحسب القانون قبلوا استماراتنا وجئنا. لا مستوطنين ولا محتلين، ولم نطرد أحد من داره ونسكن فيه. كما سكنت أربع عوائل يهودية من حثالة أوروبا في دارنا في المنشية.

سكت الحاج موسى بعد هذا الذي قاله. كانت دلال قد حاولت تهدئته أولًا، ثم تركته يحكي براحته.

عندما انتهى كانت تغطي وجهها بيديها لتخفي دموعها. وكانت آلاء تبكي أيضًا.

بدا أن الحاج قد أنهى الحديث، لكنه قال فجأة كما لو أنه يستدرك شيئًا نسيَ أن يقوله: وأتحدى الآن الجميع، لو مررت على واحد واحد، فردًا فردًا، في هذه القاعة المنكوبة وسألته لماذا ترك بلده وجاء نيوزيلندا، لوجدت أن الرجل الأبيض كان له دخل في وصوله إلى هنا. أما مباشر وواضح، مجرم تسبب بكل شيء منذ البداية كما فعل معنا، أو كان شريكًا فيما حدث مع المجرمين المحليين، كما معكم.

سكت الحاج قليلًا ثم قال: جعلوا الأرض قفرةً يا ابني. جعلوا المزار بعيدًا...

الساعة 10:30 مساءً

الشرطة تعلن ارتفاع عدد القتلى إلى 49 شخصًا. 41 في مسجد النور، 7 في مسجد لينوود، وواحد في المستشفى نتيجة إصابته.

كما تعلن إطلاق سراح ثلاثة من المشتبه فيهم الذين ثبت عدم تورطهم بشيء.

وتوجيه التهمة إلى شخص واحد فقط.

الساعة 10:50 مساءً

تقدَّم ثلاثة موظفين من المشفى، معهم رجال شرطة، وطلبوا من الأهالي الانتباه.

قيل لهم إنهم سيقرؤون عليهم قائمة بأسماء الجرحى. الجرحى فقط.

وكان معنى ذلك واضحًا.

من ليس في القائمة، فهو ليس من الجرحى. بل ممن قضوا في الحادث.

عمَّ السكوت وتعلَّقت قلوب الجميع بشفتَي الموظفة التي كانت تقرأ الأسماء.

عندما قرأت القائمة، وذُكر اسم براء، كادت آلاء أن تسقط على الأرض مغشيًّا عليها من الفرحة. ثم تماسكت مجددًا. ليس لديها ترف الانهيار من الفرح. لديها اسم آخر تنتظره...

لكن لم يكن هناك اسم نزار.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ولا غسان.

ولا عابدة.

ولا غليندا.

ولا محمد إيهاب.

***

عابدة كانت لديها فرصة للنجاة.

كانت تساعد سيدة كبيرة في السن على دخول الحمام عندما بدأ إطلاق النار. أخبرت السيدة أن تبقى في مكانها وقررت أن تذهب لتفهم ما يحدث. عندما استوعبت قررت أن تذهب لتنقذ عارف معتقدة أنه دخل المسجد. لم تعرف أبدًا أنه لم يكن هناك. المهاجم قتلها فورًا.

أما عارف فقد احتمى بين السيارات ولم ينتبه له المهاجم.

الاتصال الأول بالطوارئ كان منه.

***

أما غليندا فقد تصورت -عندما سمعت صوت الطلقات- أنها ألعاب نارية يلهو بها الأطفال.

كانت قريبة من المدخل، في الغرفة الجانبية الأولى على اليمين. وضعت على وجهها ابتسامة وقد قررت أن تخبرهم أن يلعبوا لاحقًا بعد الصلاة. مدت رأسها فقط. وانتهى كل شيء قبل أن تعرف ماذا يحدث. ثوانٍ فقط وانتهى كل شيء.

سقطت على الأرض دون حراك. لم تكن حتى لديها فرصة أن تعرف ماذا حدث.

وسقط هاتفها على الأرض.

بعد أقل من دقيقة، وصلتها رسالة من صديقتها كارلي.

مرحبا غليندا. كيف أنتِ؟ أعتقد أنكِ تقصدين هذه الأغنية. كلا الجانبين الآن Both sides now. لا زالت من الأغاني المفضلة لديَّ. بل أعتقد أني صرت أفهمها الآن أكثر. لقد مررنا بالجانبين بعد كل هذا العمر. يومك سعيد يا غليندا.

ووضعت رابطًا للأغنية.

على مقربة من الهاتف كانت هناك سيدة أفغانية مصابة، مدت يدها تحاول الوصول إلى الهاتف لتتصل بالطوارئ.

ضغطت الشاشة ثم لفظت نفسها الأخير.

لكن تلك الضغطة فتحت رابط الأغنية.

وتدفقت الكلمات بين أصوات الطلقات النارية وآهات المصابين...

خيوط رقيقة كأنها شعر الملائكة...

وقلاع من الآيس كريم في السماء

وأودية من الريش الأبيض في كل مكان

كنت أنظر إلى الغيوم بهذه الطريقة.

لكن الآن أرى أن كل ما تفعله الغيوم هو حجب الشمس...

تمطر وتثلج على الجميع...

كان هناك الكثير من الأشياء التي كنت سأفعلها...

لكن الغيوم وقفت في طريقي...

لقد نظرت إلى الغيوم من كلا الجانبين الآن

من القمة ومن القاع...

ومع ذلك فكل ما أتذكره هو أوهامي عن الغيوم

أنا في الحقيقة لا أعرف الغيوم إطلاقًا.

القمر وهو يضيء ليالي الصيف وعجلات الملاهي...

والدوار الجميل بعد الرقص...

كل حكايات الحب الخرافية تصبح حقيقة تعيشها...

كنت أنظر إلى الحب بهذه الطريقة...

لكن الحب الآن مجرد عرض آخر يتكرر كل يوم...

يضحكون غير عابئين بينما تتركهم...

إذا كنت تكترث، فلا تدعهم يعرفون بما تشعر...

لا تسلِّم نفسك بالكامل.

لقد نظرت إلى الحب من كلا الجانبين الآن

من جانب العطاء والأخذ...

ومع ذلك بطريقةٍ ما

كل ما أتذكره هو أوهامي عن الحب

أنا في الحقيقة لا أعرف الحب

أنا لا أعرف الحب إطلاقًا.

الدموع، والمخاوف، وشعورك بالفخر...

لأن تقول «أنا أحبك» بصوتٍ عالٍ

الطموح والخطط، والجمهور دون السيرك يصفق لك...

كنت أنظر إلى الحياة بهذه الطريقة.

لكن الآن، الأصدقاء القدامى يتصرفون بغرابة

يهزون رؤوسهم ويقولون إنني تغيرت

لقد فقدنا أشياء، ولكن كسبنا أخرى...

بينما نعيش الحياة يومًا بعد يوم...

لقد نظرت إلى الحياة من كلا الجانبين الآن

من جانب الربح والخسارة،

ومع ذلك ما أتذكره هو أوهامي عن الحياة

أنا في الحقيقة لا أعرف الحياة إطلاقًا.

ما أتذكره هو أوهامي عن الحياة

أنا لا أعرف الحياة

أنا لا أعرف الحياة إطلاقًا.

***

نزار وبراء حاولا أولًا الهروب من النافذة، ولكن الطلقات كانت أسرع.

أدرك نزار أن الأمر منتهٍ. فارتمى على براء ليحميه ويحتويه بكل جسده.

في لحظة سريعة التقت عيناهما معًا.

وقالت عينا نزار لبراء ما لم يقله طيلة حياته.

ستبقى تلك النظرة مع براء، عوضًا عن كل الغياب الذي كان.

***

قبل أن يبدأ الهجوم كان غسان يفكر بكل ما قاله والده عن دار المنشية. رأى أن والده محق. وأن الأمر يستحق المحاولة. لن تعود الدار. لم تعد هناك دار. لكن، على الأقل في مرحلةٍ ما يمكن أن يوظف الأمر إعلاميًّا، مع كل الوثائق التي يقول والده إنه حصل عليها. أخذوا الدار، نعم. لكن على الأقل تستمر محاولات التذكير. لقد كنا هنا. وكانت تلك دارنا.

قرر ألا ينتظر عودته من العمل مساءً ليخبر والده بها. بل أن يكلمه فور انتهاء الصلاة.

ثم سمع صوت إطلاق الرصاص، وقبل أن يلتفت كانت هناك رصاصة تفجر رأسه.

***

عندما قال الشرطي البنغالي لعارف، إن عابدة ليست هنا. كان يقصد ذلك حرفيًّا.

فقد تُرِكت جثامين القتلى ليلتها في المسجد.

نزار، الذي ما إن شعر بما يحدث رمى نفسه على براء ليحميه، كان قد وُضع إلى جانب غسان.

وعابدة كانت على يمين غليندا في مصلى النساء.

لكن محمد إيهاب الذي لم يكن في قائمة الجرحى، لم يكن أيضًا بين الجثامين في المسجد.

***

لم يكن اسم محمد إيهاب في قائمة الجرحى، لأن أحدًا لم يذكره في المفقودين. غليندا كانت الوحيدة التي تعرفه. وكان قد نسيَ ما يدل على هويته.

قرابة منتصف الليل، خرج محمد إيهاب من صالة العمليات. أُخرجت ثلاث رصاصات من جسده. واحدة كانت قد استقرت في رئته. والثانية في الطحال. والثالثة في ساقه.

عندما وُضع في الغرفة، كان لا يزال تحت تأثير البنج. رأى عمر ورأى أمجد. ورأى حسين. ورأى علم الثورة الذي أخفته أمه في سخان الماء.

ورأى والده. في جبينه ثقب أحدثته تلك الرصاصة. اقترب منه بحنان لم يره يومًا منه، احتضنه وهو يبتسم ثم همس له طالبًا أن يسامحه على ضربه له وعلى كل فعلٍ فعله وأساء له. أخبره أنه يحبه، ولكن لم يعلِّمه أحد كيف يحب. والده فعل الشيء ذاته معه. واعتقد هو أن ذلك من متطلبات الرجولة والنضج.

سامحه محمد إيهاب.

ورأى منى فتالة تقف بجانبه، تمسك يده وتدعو له... يدها الأخرى كانت بيد شذى سلامة، جارتهم، لا تزال تبدو في التاسعة من عمرها... ثم رآها ترتدي ملابس الخروج وتتهيأ لمغادرة الغرفة.

قال لها: أمي لا تذهبي. ابقي معي.

قالت: لا، عليَّ أن أذهب، الحمد لله. هذه ليست جمعتك الأخيرة يا حمودة.

2019 /3/21

بعد ستة أيام من استشهاد حسين، اتصلوا بنا ليقولوا لنا: يمكن أن تروه اليوم.

لم يعرف المتصل أن هذا اليوم بالتحديد هو يوم ميلادي.

ولم يعرف أن هذا اليوم، هو عيد الأم في أغلب الدول العربية.

ولم يعرف أنه يعطيني أغلى هدية تسلمتها في ميلادي طيلة حياتي. وأغلى هدية يمكن أن تستلمها أي أم في عيدها.

أن أراه لآخر مرة في هذه الحياة. أن أحاول ملء عينيَّ منه لآخر مرة. أن ألمسه. أمسك يده، ولو لدقائق أتقوَّى بها على البقية الباقية من دهري، قبل أن يغيب تحت التراب، كما تغيب الشمس خلف الغيوم، دون أن تختفي حقًّا.

وكان حسين، وأخته آية، شمسًا جعلها الله تشرق على حياتي.

كنت صغيرة عندما أنجبتهما، صارا لي صديقَين. كبرت معهما. وكبرا معي. وقفنا معًا حلفًا ثلاثيًّا بوجه الغربة. بقيَ والدهما في الإمارات، لكي يوفر لنا الحياة الكريمة بينما نحن في نيوزيلندا. تعلَّمنا على البلد الجديد معًا، استكشفنا طبيعته وثقافاته وتنوعه وأسراره، قوته، وضعفه ومميزاته وعيوبه. كنت الأم والأب والصديق، ومخزن الأسرار، وخزانة الذكريات، والأحلام والطموحات. وكانا لي شمسي وقمري وأوكسجيني والأدرينالين الذي يسري في عروقي، ملاكيَّ الحارسَين اللذين لا يغيبان عني حتى لو ابتعدا.

اسمي جنة. عرفني الناس كخطاطة تجمع بين الخط العربي والزخرفة والألوان. نلت تكريمات وجوائز، وكنت أعرف بالخطاطة التي تخط بكلتا يديها. كل يد تقدم شيئًا مختلفًا عن الأخرى.

لكن لم أكن أعلم أن جائزتي الكبرى وتكريمي الأهم لن يكون على لوحة في إطار، بل سيكون ما كتبته ورسمته على قلب وروح هذا الذي أشرق على حياتي لخمسة وثلاثين عامًا وشهرين وخمسة أيام[1].

اسمي جنة، ولكن أصبح الكثيرون يعرفونني بأني أم حسين. الشهيد الذي تصدى للمجرم فور إطلاقه النار، شاغله بما يكفي لكي يهرب العشرات وينجوا بحياتهم. في ثوانٍ فقط، قرر حسُّوني أن يكون البطل الذي يقدم حياته لكي يعيش آخرون ربما لا يعرفهم شخصيًّا. هذا هو بطلي، لوحتي الأجمل وتكريمي الأهم.

ولدته جنة، وأخذته الجنة، وبين هذا وذاك خمس وثلاثون سنة وشهران وخمسة أيام. هذه قصة حسُّوني باختصار. إن كان يمكن اختصار شيء رائع بكل تفاصيله مثله.

***

ارتديت الأبيض ليوم اللقاء الأخير. يوم ميلادي، وعيد الأم، واليوم الذي سأتزود فيه بما يعيش معي طيلة عمري. الأبيض الذي كان يحبه عمومًا، ويحبه عليَّ خصوصًا.

وقفنا، أنا وحازم وآية على الباب الذي أغلقوه بيننا وبين الشمس والأوكسيجين.

---

(1) بتاريخ ١٩/ ٥/ ٢٠٢٥ حصل الشهيد حسين حازم العمري على وسام الشجاعة النيوزيلندي موقعا من الملك تشارلز باعتبار أن نيوزيلندا ضمن دول الكومنولث. تسلم الوسام والدته جنة عدنان عزت ووالده حازم العمري وشقيقته آية حازم العمري.

قالوا: توقعوا ألا يكون المشهد مناسبًا. هذه الأيام التي مرت قد تحدث تغييرات على لون الجسد، مع كل الإصابات التي أُصيب بها. المشهد قد يكون فوق قدرتكم على التحمل.

التفتُّ إلى حازم وآية. سأدخل أنا أولًا. إن كان الأمر كما يقولون فلا داعي لدخولكما. وإن كان غير ذلك فسأخبركما أن تدخلا.

وافق حازم وعارضت آية. يفوز الرجال بصيت القوة وسمعتها. أما نحن النساء فنقضي حياتنا في التنقل بين رقة الجورية وصلابة النخلة.

وقفت عند الباب، حتى النخلة تضعف. دعوت الله بأن يقويني. قلت له وهو الأعلم بي، إن الامتحان صعب، الحمد لله، لكنه يجب ألا يكون فوق قدرتي على التحمل. طلبت منه إشارةً تصبرني. تقويني.

دخلت.

وكان هناك شعاع من الشمس في الغرفة. لكنه لم يكن يأتي من النافذة. بل من الشمس الممددة أمامي على الطاولة.

اقتربت منه. كان النور يخرج منه. ورائحة لا أستطيع إلا أن أقول إنها تشبه رائحة الجنة. حسُّوني وسيم. كل الأمهات يقلن ذلك طبعًا. لكن يمكنكم التأكد مما أقول. نقرتان على محرك البحث وتتأكدون. حسين حازم العمري. حسُّوني وسيم جدًّا. زين الشباب وزينتهم وعين أعيانهم. لكنه هذه المرة، في هذا اللقاء الأخير، كان أشدَّ وسامة من أي يوم في حياته. كان وضيئًا طريًّا كما لو لم تمرَّ ستة أيام على كل ما حدث، لا يزال الدم يخرج من أماكن دخول الرصاصات السبع في جسده، يتدفق كما لو ليقول إن هذا الجسد يضم محيطات لا تنضب من الحياة والجمال والشجاعة والشهامة وكل ما هو أصيل في هذه الدنيا.

صحت بحازم وآية أن يدخلا ليشاهدا العريس. فكرت في أن أغني له كما تغني الأمهات في أعراس أبنائهن في الموصل. دقومي يا ميمتو[1] واتباهي بقامتو. لكن أحجمت. أتباهى لا بقامته فقط. بل بكل شيء فيه. كل خلية من خلاياه. كل نفس تنفسه. أتباهى لأنه كان شهمًا ورجلًا وضحَّى بحياته من أجل الآخرين تطوعًا ورغبة...

دخل حازم وآية.

وقفت أتأمل حسُّوني. الآن فقط صدقت أن الأرض مسطحة، ها هي ممددة أمامي على الطاولة. تبدأ عند رأسه الجميل الوسيم النازف. وتنتهي عند قدميه التي وقف عليها ليضحي بحياته...

كان حازم يهزه وهو يقول: قوم حسُّوني قوم...

أما أنا فقد وقفت أحمد الله على نعمته. لقد أغرقني في نعمه يوم أدخل هذا الشاب الجميل إلى حياتي... محظوظة أني رأيته يدخل حياتي، حتى لو كنت رأيته وهو يخرج منها، بعد خمسة وثلاثين عامًا وشهرين وخمسة أيام.

سأبقى ممتنة وأحمد الله، أقتات على ذكرياتي معه في سنوات الشمس المشرقة...

ريثما نلتقي.

إن شاء الله.

---

(1) ميمتو: أمه باللهجة الموصلية القديمة.

مجزرة كرايستشيرش مارس 2019

وقع **الهجومان الإرهابيان في كرايستشيرش** يوم 15 آذار/مارس 2019، حين استهدف مسلَّح متطرف مسجدَي **النور ولينوود** في أثناء صلاة الجمعة، ما أدى إلى مقتل **51مصلِّيًا** وإصابة العشرات. كان الهجوم مخططًا مسبقًا، ونُفِّذ بدافع **التطرف اليميني والعنصرية المعادية للمسلمين**، وشكَّل صدمة عميقة داخل نيوزيلندا وخارجها، باعتباره أعنف هجوم إرهابي في تاريخ البلاد الحديث.

ألقت الشرطة القبض على المنفِّذ حيًّا، وبعد مسار قضائي طويل، أقرَّ بذنبه في جميع التهم. وفي عام 2020، أصدرت المحكمة حكمًا تاريخيًّا بحقه، تمثَّل في **السجن المؤبد دون أي إمكانية للإفراج المشروط**، وهو أشد حكم يُصدر عن النظام القضائي النيوزيلندي. شمل الحكم **51 تهمة قتل، و40 تهمة شروع بالقتل، وتهمة إرهاب**، ليكون أول شخص في تاريخ نيوزيلندا يُدان رسميًّا بجريمة إرهابية.

في أعقاب الهجوم، برز موقف رئيسة الوزراء آنذاك **جاسيندا آرديرن** بوصفه موقفًا إنسانيًّا وأخلاقيًّا حازمًا. ظهرت آرديرن مرتدية الحجاب في أثناء لقائها بعائلات الضحايا، وألقت خطابات أكدت فيها أن **المسلمين جزء أصيل من المجتمع النيوزيلندي**، وإن الجريمة استهدفت قيم البلاد قبل أن تستهدف الضحايا. ومن أبرز ما ميَّز خطابها تعمُّدها **عدم ذكر اسم منفِّذ الهجوم مطلقًا**، مؤكِّدة أنه لا يستحق

الذكر، وإن التركيز يجب أن يبقى على الضحايا وأسمائهم وحياتهم، لا على من حاول سرقة الأضواء بالعنف والكراهية.

كما شددت في خطابها الأول بعد الهجوم على أن ضحايا الهجومَين، **هم نحن**.

They are us.

شكَّل هذا الموقف رسالة رمزية قوية: إن الإرهاب لا يُواجَه فقط بالقانون والعقوبة، بل أيضًا **بنزع المنصَّة الأخلاقية عنه**، وحرمانه الشهرة التي يسعى إليها، مقابل تثبيت قيم التعاطف والعدالة والكرامة الإنسانية.

التزمت الرواية بعدم ذكر اسم المنفِّذ.

كل ما جاء في فقرة البث المباشر كان تفريغًا للفيديو الذي بثَّه المنفِّذ الإرهابي في أثناء جريمته.

وأغلب ما جاء في الفصول الخاصة به كان معتمدًا على بيانه الذي نشره قبل تنفيذ الهجوم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أسماء شهداء هجمات كرايستشيرش الإرهابية (حسب التسلسل الأبجدي)

1. أحمد جمال الدين عبد الغني – 68 – مصري.
2. أشرف علي – 62 – فيجي.
3. أشرف علي رزات – 58 – فيجي.
4. أشرف المرسى راغب – 54 – مصري.
5. أمجد قاسم حامد – 57 – فلسطيني – طبيب قلب.
6. أنسي كاريباكولام عليبافا – 25 – هندية – طالبة ماجستير.
7. أسامة عدنان أبو كويك – 37 – فلسطيني.
8. جنيد إسماعيل – 36 – نيوزيلندي من أصل هندي.
9. حاج محمد داوود نبي – 71 – أفغاني – قيادي مجتمعي.
10. حمزة مصطفى – 16 – سوري.
11. حسين حازم العمري – 35 – عراقي.
12. حسين مصطفى – 70 – مصري.
13. حسناء أحمد – 45 – بنغلاديشية.
14. خالد مصطفى – 44 – سوري.
15. رامز فورا – 28 – هندي.
16. زكريا بهويان – 34 – بنغلاديشي.

17. زكريا تويَّان – 46 – تركي.
18. سيِّد أريب أحمد – 26 – باكستاني – محاسب.
19. سيِّد جهنداد علي – 34 – باكستاني – مطوِّر برمجيات.
20. طلحة نعيم – 21 – باكستاني.
21. طارق عمر – 24 – نيوزيلندي.
22. عبد الفتاح قاسم – 60 – فلسطيني – قيادي إسلامي.
23. عبد الله ديري – 4 – نيوزيلندي من أصل صومالي.
24. عبد القادر علمي – 70 – صومالي –
25. عارف محمد علي فورا – 58 – هندي.
26. عطا عليان – 33 – فلسطيني (مولود بالكويت) – رائد أعمال.
27. عزير قادر – 24 – هندي.
28. علي المدني – 66 – يمني – مهندس متقاعد.
29. علي إبراهيم الدروايش 45 – سوري.
30. غلام حسين – 66 – باكستاني.
31. فرهاج إحسان – 30 – هندي – مهندس برمجيات.
32. كمال درويش – 38 – فلسطيني.
33. كرم بيبي – 63 – باكستانية.
34. ليندا أرمسترونغ – 65 – نيوزيلندية.
35. ليليك عبد الحميد-57- اندونيسي-مهندس.
36. معاذ إبراهيم – 3 – نيوزيلندي من أصل صومالي.
37. محبوب ألّاراخا خوخر – 65 – هندي.

38. محمد عبد الصمد – 66 – بنغلاديشي – أكاديمي.
39. محمد عمران خان – 46 – هندي – رجل أعمال.
40. محمد زيشان رضا – 38 – باكستاني.
41. محمد حازق محمد ترمذي – 17 – ماليزي – طالب.
42. محمد سهيل شاهيد – 36 – باكستاني.
43. محمد موسيد محمد حسن – 54 – موريشي.
44. محسن محمد الحربي – 63 – سعودي.
45. متي الله صافي – 55 – أفغاني.
46. مجمّل حق – 30 – بنغلاديشي – طالب طب أسنان.
47. موسى باتيل – 60 – فيجي – إمام.
48. موسى نور أولي – 77 – صومالي.
49. منير سليمان – 68 – مصري.
50. نعيم رشيد – 50 – باكستاني – معلم.
51. هارون محمود – 40 – باكستاني – أكاديمي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

وقائع الجمعة الأخيرة

في 15 آذار/مارس 2019 نفَّذ إرهابي أسترالي هجومينْ على مسجديْن في نيوزيلندا في أثناء صلاة الجمعة ما تسبَّب بمقتل وإصابة العشرات، قبل أن يُقبَض عليه.

عملية القتل -التي بثَّها مباشرةً على وسائل التواصل الاجتماعي- لم تستغرق أكثر من عشرين دقيقة، لكن كل ضحية من الضحايا الذين سقطوا كان يمتلك حكايةً عمرها عقود، أحيانًا كان عمر حكايته يفوق عمره الشخصي.

حكايات تبدو مختلفة عن أشخاص مختلفين من عوالم مختلفة، لكن عندما صوَّب الإرهابي سلاحه نحوهم، بدوا متشابهين جدًا.

وتلك هي وقائع الجمعة الأخيرة.

على الأقل الأخيرة للبعض منهم.

أعمال أخرى للكاتب

غلاف: محمود هشام

عصير الكتب

مكتبة

t.me/soramnqraa

aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com